ديفيد كوبرفيلد

ترجمة قصة

DAVID COPPERFIELD

بقلم

شارلز دكنز

ترجمة

احمد حسن سعد

ماجستير فى الدراسات الإسلامية
بكالوريوس علوم عسكرية
دبلوم دراسات افريقية
دبلوم معهد السيناريو
دراسات عليا فى أدب الأطفال

تطلب من

مكتبتى احمد حسن سعد

١ شارع الشهيد احمد تيسير (أوتوستراد حلوان سابقا)
بجوار كلية البنات بمصر الجديدة
تليفون ٦٣٩٠٠

ديفيــــد كوبرفيلـــــــد

"الفصل الاولـــــ"

ولدت في يوم جمعه في "بلندرستون" ، في "سافولك" وقد مات والدى قبــــل أن تتفتح عيني للحياه بستة شهور ، وكانت عمة والدى أهم عضو في عائلتنا وهي تدعى "مــــس تروتد وود أو مس بتسي كما كانت تناديها دائما والدتي المسكينه وكما اعتقد فان والـــــدى كان محبوبا لديها ، وهي لم تر والدتي من قبل ولكنها كانت تعرف انها لم تتجاوز العشرين.

هكذا كانت مجرى الاحداث بعد ظهر يوم الجمعه ، ولي عذرى ان أطلق عليه يــــوم هام وملئ بالاحداث . كانت والدتي جالسه بجوار المدفأه منهوكة القوى وضعيفه للغايه حيــن رفعت عينيها الى النافذه المواجهه وشاهدت امرأه غريبه قادمه الى الحديقه . وتأكدت أمــــي من النظره الثانيه انها "مس بتسي" . وقالت مس بتسي "اعتقد انك مسز ديفيد كوبرفيليد ؟ " وكان هذا التأكيد يرجع الى حالة والدتي وثياب الحداد التي ترتديها .

فقالت أمي بصوت ضعيف "نعم"

ثم قالت الزائره "مس تروتوود ، اعتقد انك سمعت عنها ؟ "

فأجابت أمي بأنها مسروره لذلك . ولما جلسا سويا ، لم تنطق مس بتسي بشئ ، وحاولت أمي دون جدوى ان تمسك نفسها ولكنها بدأت في البكاء .

فقالت مس بتسي بسرعه "لا تفعلي ذلك ، تعالي ، تعالي ! ، لماذا ياالهي ، انـــك طفله" . فرفعت أمي رأسها ، وكأنه خطأها ، وقالت وهي تتشنج بالبكاء انها في الحقيقـــه خائفه ، وانها ليست الا أرمله صغيره ، وانها لن تكون الا ام صغيره اذا عاشت.

وتلعثمت والدتي قائله "اني أرتعد ولا أعرف ماذا حدث . . اني متأكده بأني سأموت" فقالت مس بتسي " لا ، لا ، تناولي بعض الشاي " . فصاحت والدتي بطريقة يائســـــه "ياعزيزتي ، هل تعتقدي انه سيحسن من حالتي "

فقالت مس بتسي " بالطبع سيحدث ذلك . . انه لا يعدو الا وهما . . ماذا أسميـــت ابنتك؟ " . فأجابت والدتي ببراءه "اني لا أعلم انها بنت" . فقالت مس بتسي بدهشة "ليبارك الطفل ، اني اعني خادمتك" فقالت امي "بيجوتي"

فرددت مس بتسي "بيجوتي ، هل تعني طفل ، هل يوجد من البشر من ذهب الـــــى الكنيسة المسيحية وسمى بيجوتي " فقالت امي بصوت ضعيف "انه اسمها الاول الذى كان يناديه بها مستر كوبرفيلد ، لان اسم العائله مثل اسمي تماما " .

فصاحت مس بتسي وهي تفتح باب غرفة الاستقبال "بيجوتي ، تعالي هنا . احضـــرى شاى ان سيدتك متوعكه قليلا " . وأقفلت مس بتسي الباب مرة ثانيه ، وجلست حيث كانت من قبل . ثم قالت مس بتسي "لقد قلت من قبل انها بنت ، واني لا أشك بأن الوليد سيكون فتاه" .

فقالت والدتي بجرأه "من المحتمل ان يكون ولدا "

فعادت مس بتسي تقول " لقد قلت لك لابد وأن تكون فتاة . . فلا تعارضي . ومنذ لحظة ولادة هذه الفتاه قررت أن اكون صديقتها ، وآمل ان تسميها "بتسي تروتوود كوبرفيلـــــد . فسوف أعتني بها . وكفي عن الصراخ لانه سيؤذيك انت وابنتك البريئه . . تعالي ولا تفعلـــــي ذلك! "

وقال الدكتور "حسنا ياسيدتي . . يسعدني أن اهنئك فكل شئ تم على احسن حال "

فقالت عمتي وقد طوت ذراعيها "كيف حالها " . فقال دكتور شيليب "بخير ياسيدتـــــي وستشعر براحه تامه سريعا ، فقالت عمتي "والمولودة . . . كيف حالها ؟ "

فأجاب دكتور شيليب "انه ولد ياسيدتي" . ولم تنطق عمتي بكلمة واحدة ، بل أخذت قبعتها من أربطتها وصوبت بها ضربة على رأس الدكتور ، ثم لبستها وسارت الى الخارج واختفت ولم تعد مرة أخرى . ورقدت في سلتي ورقدت والدتي بسريرها وذهبت بتسي تروتوود كوبرفيلد الى غير رجعة .

.. وعندما أعود بذاكرتي الى طفولتي فان أول شئ استطيع أن اتذكره ويبرز من بين خليط مضطرب من الاشياء هو أمي ذات الشعر الجميل وبيجوتي ذات العيون السوداء التي تبدو وكأنها تظلم باقي أعضاء وجهها .

ويأتي منزلنا بعيدا عن السحاب في الطابق الارضي يوجد مطبخ "بيجوتي" وفي الوسط يوجد عريش لمأوى الحمام بدون حمام بداخله ومأوى للكلاب بدون أي كلب وكذلك الوز ذات العنق الطويله وهم يتتبعوني ، وكنت أحلم بالليل الاسود مثلما يحلم من يعيش وسط الحيوانات المتوحشه .

.. كنت جالسا مع بيجوتي وحدنا ذات مساء بجوار مدفأة البهو وكنت اقرأ لبيجوتي عن التماسيح . واعتقد انه أصبح لديها شعورا غير واضح بعد أن تركتها على انها نوع من الخضراوات وكنت متعبا من القراءة ولي رغبه شديدة في النوم ، ولكني كنت قد حصلت على اذن بالسهر حتى تعود أمي من قضاء أمسيه في منزل جارة لنا . لذلك انني كنت أفضل الموت عن الذهاب الى الفراش . وقد وصلت الى مرحلة النوم حينما بدا لي أن بيجوتي تتورم وتبدو ذات حجم كبير . وفتحت جفني بأطراف أصابعي ونظرت اليها وهي جالسه تعمل .. وكم كانت تبدو مسنه .

وقلت لها فجأة "بيجوتي ، هل تزوجت من قبل ؟" . فأجابت بيجوتي "سيدي دافي . لماذا ورد الزواج بخاطرك؟" وكانت اجابتها بطريقة ايقظتني . وعلى ذلك توقفت عن العمل ، ونظرت الى تاركه ابرة الخياطه على امتداد الخيط . وقلت "هل تزوجت من قبل ، بيجوتي ، انك امرأة انيقه ، أليس كذلك؟" . وكنت اعتقد انها من طراز يختلف عن والدتي ، بالتأكيد ، فهي تنتمي الى مدرسة اخرى للجمال ، يمكن أن اعتبرها نموذج كامل للجمال" .

وقالت بيجوتي "انا أنيقه .. لا ياعزيزي دافي ! ولكن لماذا ورد بخلدك موضوع الزواج ؟"
"لا أعرف — ولكنك يجب الا تتزوجي اكثر من شخص واحد في نفس الوقت . فهل ستفعلي ذلك يابيجوتي ؟" . فقالت بيجوتي باصرار تام "بالتأكيد لا" .

"ولكن اذا تزوجت شخصا وتوفى هذا الشخص ، لماذا لا تتزوجين شخص آخر ، هل ستفعلي ذلك يابيجوتي ؟" . فقالت بيجوتي "يمكنك ، اذا اخترت ذلك ياعزيزي . انه مجرد رأى" فقلت "ولكن ماذا عن رأيك ، يابيجوتي ؟" . سألتها ذلك ونظرت اليها بفضول ، ونظرت الى بفضول أيضا . فقالت بيجوتي بعد أن أزاحت عينيها عني وهي مستمرة في عملها "رأيي انى لم اتزوج من قبل ، ياسيدي دافي ، ولا أتوقع ذلك . هذا كل ما أعرفه عن هذا الموضوع" .

وبعد أن جلست هادئا لمدة دقيقه قلت "اعتقد انك لم تتعرض لذلك يابيجوتي ، هل هذا صحيح ؟" . كنت اعتقد ذلك صحيحا — ولكني مخطئ تماما لانها حين سمعت ذلك تركت عملها جانبا وفتحت ذراعيها وضمت رأسي بينهما وضغطت عليها .

وقالت بيجوتي وهي مازالت تخطئ في الاسم "والان دعني اسمع اكثر عن التماسيح ، لانني لم اسمع نصف ما يكفيني" . لقد تحدثنا كثيرا عن التماسيح وبدأنا بالتماسيح الامريكيه عندما دق جرس الحديقه ، فذهبنا الى الباب ، وكانت هناك أمي وقد بدت على غير عادتها جميله ، وكان معها سيد ذو شعر أسود ، وكان قد رافقنا يوم الاحد الماضي من الكنيسه الى المنزل . وربت السيد على رأسي ، ولكني لم أحبه ولم أحب صوته العميق ، وشعرت بالغيرة اذ لمست يده يد أمي وهي تلمسني — فأزحتها بعيدا بقدر ما أستطيع .

فاحتجت على أمي قائله "أوه ، دافي !"
فقال السيد "ايها الولد العزيز ، انى لا أستطيع أن اندهش لمدى اخلاصك!" وقال

"دعنا نقول لك طاب مساؤك ياولدى الجميل" وأحنى رأسه ونظرت اليه من فوق قفاز والدتى الصغير. وقلت "طاب مساءك". وفى هذه اللحظه وجدته يتجه الى الحديقه ، وينظر الينا نظره أخيره بعينيه السوداوتين ذات النأل الغير حسن ، قبل أن يقفل الباب.

.. وبالتدريج اعتدت على رؤية السيد ذى السوالف السوداء المستر موردستون الذى عرفت اسمه الان. ولكنى لم أحبه اكثر من ذى قبل ، وكان لدى نفس شعور الغيره منه والتى تسبب لى القلق ، ولم يكن لدى سبب لذلك سوى شعور طفل بالكراهيه بغريزته — وكذا الفكره العامه لدى أنا وبيجوتى عن امى بدون اية مساعده ، وبالتأكيد لم يكن هذا هو السبب الذى كان من الممكن الوصول اليه لو انى كنت أكبر سنا.

وكنا جالسين ذات مساء بينما كانت والدتى بالخارج . وكان بصحبتنا قطعه صغيره من الشمع وكتاب عن القديس بول ، وكتاب عن التمساح — حينما نظرت الى بيجوتى عدة نظرات ثم فتحت فمها كما لو كانت ستتكلم ، ولكنها لم تفعل ذلك — وكدت أخاف لولا أنها قالت بتملق؛ "ياسيد دانى . هل ترغب فى أن تقضى معى اسبوعين عند أخى فى يارموث؟ ولا تعتبر هناك وليمه وانما هناك البحر والقوارب والسفن والصيادين والشاطئ وآم ليلعب معك".

وكانت بيجوتى تقصد ابن عمها "هام" ، وتحدثت عنه بأنه قوى فى قواعد اللغه الانجليزيه. ..وتحمست للفكره واجبت بأننى احب ان اذهب ، ولكن ماذا سوف تقول أمى ؟ فقالت بيجوتى وهى تنظر نحوى "انى مستعده أن أراهن على جنيه بأنها ستسمح لنا بالذهاب. وسوف أسألها اذا أردت ، فور وصولها للمنزل ، والان!".

ووضعت كوعى الصغيرين على المنضده لاناقش ذلك الموضوع وقلت "وماذا ستفعل ونحن بعيدين عنها؟ انها لاتستطيع ان تعيش بمفردها". فقالت بيجوتى "الا تعلم أنها سوف تمضى اسبوعين مع مسز جوبير". — "..اوه ، اذا كان الامر كذلك فانى مستعد تماما للذهاب وانتظرت بقلق حتى جاء يوم رحيلنا ، وكنا سنذهب فى عربة حمال وسوف ترحل فى الصباح بعد الافطار.

وكان حصان العربه اكسل حصان فى العالم ، وكان منكس الرأس كما لو كان يرغب فى أن يظل الناس منتظرين ليعرفوا الى اين ستذهب الامتعه. وكان الحمال منكس الرأس مثل حصانه ، فكان يقود العربه وهو نائم وكان يضع احدى يديه على أحد ركبتيه. فقلت "يبدو لى ياتود ان العربه تستطيع أن تذهب الى يارموث بدونه ، لان الحصان يفعل كل ذلك.

وكنت فى غاية التعب والسرور عندما رأيت "يارموث". وكانت تبدو لى اسفنجيه حيث نظرت الى ذلك الفضاء الموحش عبر النهر ، وكنت اتعجب لما ذكر فى كتب الجغرافيا من أن العالم كروى بينما أرى جزء منه مسطح للغاية. ولكنى فكرت فى أن تكون يارموث فى أحد الاقطاب.

وصاحت بيجوتى "هاهو هام". — لقد كان فى انتظارنا ، وسألنى عن حالى ، وكان شخصا ضخما قويا يبلغ من الطول ستة أقدام ، ولكن وجهه كان وجه صبى ، وشعره كان قليل التجاعيد وحملنى على ظهره بينما حمل أحد صناديقنا الصغيره تحت ذراعيه. وحملت بيجوتى صندوقا صغيرا آخرا. وانعطفنا فى أزقه مغطاه بأجزاء من سفن وكثبان رمليه صغيره حتى وصلنا الى مكان قاحل كئيب وقال هام "ها هو منزلنا هناك ، ياسيد ديفى"

فنظرت فى كل الاتجاهات. بعيدا الى البحر وبعيدا الى النهر ولم أجد مايدل على وجود منزل. وكانت هناك سفينه سوداء ليست بعيده وكانت راسيه على الارض ولها مدخنه حديديه تبرز منها ، ولكنى لم أستطع رؤية شئ آخر على شكل منزل.

فقلت "ليس هذا منزل ، انه شئ يشبه السفينه"
فأجاب هام "انه هو ياسيد ديفى"

وسررت لفكرة سكني فيها ، وكان لها باب مسقوف فتح في جانبها ، وكانت لها نوافذ صغيرة ولكن سحرها كان يكمن في أنها سفينه حقيقيه لم يقصد باقامتها ابدا أن تستغل للسكنى على الارض • وكانت نظيفة وجميله من الداخل • وكانت بداخلها منضده وساعه وصندوق به أدراج • وتوجد عليه صينيه شاى عليها رسومات • وكان يحفظها من الوقوع انجيل • لانها ان وقعت فسوف يتحطم عدد كبير من الاكواب والفناجين وابريق للشاى وضعت جميعها حول الكتاب • وكانت على الحائط بعض المناظر الملونه لموضوعات من الكتاب المقدس • • ابراهام باللون الاحمر يذهب ليضحى من أجل اسحق باللون الازرق ، دنيال باللون الاصفر يذهب الى غابه بها اسود باللون الاخضر وتوجد بعض الصناديق تستعمل كمقاعد •

كل ذلك رأيته من النظرة الاولى عندما عبرت المدخل • وبعد ذلك فتحت بيجوتى بابا صغيرا وارتنى حجرة نومى • ولم أر من قبل حجرة نوم كامله ولطيفه مثلها •

• • ورحبت بنا سيدة متمدينه ذات طرحه بيضاء • ومعها فتاه صغيرة جميلة تلبس عقدا من الخرز الازرق والتى رفضت أن اقبلها حينما قدمت اليها — بل أسرعت واختبأت • • وفيما بعد عندما كنا نتناول طعام الغذاء المعد بطريقه فاخره والذى يتكون من سمك مسلوق ، وزبده وبطاطس أتى الى المنزل رجل مشعر ذو وجه طيب جدا • وحيث انه نادى بيجوتى ب "لاسى " وقبلها قبله مليئه بالعطف على وجنتيها — لذا لم يعد لدى شك فى انه أخوها • وقد تبين لى ذلك عندما قدم الى باسم مستر بيجوتى : صاحب المنزل "

قال مستر بيجوتى "انى مسرور لرؤيتك ياسيدى ، ولو أنك ستجدنا خشنين الا اننا مستعدين لخدمتك" • فشكرته وأجبت باننى متأكد اننى سوف أكون سعيدا فى مثل هذا المكان اللطيف •

• • وبعد تناول الشاى أقفل الباب وكان كل شئ هادئ • وعندما تسمع الريح تهب من البحر ، وتنظر الى المدفأة وتفكر فى انه لايوجد منزل قريب سوى هذا ، تشعر ان هذا مثل السحر • وتغلبت اميلى الصغيره على خجلها وجلست بجانبى على مقعد يكفى لاثنين ومثبت بركن المدفأه • وكانت مسز جوميدج ، ذات الطرحه البيضاء ، تغزل فى مواجهة المدفأه • وكان مستر بيجوتى يدخن سيجاره • وشعرت انه وقت مناسب للحديث والثقه •

فقلت "مستر بيجوتى ! هل أطلقت على ابنك اسم هام لانك عشت فى سفينه كبيره"

وبدأ مستر بيجوتى يفكر فيها على انها فكرة عميقه ولكنه أجاب ، "لا ياسيدى ، لم أطلق عليه هذا الاسم" • فقلت لمستر بيجوتى "اذن ، من أطلق عليه هذا الاسم؟ " فقال مستر بيجوتى "لماذا • • ان والده هو الذى أسماه" "لقد كنت اعتقد انك والده"

فقال بيجوتى "ان اخى جو هو والده" • وأشرت بعد أن انحنيت باحترام "وهل مات يا مستر بيجوتى ؟ "

فقال مستر بيجوتى "مات غريقا " • وكنت مندهشا جدا عندما وجدت ان مستر بيجوتى ليس والد هام" ، وبدأت اتعجب عما اذا كنت اخطأت فى علاقته بشخص آخر هناك • وكنت شغوفا لمعرفة ذلك من مستر بيجوتى • وسألته عن ذلك الموضوع "وهل اميلى الصغيرة هى ابنتك يامستر بيجوتى ؟ "لا ياسيد ان توم هو والدها وهو اخ غير شقيق" • وأشرت بعد صمت يسوده الاحترام " وهل مات يامستر بيجوتى ؟ " فقال مستر بيجوتى "مات غريقا "

وقد وجدت صعوبه فى استئناف الموضوع ، ولكنى لم ادركه تماما • ولذا يجب الغوص فى أعماقه وعلى ذلك قلت له : "هل لديك أطفال يامستر بيجوتى " فأجاب بضحكه قصيره "لا ياسيد فانى أعزب" وقلت مندهشا "اعزب لماذا؟ اذن فمن تكون هذه يامستر بيجوتى ؟ وأشرت الى السيدة التى تغزل وهى مرتديه طرحه • فقال مستر بيجوتى "انها مسز جوميدج "

" جوميدج ، مستر بيجوتى "

•• وفى هذه النقطه المحت بيجوتى — أعنى عزيزتى بيجوتى — بالا أسأل مرة أخرى ، وان أجلس وانظر الى الصحبه الصامته الى أن يحين موعد الذهاب الى السرير، وفيما بعد وعلى انفراد اخبرتنى بيجوتى فى غرفتى الخاصه أن "هام" و "اميلى" هما ابن اخ وابنة أخ أيتام تبناهما مستر بيجوتى فى طفولتهما عندما تركا بلا مأوى • وأن مسز جوميدج ارمله زميله فى القارب والذى توفى فقيرا جدا • وقال عنه بيجوتى انه فقير ولكنه ثمين مثل الذهب ومعدنه أصيل مثل الصلب•

•• وبمجرد أن اشرقت الشمس خرجت مع "اميلى" الصغيرة لتلتقط احجارا على الشاطئ •وقلت لاميلى "اعتقد انك سباحه ماهره" • فأجابت اميلى وهى تهز رأسها "لا •• اننى أخاف من البحر" وقلت بلهجة تتسم بالشجاعه "أتخافين ، انى لا أخاف" • فقالت اميلى "ولكنه قاسى ، فقد رأيت كيف كان قاسيا لبعض رجالنا • لقد رأيته يمزق قارب ضخم مثل منزلنا الى قطع عديدة" •

•• "اتعشم الا يكون القارب الذى ••••••" • فقالت اميلى الذى غرق فيه والدى؟ لا ، اننى لم أر هذا القارب" وسألتها "ولا هو ؟" • وهزت اميلى الصغيرة رأسها "لا تذكرنى !"

وهنا حدثت المصادفه فقد بدأت على الفور أشرح كيف اننى لم أر قط والدى ، وكيف اعيش انا ووالدتى نحول أنفسنا فى أسعد خيالاتنا • ولكن يوجد بعض الاختلافات بين حياتى وحياة اميلى رغم أن كلانا يتيم لانها فقدت والدتها قبل أبيها •

وقالت اميلى وهى تنظر الى القواقع "الى جانب ذلك ، كان والدك رجلا ذو مكانه ووالدتك سيدة محترمه ، ولكن والدى كان صيادا للسمك ووالدتى ابنة صياد للسمك وعمى "دان" كان صيادا •

فقلت "اليس دان هو المستر بيجوتى ؟" • فأجابت اميلى وهى تشير الى المنزل الذى على شكل قارب "عمى دان يقيم هناك فى السفينه" •

—" نعم انى أعنيه •• لابد وأن يكون رجلا طيبا جدا على ما أعتقد" ووقفت اميلى الصغيرة تنظر الى السماء بمنظرها الزاهى ، وذهبنا سويا مرة أخرى لنلتقط الاصداف والاحجار• فقلت "هل ترغبى فى أن تكونى سيدة؟" • فنظرت الى اميلى وهى تضحك قائله "نعم• انا أرغب فى ذلك بشدة ونصبح جميعا طيبا انا وعمى وهام ومسز جوميدج • وحينئذ لن نكترث حين تحدث عاصفة • وليس ذلك من أجلنا ولكنه من أجل صيادى السمك الفقراء الذين سنتمكن من مساعدتهم بالمال حينما يصيبهم أذى •

•• وتجولنا مسافه طويلة وملأنا ذراعينا بأشياء ظننا انها غريبه ، ثم اتخذنا طريقنا الى المنزل أعنى الى قارب مستر بيجوتى • ووقفنا حيث تبادلنا القبلات البريئه• ثم ذهبنا لتناول طعام الافطار ونحن متمتعين بالسرور والصحة الطيبه•

•• وكان شيئا طبيعيا ان اقع فى حب اميلى ، وانى متأكد اننى احببت هذه الطفلـــــه بصدق واخلاص وطفولة اكثر مع حبى لها فى أى وقت آخر من أيام حياتى التى جاءت فيما بعد •

•• وتعودنا ان نسير حول هذه الشقه المظلمه العتيقه بيارموث على طريقة العشاق ساعات وساعات ومرت الايام وكان الوقت مثل الطفل يلهو دون أن ينمو • وقلت لاميلى انى اعبدها وانها اذا لم تقل لى انها تعبدنى فسوف اقتل نفسى بالسيف• فقالت انها كذلك تعبدنى هى الاخرى• وكنت لا أشك فى شعورها نحوى•

ومر الاسبوعان سريعا لا يغيرهما الا تغير المد والجزر الذى يغير اوقات خروج وعودة مستر بيجوتى ، وكان "هام" يسير معنا فى بعض الاحيان التى لا يكون فيها مشغولا ليرينا القوارب والسفن ، وقد أخذنا مرة او مرتين لنجدف• لم أكن قد سمعت او قرأت من قبل اسم يارموث• ولكننى اتذكره الان بأحد أيام الاحاد حين كنا على الشاطئ ، وكانت اجراس الكنيسه تدق ، وكانت اميلى الصغيرة تتكأ على كتفى بينما يلقى هام الاحجار بكسل فى الماء ، والسماء بعيدا خلف الشبوره تظهر السفن وكأنها ظلال •

.. واخيرا جاء يوم عودتي الى المنزل ، وكنت طوال الوقت الذى استغرقته زيارتي لم أفكر قليلا أو مطلقا في منزلي . أما الان فكلما اقترب موعد العودة كلما اصبحت أشد تلهفا للعودة للمنزل لارتمي في أحضان أمي .ولكن بيجوتي بدلا من مشاركتي شعوري ، حاولت أن تمنعه . وبدت مضطربه وغير سعيدة .. واخيرا وصلنا الى جبلاية بلندرستون .. كم أتذكرها في هذا المساء حين كانت السماء موحشه ، وتنذر بنزول المطر . وحين فتح الباب بحثت عن أمي نصف ضاحكا وباكيا ولم أجدها ولكني وجدت خادمة غريبة .

فقلت خائفا "ماهذا يابيجوتي ، الم نعد لمنزلنا؟!" فقالت بيجوتي "نعم ، نعم ياسيد دافي . لقد عدنا الى المنزل .. انتظر قليلا ياسيد دافي وسأشرح لك الموضوع"

واخذتني بيدها ، وهي مندهشه ، الى المطبخ ، واغلقت الباب . فقلت وأنا خائف "ماذا حدث يابيجوتي ؟ ! " . فأجابت بيجوتي وهي تتحدث بطريقه لاهثه "لاشئ ، ياعزيزي السيد دافي "اني متأكد أن شيئا قد حدث . اين أمي ؟ ! "

فرددت بيجوتي " اين ماما ياسيد دافي ؟ " — "نعم . لماذا لم تذهب للقائنا عند البوابه؟ ولماذا أتينا الى هنا؟ ، آه يابيجوتي " .. ثم اغرورقت عيني ، وشعرت بأني سأقع على الارض . وصاحت بيجوتي ممسكه بيدي "ليتبارك الطفل الغالي ! ماهذا ، تكلم ياعزيزي! "

"ولم تمت أيضا ، أوه .. ألم تمت يابيجوتي ؟ " فصاحت بيجوتي بصوت يعلوه الدهشه "لا " ثم جلست وبدأت تلهث وقالت بأني احدثت لها دوارا . وعانقتها وجلست أمامها ونظرت اليها بشغف لاستفسر . فقالت بيجوتي "انظر ياعزيزي .. كان يجب ان اخبرك من قبل ولكن لم يكن لدى الفرصه" . فقلت وانا اكثر خوفا من قبل "اكملي يابيجوتي " . فقالت بيجوتي وهي تخلع قبعتها ملوحة بيدها ، وكان حديثها وهي لاهثه "سيد دافي ، ماذا تظن ؟ لقد أصبح لك أب! "

فارتجفت وشحب وجهي . فقالت بيجوتي "أب جديد " . فرددت "أب جديد ؟" ولهثت بيجوتي كما لو كانت قد ابتلعت شيئا صلبا ، وقالت "تعال وانظر اليه "فقلت "انا لا أريد أن اراه" فقالت بيجوتي " ..... ووالدتك" . فتوقفت عن الرجوع للخلف ، وذهبنا مباشرة الى غرفة الاستقبال حيث تركتني بيجوتي ، وكانت امي تجلس الى جانب المدفأة بينما كان يجلس مستر مردستون الى الجانب الاخر ، وتركت أمي شغلها ونهضت بسرعه ولكن بحياء — على ما أظن .

وقال مستر مردستون "والان ياعزيزتي كلارا تذكرى انه يجب ان تتحكمي في اعصابك .... تحكمي دائما في نفسك .. كيف حالك أيها الصغير ديفي ؟ " — وأعطيته يدى ، وبعد لحظه ذهبت وقبلت أمي فقبلتني وربتت برقه على كتفي ، ثم جلست ثانيه لتواصل شغلها ، ولم أستطع أن انظر اليه .... فقد كنت أعرف تماما انه ينظر الينا ، فاتجهت الى النافذه ونظرت الى الخارج .. وبسرعه تسللت الى الطابق العلوى ، ووجدت ان حجرة نومي قد تغيرت . وانه يجب على ان انام بعيدا . ونزلت السلم وتجولت بالدور الارضي لابحث عن شئ لم يتغير ولكني وجدت أن كل شئ قد تغير . وتراجعت للخلف من شدة الدهشه حينما وجدت ان مأوى الكلب أيضا قد احتله كلب ضخم آخر ذو فم ضخم وشعر أسود مثل "ميردستون" تماما وحينما رآني كان يبدو عليه الغضب وقفز ليلحق بي .

(الفصل الثانـــي)

.. واستيقظت من حجرة نومي على صوت ينادى بعد أن ازاح الغطاء عن رأسي الدافئه "ماهو" . فقد أتت امي وبيجوتي تبحثان عني ، وكانت احداهما التى فعلت ذلك" .

وقالت أمي "ديفي ، ماذا حدث ؟ " . واعتقدت انه شئ غريب ان تسألني ، فأجبت قائلا "لاشئ " . واخفيت وجهي محاولا اخفاء شفتاى اللتان ترتعشان وأجبتها بثقه . وقالت أمي "ديفي ياطفلي ؟ " . ثم شعرت بلمسه يد عرفت أنها ليست يد أمي او يد بيجوتي ، فانتفضت واقفا الى جانب السرير ، فقد كانت يد مستر مردستون ، وقد أبقاها على ذراعي بينما قال "ماهذا! يا كلارا .. هل نسيتي الحزم ياعزيزتي ؟ " فقالت أمي "اني آسفه جدا ياادوار فاني كنت أود أن اكون حسنه جدا ولكني متعبه للغايه" .

فأجاب قائلا "حقا" . انه لمما يؤسف له أن يسمع ذلك ياكلارا" . فعادت امي تقول "انه لشئ يصعب تنفيذه الان ثم تمتمت" انه شئ صعب" . وضمها اليه ، وهمس في اذنها وقبلها . وقد عرفت جيدا حينما رأيت رأس امي متكه على كتفه وذراعها يلمس رقبته ، انه يستطيع أن يشكل طبيعتها الساذجه على الشكل الذى يختاره ، وقد علمت الان انه قد نجح في ذلك .

وقال مردستون "انزلي ياعزيزتي . وسوف ننزل أنا وديفيد سويا" . وعندما تركتنا وحدنا ، اغلق الباب وجلس على مقعد ، وتركني واقفا امامه مثبتا نظره في عيناى . وبدأت أسمع خفقات قلبى سريعه وعاليه . ثم خاطبني وهو يضغط على شفتيه حتى اصبحتا رفيعتان من شدة الضغط عليهما ، وقال لى : "ديفيد ، لو كان لدى حصانا او كلبا عنيدا اتعامل معه ، فماذا تظن انى سأفعل به؟ !"

وأجبت عليه هامسا دون تنفس ، وشعرت في سكوني ان انفاسي قد اصبحت الان قصيره ، وقلت له "لست أعرف" . فقال "اضربه ، وأقول لنفسي انني سأهزم هذا المخلوق حتى لو كلفني ذلك كل مالديه من دم . فانني سوف أفعل ذلك" . ثم سكت وقال "وماهذا الذى على وجهك" فقلت "قذاره" . وكان يعلم مثلي انها دموع . ولكني لم اعترف له بسقوط دموعي حتى اذا كان قد كرر سؤاله عشرين مره وكانت كل مره بعشرين ضربه لان قلبى كان سيتحطم قبل ان اعترف له بضعفي وسقوط دموعي وقال وهو يبتسم ابتسامه صارمه "ان لديك ذكاء جما بالنسبه لسنك الصغيره واعتقد انك تفهمني جيدا ، فاغسل وجهك ياسيدى وانزل معي".

.. وأشار لي الى مكان الاغتسال ولم يكن لدى اقل شك في انه سوف يلقي بي على الارض دون اقل تردد اذا تلكأت في تنفيذ ذلك . ولما فعلت ما أمرني به سار معي الى غرفة الاستقبال وكانت يده ماتزال على كتفي حين قال "كلارا ، ياعزيزتي ، آمل انك سوف لا تزعجني مرة أخرى ، وسوف نزيد من مرح شبابنا" .

.. وتناولنا نحن الثلاثه الغذاء ، وبدا كأنه مغرم بأمي كما بدت هي الاخرى مغرمة به . وفهمت من حديثهما ان اختا كبرى لمستر مردستون ستأتي ذلك المساء ، وأظن انني اكتشفت في ذلك الوقت ان له بعض الاسهم في ارباح شركة لتجارة الخمور بلندن ، وكانت لاخته حصة في تلك الشركة .

.. وبعد الغذاء ، بينما كنا نجلس بجوار المدفأه ، وقفت عربة بباب الحديقة ، وذهب مستر مردستون لاستقبال الزائرة . وكانت مس مردستون — وهي الزائرة التي وصلت — امرأة كئيبة المظهر عابسه مثل أخيها ، ولها حاجبان كثيفان جدا يتقابلان تقريبا فوق أنفها الضخم . وأحضرت معها صندوقين ذو لون اسود وحينما كانت تدفع الاجره لسائق العربه — اخرجت النقود من كيس صلب معلق بسلسله على ذراعها . ولم أر قط امرأة خشنة مثلما كانت مس مردستون .

.. جئ بمس مردستون الى غرفة الاستقبال بكثير من علامات الترحيب ، ثم نظرت الي وقالت "هل هذا ابنك يازوجة اخي ؟" . واعترفت امي بي . فقالت مس مردستون "لا أحب الاولاد بصفة عامه ، كيف حالك ايها الصبي" . وتحت هذه الظروف المشجعه ، أجبت بأني بصحه جيدة جدا واتعشم ان تكون هي أيضا بطريقة مختلفه حتى ان مس مردستون تدبرت لي بكلمتين "تحتاج الى اخلاق" . وبعد أن نطقت هذا بوضوح كامل ، توسلت لان ترى حجرتها . وعلى قدر ادراكي فان مس مردستون قد اتت لتظل معنا وليس لديها الرغبه في العودة مرة أخرى . وفي صباح اليوم التالي بدأت تساعد والدتي ، وكانت تقضي اليوم كله في ترتيب الاشياء . وعندما نزلت امي للافطار وكانت ذاهبه لاعداد الشاى ، قبلتها مس مردستون قبلة سريعه على وجنتها وقالت: "والان ياعزيزتي كلارا ، اني هنا لاخفف عنك كل مايمكن حمله من متاعب ، فلو تكرمت في اعطائي المفاتيح ، ياعزيزتي فاني سأتولى عنك هذه المهام في المستقبل" . ولم تقاس امي من أن تسحب سلطاتها دون أدنى معارضه .

وذات مساء عندما كانت مس مردستون تقوم بتغيير أوضاع بعض اثاثات منزل أخيها والذى سبق له

ان استحسن الوضع القديم للاثاث ـ صاحت والدتي فجأة انها تعتقد انه يجب استشارتها أولا في ذلك. وقال مستر ميردستون "كلارا ، كلارا ، اني مندهش منك" . وصاحت والدتي "آه ، حسنا ان تقول انك مندهش ، وانه لشئ حسن جدا ان تتحدث عن الحزم ، ولكنك لا ترغب في ذلك"

وقد لاحظت ان الحزم هي الصفه التي تجمع بين مستر ومس ميردستون ولكني اعتقد انه يجب أن يطلق على الحزم اسم آخر كالبغي ـ كما يجمع بينهما ايضا الكآبه والكبرياء ومزاج الشيطان . وصفاتهما كما اعتقد الان هي كالاتي : مستر ميردستون حازم ، ولا يوجد في العالم شخص في حزمه لان اي شخص يأتلم حزمه وأما مس ميردستون فشاذة ويمكن أن تكون حازمه لقرابتها له ـ ولكن حزمها بدرجة أقل . وأمي هي أيضا شاذه . يمكن ان تكون حازمه ، ويجب أن تكون ، ولكنهما حينما يكونا حازمين ، يعتقدان انه لا يوجد حزم مثل حزمهما على وجه الارض

.. وكان هناك حديث بشأن ذهابي الى مدرسة داخليه ، وكنت في ذلك الوقت أتلقى دروسا بالمنزل . وهل يمكن ان انسى هذه الدروس؟ لقد كان مفروضا ان تقوم امي باعطائي هذه الدروس ولكنها في الحقيقة كانت تعطى لي بواسطة مستر مردستون واخته اللذان كانا دائما موجودين حيث ينتهزان الفرصه لاعطاء أمي دروسا فيما يطلقان عليه اسم الحزم بنوع الخطأ والذي كان الشر في حياتنا سويا . واعتقد انهم احتفظوا بي في المنزل لهذا الغرض.

.. وبعد الافطار ذهبت الى الحجرة الثانية للاستقبال . وكان معي كتبي ، وكراسة التمارين ولوح اردواز . وكانت والدتي تنتظرني خلف المكتب ، بينما مستر ميردستون على الكرسي المتحرك بجانب النافذه ، وكان يزمع قراءة كتاب ، وكانت مس ميردستون بجانب والدتي . وكان منظرهما له تأثير كبير في نفسي ، فبدأت أشعر ان الكلمات التي أتعلمها وأنا أشعر بالالم تنمحي تماما عندما تصل الى رأسي ، ولا أعرف الى أين تذهب واني لاندهش الى اين تذهب هذه الكلمات:

وسلمت الكتاب الاول لامي . ومن المعتقد ان يكون تمارين أو من الممكن أن يكون تاريخ أو جغرافيا . وقد القيت نظره على الصفحه وأنا اعطيه في يدها ، وبدأت بصوت عال ارددما فيها حينما تذكرتها . وتعثرت في كلمه . فنظر الى مستر مردستون . وتعثرت في كلمة اخرى ، فنظرت الى مس ميردستون . واحمر وجهي وتعثرت في كلمات كثيره ، وتوقفت . وفكرت في أن أمي يجب أن تطلعني على الكتاب ، اذا كانت لديها الجرأة ، ولكنها لم تجرأ ، وقالت برقة:

"آه ، ديفي ، ديفي"

وقال مستر مردستون "والان ياكلارا كوني حازمه مع الولد . ولا تقولي (آه ، ديفي ، ديفي) ان ذلك طفولي . انه يعرف درسه أو لا يعرفه" . وتدخلت مس مردستون كالعادة قائله ، انه لا يعرفه"

وقالت أمي "اني أخشى حقيقة الا يعرفه ، والان يا ديفي فلتحاول مرة أخرى ولا تكن غبيا .

واطعت ، ولكني كنت غبيا جدا . وتعثرت قبل أن أصل الى النقطه التي سبق ان قلتها صحيحه وتوقفت لافكر . وبدأ مستر ميردستون يحدث حركه تدل على نفاذ الصبر . ونظرت أمي بخضوع اليهما وقفلت الكتاب ، وتركته جانبا كواجب سابق يجب عمله بعد أن افرغ من الدروس الاخرى . وتراكمت على الواجبات وأصبحت مثل كرة الثلج المتدحرجه ، وكلما تكثر الواجبات كلما يزداد غبائي . وأصبحت الحاله ميئوس منها . وكانت النظرة البائسه التي نظرت بها أنا وأمي كل منا للاخر ، تدعو للحزن حقيقه . ومن الحوادث المؤثرة في هذه الدروس الكئيبه هو أن أمي كانت تحاول ان تلمح لي بتحريك شفتيها وهي تعتقد أن احدا لا يلاحظها عندما كانت تراقبها مس مردستون وهي راقده ، وصاحت محذره لها : كلارا" ؟!"

وبدأ وجه أمي يحمر وتبسمت بضعف . وقام مستر مردستون من فوق كرسيه وامسك بالكتاب وقذفه في اتجاهي فصفع اذني به ثم طردني من الحجره بكلتا يديه . وشعرت في هذه الفترة أن حظي في متابعة الدراسة كان يمكن أن يكون أحسن بكثير لو لم أعش مع المستر والمس مردستون . لقد كان تأثيرهما بالنسبه لي كتأثير ثعبانين يهاجمان طائرا محطما . وكانت النتيجة الطبيعيه لتلك المعامله أن اصبحت مكتئبا وكسولا وعنيدا . وكان يزيد من هذه الحالة شعوري يوميا بعزلتي وبعدي عن أمي .

•• وكان والدي قد ترك مجموعة كتب صغيرة في حجرة صغيرة بالطابق العلوي والتي كنت احبها لانها متصله بحجرتي • ولم يدخلها احد غيري في المنزل • وكانت هذه الكتب تحفظ خيالي حيا • وتجعلني اتعلق بأمل بعيد عن ذلك الزمان والمكان • ولذا كانت الكتب هي راحتي الدائمة الوحيدة •

•• وذات صباح ، حينما ذهبت الى غرفة الاستقبال ومعي كتبي الدراسيه ، وحيث امي تنظر لي بقلق ، وكانت مس مردستون تبدو صارمه ، وكان مستر مردستون يربط شيئا ما حول أسفل العصا التي أخذ يحركها في الهواء ، وعندما دخلت قال : "والان يا ديفيد ، يجب ان تكون اليوم أكثر حرصا عن المعتاد" ثم حرك العصا مرة أخرى ، وبعد أن انتهى من اعدادها وضعها الى جانبه واخذ كتابا • وكان هذا كبداية يعتبرونه منعش جيد لذاكرتي • وشعرت بأن كلمات دروس تنمحى وليس ذلك كلمة كلمة ، أو سطرا بسطر — بل بالصفحه واحاول ان أجمع كلمات دروسي ولكن يبدو ، كما استطيع ان اعبر ، ان تلك الكلمات كانت ترتدي حذاء للتزحلق ، وكانت تنزلق مني بسهولة دون أدنى اعتراض •

•• بدأنا الدرس بطريقة سيئه ثم تحولت الى أسوأ ، وكان يضيف كتابا بعد كتاب الى كوم الكتب التي فشلت في استذكارها ، وكانت مس مردستون تراقبنا بحزم طوال الوقت ، واخيرا انفجرت امي باكيه • ونهض مستر مردستون وهو يأخذ عصاه "ديفيد • سنذهب سويا الى الطابق العلوي ايها الولد" •

وعندما اخذني الى الباب ، جرت امي نحونا ، ولكن مس مردستون منعتها قائله "هل انت بلهاء بالكلارا ؟" ورأيت امي تسد اذنيها وسمعتها تبكي • وسار معي ببطئ واتزان الى غرفتي ، وانى متأكد انه كان يجد متعه في هذا العرض الرسمي لتنفيذ حكم القضاء • وعندما وصلنا هناك لوى رأسي فجأه تحت ذراعه • فصرخت فيه "مستر مردستون" أرجوك ياسيدي الا تضربني ! لقد حاولت ان اتعلم ، ياسيدي ، ولكني لا استطيع ان اتعلم حينما تكون انت ومس مردستون بالقرب مني ، اني لا أستطيع ذلك بكل تأكيد" فقال : "الا تستطيع ذلك ياديفيد اذن سوف نحاول ذلك مرة أخرى"

•• وكان ممسكا رأسي بقوه ، ولكني درت حوله بطريقة ما ، واوقفته لحظه لاتوسل اليه الا يضربني لقد اوقفته لحظه واحدة فقط ، لكنه سرعان ماضربني بقوة • وعندئذ عضضت اليد التى تمسكني وضربني بقسوة وكأنه يضربني كي أموت • وبالرغم من الضجه التي احدثناها فقد سمعت امي وبيجوتي تصعدان السلم وهما تصرخان • وحينئذ خرج واقفل الباب من الخارج ، فبينما رقدت على الارض متألما حزينا وفي أشد حالات الغضب •

•• وانى اتذكر جيدا عندما هدأت ، لقد احسست أن هدوءا غير طبيعي يسود المنزل ! وكم اتذكر جيدا ، عندما بدأت عاطفتي ، فقد بدأت اشعر بشرود ي • وظللت بسجني خمسة أيام • ولا أستطيع ان أشرح مدى احساسي بطول تلك الايام • وكنت في سجني اسمع كل شئ يدور بالمنزل دق الاجراس ، تغلق وفتح الباب ، تمتمة الاصوات ، وقع الاقدام على السلالم — وكانت الساعات تمر طويله خاصه اثناء الليل • فكثيرا ماكنت استيقظ واعتقد أن النهار قد ظهر بينما اجد ان العائلة لم تذهب الى فراشها بعد ، وكنت طوال الليل احلم احلاما كئيبه ، واشعر بأني لا أسمع صوت كلامي — كل هذا حدث خلال الخمسة أيام التي مرت وكأنها سنوات وظلت عالقه بذاكرتي لا أستطيع نسيانها •

•• وفي الليله الاخيرة لسجني • استيقظت حين سمعت شخصا يهمس باسمي ، وقفزت من فراشي وتلمست طريقي الى الباب ، ووضعت فمي على ثقب المفتاح وهمست قائلا "أهذا أنت ياعزيزتي بيجوتي ؟" فأجابت "نعم ياعزيزي الغالي" ديفي "فكن هادئا كالفأر والا سمعتنا القطه" •

— "كيف حال امي ياعزيزتي بيجوتي ؟ هل هي غاضبه مني الى هذا الحد ؟ !" واستطعت ان اسمع صوت بيجوتي تبكي بصوت خافت من الناحية الاخرى من ثقب الباب ، كما كنت أفعل من ناحيتي قبل ان تجيب "لا ، ليس كثيرا" • — "وماذا سيفعلون بي ، ياعزيزتي بيجوتي ؟ هل تعرفين؟"

أجابت بيجوتي "سيرسلونك الى مدرسة بالقرب من لندن"
— "متى يابيجوتي" — "غدا"
— "أهذا هو السبب الذي دعى مسز مردستون أن تأخذ ملابسي من الادراج؟ كان يجب أن أخمن ذلك". فقالت بيجوتي "نعم. في صندوق"
— "وهل سأرى والدتي" فقالت بيجوتي "نعم، في الصباح" وحينئذ وضعت فمها بالقرب من ثقب المفتاح وقالت لي من كل قلبها وبعاطفة حقيقيه:

"يجب الا تنساني لاني سوف لا أنساك أبدا. وسوف اعتني بوالدتك ياديفي، كما اعتنيت بك وقد يأتي اليوم الذي يسعدها ان تضع رأسها المسكين على ذراع بيجوتي الغبيه الغاضبه العجوز وسوف اكتب اليك ياعزيزي "بالرغم من أني لست متعلمه" ثم قبلت ثقب الباب. وقلت "شكرا ياعزيزتي بيجوتي" وقبل كلانا ثقب الباب بعاطفه قويه ثم افترقنا. ومنذ تلك الليلة نمى شعور داخلي لدي تجاه بيجوتي لم يمكنني ان احدده. انها لن تحل مكان امي، ولا أحد يستطيع ذلك ولكن بيجوتي لها مكانه في قلبي، وكنت أشعر نحوها بشعور لم أشعر به لسواها.

.. وفي الصباح ظهرت مسز مردستون كالمعتاد، واخبرتني انني سوف اذهب الى المدرسة ولم تكن هذه الانباء جديدة بالنسبة لي كما كانت تعتقد. وكان الحمال على الباب، واخذ الصندوق الى عربته ووضعه بداخلها.

وكانت مسز مردستون من الطيبه بحيث صحبتني الى الخارج حتى العربه، وقالت لي في طريقنا انها تأمل ان اكون قد ندمت قبل ان أصل الى نهاية سيئه، ثم صعدت الى العربه، وبدأ الحصان الكسول في السير. وقطعنا حوالي نصف ميل، وكان منديلي قد ابتل من كثرة دموعي عندما توقف الحمال. ونظرت خارج العربه لاعرف السبب، فرأيت لدهشتي بيجوتي تندفع من سور من النباتات وتتسلق الى داخل العربه. ثم اخذتني بين ذراعيها واحتضنتني واعطتني بعض اكياس الورق التي تحوى كيك ووضعت في يدي كيس نقود، ولكنها لم تنطق بكلمة، وبعد ضمه اخرى أخيرة نزلت من العربه وجرت بعيدا.

.. وكان لدي وقت لافحص كيس النقود، وكان من الجلد الصلب، ويحتوى على ثلاث شلنات لامعه وقد طلتها بيجوتي لكي أكون مسرورا، ولكن اكثر محتوياته قيمه كان قطعتين من فئة نصف الجنيه، وقد طويا في قطعه من الورق كتب عليها بخط والدتي "الى ديفي، حبي"
وبعد أن سرنا لفترة قصيرة، اعطيت الحمال كيكه لكي ينتهه، فوضعها كلها دفعة واحدة في فمه تماما مثل الفيل. وقال مستر باركي "هل صنعتها الان؟" وكان دائما محنيا للامام ويديه على ركبته. — "اتعني بيجوتي، ياسيد" وقال مستر باركس "آه! هي"
— "نعم، فهي تقوم بنفسها بكل شئون المنزل علاوة على الطهي"
وقال مستر باركس "هل عملت هذا؟" وضم شفتيه كما لو كان سيصفر، ولكنه لم يصفر وجلس ينظر الى أذني الحصان. كأنه يرى شيئا جديدا، وظل كذلك لفترة طويله وبعدها قال
"ليس لها حبيب ولم تمش مع شخص ما على ما اعتقد"
— "اتقصد بيجوتي"
قال "آه، هي" — "اوه، لا. لم يكن لديها حبيب"
وقال مستر باركس "الم يكن لها كما تعتقد؟" ومرة أخرى ضم شفتيه كما لو كان سيصفر، ولكنه لم يصفر هذه المرة ايضا ولكنه جلس ينظر الى اذني الحصان. وقال مستر باركس بعد أن ظل يفكر لفترة طويله "اذن فهي التي صنعت الكيك وطبخت جميع انواع المأكولات؟" فأجبت بأن هذه هي الحقيقه. وقال مستر باركس "حسنا. ماذا أريد أن أقول لك؟ أوه نعم أريد أن أسألك هل ستكتب اليها" فأجبت "بالتأكيد سوف اكتب اليها" فقال وهو يحول عينيه في اتجاهي "حسنا اذا كتبت لها فهل من الممكن أن تتذكر ان تخبرها ان باركس يريد... أتستطيع؟" ورددت ببراءه "ان باركس يريد...، هل هذه كل الرسالة" وقال "نعم. باركس يريد"

وبينما كنت انتظر العربه في الفندق بيارموث بعد ظهر ذلك اليوم ، كتبت رساله لبيجوتي نحواها "عزيزتي بيجوتي . لقد وصلت هنا بسلام . باركس يريد .... حبي لماما . عزيزك ديفيد لقد قال انه يزيد ان تعرفي بصفه خاصه ان باركس يريد ..."

(الفصل الثالث)

.. كانت لندن مكانا رائعا بالنسبه لي عندما رأيتها من بعد ، وقد اقتربت منها تدريجيا ووصلنا في الوقت المحدد الى الفندق الكائن بـ ى "هوايت شابل" وهو الفندق الذى كنا نقصده ولا اتذكر اذا كان "بلوبل" او "بلوبور" .

.. ونظر الحارس الى وهو ينزل من العربه وقال عند باب حجز التذاكر: "هل يوجد أى شخص هنا قام بالحجز باسم مردستون ، من بلندرستون ، سافولك ، لتترك لحين طلبها" .. ولم يرد أى شخص. وقلت وانا أنظر يائسا لاسفل "حاول من فضلك باسم كوبرفيلد" وقال الحارس "هل يوجد أى شخص هنا قام بالحجز باسم مردستون ، من بلندرستون ، سافولك ، ولكن باسم كوبرفيلد لتترك لحين طلبها"

— "اذا كان هناك شخص ، فليأتى"

لا . لا يوجد أى شخص وذهبت الى مكتب الحجز ويدعوة من الكاتب المختص جلست على الميزان الذى يوزن به العفش، واخذت افكر كيف سيكون مصيرى اذا لم يسأل عنى أحد ، والى متى سيوافقوا على أن اظل هنا ؟ واذا لم يكن قد حدث خطأ ، وكان المستر مردستون قد وضع هذه الخطه للتخلص منى ، فماذا سأفعل ؟ ولذا بدأت فورا في محاولة العوده الى المنزل ، ولكن كيف سأعرف الطريق ، وكيف سأسير تلك المسافه الطويله ؟

.. اخذت هذه الافكار ومئات أخرى من الافكار تجعلنى احترق ، ووصلت الى قمة حمتى حينما دخل رجل وهمس الى الكاتب الذى ازاحنى من فوق الميزان ودفعنى اليه ، كما لو كان قد اشترانى بعد أن وزننى ودفع الثمن .

.. وبينما كنت اسير خارج المكتب وقد تشابكت ايدينا ، نظرت اليه ، لقد كان شابا غائر الوجنتين أصفر البشرة ، وكان يرتدى ملابسا سوداء قصيرة الاكمام والارجل نوعا ما .. وقال "هل انت الصبى الجديد" فقلت "نعم ياسيدى" فقال "انا احد المدرسين فى سالم هاوس" وانحنيت وشعرت بالرهبه . وبعد أن سرنا قليلا وصلنا الى "سالم هاوس" . وكان محاطا بحائط مرتفع من الطوب ، وكان يبدو كئيبا جدا ، وكانت توجد أعلى باب فى ذلك الحائط لوحه كتب عليها "سالم هاوس" ، ومن خلال شبكه من الحديد فى هذا الباب ، فحصنا وجه عابس عندما ضغطنا الجرس، واكتشفت بعد ذلك رجل بدين له رجل خشبيه وقد حلق شعر رأسه.

.. وقال السيد الذى كان يرافقنى ويدعى مستر ميل "الولد الجديد" وتفحصنى كلية الرجل صاحب الرجل الخشبيه — ولم يستغرق منه ذلك وقتا طويلا حيث لا يوجد فى مايثير الانتباه — وقفل الباب وراءنا وأخذ المفتاح .

.. كانت "سالم هاوس" مبنى مربع له أجنحه وكان يبدو عاريا دون أثاث . وكان هادئا جدا حتى انى قلت لمستر "ميل" وهو المدرس الذى صحبنى : "اعتقد ان التلاميذ فى الخارج ، فبدت عليه الدهشه لاننى لم أعرف اننا كنا فى وقت عطله ، وان كل التلاميذ بمنازلهم وأن مستر "كريكل" صاحب المدرسة على شاطئ البحر مع "مستر ومسز كريكل" واننى قد ارسلت فى فترة العطله كعقاب على عملى الاثيم .

.. ونظرت الى المدرسة التى اخذنى اليها وكانت فى مكان منعزل لم أر من قبل مثله . وأتذكر الان حجرة الدراسة التى اخذنى اليها فهى حجرة طويلة بها ثلاث صفوف من الادراج وستة مقاعد طويله . وكانت توجد بقايا كتب وتمارين منثورة على الارض القذره .

وكانت الحجرة رائحه غريبه بالحجوه مثل التفاح المتعفن والكتب الباليه . وبعد أن تركني مستر ميل ذهبت في هدوء الى نهاية الغرفه وفجأة وصلت الى يافطه وضعت على المكتب . وكتب عليها بخط جميل عبارة "احذروه ، فهو يعض" .

فصعدت في الحال فوق المكتب ، متأكدا انه يوجد على الاقل كلب ضخم اسفله ، ولكن بالرغم من انى نظرت حولى بعيون قلقه فانى لم أستطع أن ارى أى اثر له ، وكنت مازلت انظر حولى عندما عاد مستر ميل وسألنى عما كنت افعل هناك . فقلت : أرجو المعذره ياسيدى فانى كنت ابحث عن الكلب" وقال كلب ، اى كلب"

— "اذا لم يكن هناك كلب فما الذى سنحذره منه لانه يعض؟" . فقال بصوت رزين: "كلا ، ياكوبرفيلد ، انه ليس كلبا ، انه صبى وان لدى تعليمات ، ياكوبرفيلد . ان أضع هذه اللافته على ظهرك ، وانه يؤسفنى أن أفعل هذه البدايه معك ، ولكن يجب أن افعل "

ثم انزلنى ، وربط اللافته على كتفى ، ولايمكن لاحد أن يتصور ما قاسيته من تلك اللافتة ، فسواء كان فى امكان الناس قراءتها من عدمه فانى أشعر دائما بأن شخصا ما يقرأها .

.. وذات يوم أخبرنى مستر ميل بأن مستر كريكل سيأتى هذا المساء . وفى المساء وبعد الشاى علمت انه قد حضر . وقبل موعد النوم أحضرنى الرجل ذو الرجل الخشبيه لاقابله . وذهبت مرتعشا امام مستر كريكل الذى أخجلنى ، وحينما أدخلت رأيت بصحبه مسز كريكل او مس كريكل (اللذان كانا فى حجرة الاستقبال) ولم أر شئ آخر غير مستر كريكل ، رجل بدين على كرسى وبجانبه أقداح وزجاجه: قال مستر كريكل "اذن هذا هو السيد الصغير .. ادره!" فأدارنى الرجل ذو الرجل الخشبيه حتى تبدو اللافته . ثم ادارنى مرة أخرى لاواجه مستر كريكل وكان وجه مستر كريكل شديد الاحمرار ، وعيناه صغيرتان غائرتان فى رأسه ، وكان له انف صغير وذقن كبيرة . ولكن الشئ الذى اثر فى اكثر هو انه ليس له صوت ، فكان يتكلم همسا وكان ذلك يتطلب منه مجهودا مما يجعل وجهه الغاضب يبدو أكثر غضبا عندما يتكلم .

وقال مستر كريكل "والان ، وماذا عن تقرير هذا الولد؟" . فعاد الرجل ذو الرجل الخشبيه قائلا " لايوجد شئ الان ضده ، ولم توجد الفرصه" . فقال مستر كريكل "تعال هنا ، ياسيد!" وقال الرجل ذو الرجل الخشبيه مكررا الحركه "تعال هنا" . همس مستر كريكل وهو يشدنى من أذنى "يسعدنى معرفة زوج والدتك فهو رجل جدير بالاحترام ، كما انه رجل ذو خلق متين ، وهو يعرفنى جيدا وأنا أعرفه ، فهل تعرفنى؟" . فقلت وأنا اتلوى من الالم "ليس بعد ، ياسيدى" فكرر مستر كريكل "ليس بعد ؟ ولكنك سوف تعرفنى سريعا" .

.. فكرر "تونجاى" الرجل ذو الرجل الخشبيه "سوف تعرفه سريعا" واكتشفت بعد ذلك انه يقوم عادة بصوته القوى كمفسر للكلام "مستر كريكل للتلاميذ . وكنت خائفا جدا ، وقلت انى آمل ذلك ان كان يسره ذلك . وهز اذنى بشده حتى انى شعرت طوال الوقت وكأن أذنى تحترق . وهمس مستر كريكل "سأقول لك عما أكون" . "انى مدرس" . وقال مستر كريكل "حينما أقول انى سأفعل شيئا يفعل ، يفعل" . وردد الرجل ذو الرجل الخشبيه "حينما تريد شيئا يعمل ، سأدعه يعمل" .

.. قال مستر كريكل "انى شخص ذو عزيمه وتصميم ، هذا هو أنا .. انى اؤدى واجبى .. والان وقد بدأت تعرفنى ، ياصديقى الشاب ، يمكنك ان تذهب ، خذه بعيدا ، وكان "تومى ترادلز" اول تلميذ عاد الى المدرسة . وسألنى عن تقرير كامل عن نفسى وعائلتى . وكان من حسن حظى أن ترادلز عاد أولا ، فقد اعجبته اللافته كثيرا لدرجة انه انقذنى من الحرج بأن قدمنى الى كل تلميذ آخر يرجع سواء كان كبيرا أم صغيرا ، حال وصوله بهذه العبارة "انظر هنا ! هنا لعبة!" .

.. ولم أعتبر انى استقبلت استقبالا رسميا فى المدرسة على أى حال حتى وصل ستيرفورث . وكان هذا التلميذ حسن المنظر وكان يكبرنى بما لايقل عن ست سنوات ، واستفسر تحت مظله فى الملعب عن تفاصيل عقابى ، وقد سرنى ان يعبر عن رأيه بقوله "فضيحه مضحكه ، مما جعلنى مدين له بعد ذلك الى الابد .

وقال "كم احضرت من نقود ، كوبرفيلد ؟ " . وقلت له سبع شلنات . وقال "يستحسن أن تعطيني النقود لاحفظها . وتأخذها عند طلبك او تتركها اذا لم ترغب" . وتسرعت في الموافقه على اقتراحه ، وفتحت كيس بيجوتي ، وفرغته في يده . وسألني "هل تريد أن تنفق شيئا الان؟ " . فأجبت "لا ، شكرا " وقال ستيرفورث "تستطيع اذا رغبت ، انت تعرف" "قل كلمتك" ورددت "لا ، شكرا " . وقال ستيرفورث "في امكانك اذا رغبت ان تنفق شلنين في زجاجة نبيذ تشربها بعيدا في حجرة النوم " والت تنتمي الى حجرة نومي " .

.. وبالتأكيد لم أفعل ذلك من قبل ولكني قلت "نعم ، اني أحب ذلك" . فقال ستيرفورث : "حسنا جدا ، ستكون مسرورا في أن تصرف شلنا في الكيك ، اني اجرؤ على قول ذلك؟ " . وقلت "نعم ، اني احب ذلك ، ايضا . " وقال ستيرفورث" وشلنا آخر للبسكويت ، وآخر للفاكهه ، انسى اقول ، ياكوبرفيلد الصغير ، لقد بدأت تعرف" . وابتسمت لانه ابتسم ، ولكني كنت اشعر بارهاق ذهني " . وقال ستيرفورث "حسنا ! سأفعل كل ما في سلطتي من أجلك . فاني استطيع ان اخرج في أي وقت أشاء " . وبهذه الكلمات وضع النقود في جيبه ، وقال لي بعطف : يجب أن أجعل نفسي سهلا وانه سيهتم بأن يكون كل شئ على مايرام .

.. وكان طيبا مثل كلماته . وحينما ذهبنا الى الدور الاعلى للسرير ، احضر السبع شلنات ووضعهم على سريري في ضوء القمر ، قائلا : "ها أنت هنا ياكوبرفيلد الصغير قد حصلت على غرشه ملكيه" .

.. ولكم اتذكر جلوسنا هناك ، حيث يسطع القمر على الحجره من خلال الشباك . وسمعت الكثير عن المدرسة وكل مايتعلق بها . وسمعت ان مستر كريكل لم يصبح معلما ديكتاتوريا دون سبب ، فقد كان اقسى الاساتذه ، يمشي بين التلاميذ كالفارس يضربهم بدون رحمه . ولا يجيد شيئا الا فن الضرب حيث انه أجهل (كما يقول ستيرفورث) من أقل ولد بالمدرسة . وقد سمعت ان مس كريكل كانوا ينظرون اليها في المدرسه عموما على انها تحب ستيرفورث ، واني متأكد وانا أجلس الان في الظلام أفكر في صوته الرقيق ، ووجهه الجميل ، وطباعه السهله ، وشعره الملفوف ، ان ماسمعته حقيقي .

.. لقد فكرت فيه كثيرا عندما ذهبت الى السرير ، ثم قمت أنظر اليه حيث يرقد في ضوء القمر بوجهه الجميل ، ورأسه متكه على يده .

.. لقد بدأت الدراسه في اليوم التالي ، واذكر اني تأثرت كثيرا بملاحظة تحول زئير الاصوات في الفصل فجأة الى سكون يشبه سكون الموتى عندما دخل مستر كريكل بعد الافطار ، ووقف في مدخل الباب ينظر حوله الينا . وقال مستر كريكل "والان ايها التلاميذ ، هذا فصل جديد ، فاحذروا ماذا سوف تفعلوا ، اقبلوا بنشاط على دروسكم واني احذركم . فاني نشيط في العقاب ، ولن يفيدكم مساعدة بعضكم فلن تغير الدرجات التي سوف اعطيها لكم ، والان ليبدأ كل تلميذ في العمل" .

.. أظن انه لا يوجد رجلا يستمتع بمهنته اكثر من مستر كريكل فقد كان يفرح عندما يضرب التلاميذ . وجلست على المقعد مرة أخرى اتابع عينيه عندما يتصفح الكتب التي أخذ اصحابها أصفارا ليبحث عن ضحية جديده يضربها بالمسطره . وكان يحمي طرفها الذي يلسع بمنديله . وكان لدى الكثير لاعمله . فلم أكن اتتبع عينه بخمول ، فقد كنت منجذبا اليها ، وكانت لدى رغبه شديدة في أن أعرف ماذا سيفعل بعد ، وعما اذا كان قد جاء دوري لاتألم أو دور شخص آخر غيري وكانت له الفاظ رهيبه وهو يتصفح كتاب الاصفار . والان بدأ ينظر الى الممر الذي نحن فيه ، وانكفينا جميعا على كتبنا مرتعشين . ووجد ضحيته في تلميذ لم يؤدي تمارينه كاملة . وقبل ان يضربه مستر كريكل ألقى نكته ضحكنا جميعا لها — كلاب صغيره بائسه ، لقد ضحكنا ووجوهنا باهته مثل الرماد .

.. يالك من بائس تزداد لزه وكان يرتدي بدله ضيقه لونها سماوي جعلت من يديه ورجليه مثل الصلصه الالماني ، فكان أمرح وأبأس ولد . لقد كان يضرب دائما — واعتقد انه كان يضرب يوميا طوال فترة نصف سنه ماعدا يوم واحد أجازه هو يوم الاثنين — وكان يرغب في أن يكتب لعمه ويشرح له ذلك لكنه لم يفعل — فبعد أن يضع رأسه على الدرج لفتره قصيره كان ينهض وهو يضحك قبل ان تجف دموعه .

•• وكان ستيرفورث يحبني ويحميني ، وبرهن انه صديق نافع جدا لانه لم يجرؤ أحد أن يضايق من يحبه • وساعدني أيضا في أداء مسائل الحساب والتمرينات وأى شئ في عملى أجده صعبا •

ترادلز البائس — انى لم أكن افكر في هذا الولد الا وأضحك ، والدموع تغمر عيني — ان له مواقف مضحكه •

•• أثرت في حادثه واحدة فقط خارج نطاق حياتي اليوميه المدرسيه • وقد أثرت في تأثيرا لازال قائما • فبعد ظهر يوم أتى الرجل ذو الرجل الخشبيه ونادى بصوته القوى المألوف "زوار لكوبرفيلد" وتخلل ذلك بعض الكلمات بينه وبين مستر كريكل ، وطلب منى أن أصعد السلم الخلفي وأرتدى ملابسى • وهناك كم كانت دهشتي حين وجدت مستر بيجوتي وهام • ولم أتمالك نفسى من الضحك وتصافحنا وضحكنا حتى أخرجت منديلي ومسحت عيني • وكان مستر بيجوتي (الذى لم يقفل فمه طوال هذه الزيارة) قد أبدى اهتماما كبيرا بي حينما رآني افعل ذلك) وفز هام ليقول شيئا •

وقال هام "تحياتي ، ياسيد ديفي" لماذا تنهمر بالبكاء" • فقلت وأنا أجفف عيني "هل أنا أنهمر بالبكاء" • ولم أكن اصرخ من أى شئ أعرفه ، ولكن رؤيتي لاصدقائي القدامى جعلتني أصرخ •••• كان هناك صمت ، وليخففه ، أخرج من جيبه جنبريتان وابو جلمبو • وقال مستر بيجوتي "اننا كما ترى حين عرفنا بانك مغرم بقليل من فاتح الشهيه عندما أقمت معنا لذا فاننا أحضرنا ذلك" فشكرته من كل قلبي وقلت له انني اظن ان اميلي الصغيرة قد تغيرت أيضا منذ أن تعودنا أن نلتقط احجار الحصى من على شاطئ البحر • فقال مستر بيجوتي "انها الان على وشك ان تصبح امرأة اسأله" • وكان يقصد هام الذى اشرق وجهه من الفرح وهو ينظر الى كيس به جمبرى •

•• وأستطيع أن أقول انهم كانوا سيتحدثوا كثيرا عنها لو لم يأتى مستر ستيرفورث فجأة والذى قال لى عندما رآني أتحدث مع شخصين غريبين: "لم أكن اعرف انك هنا ، ياكوبرفيلد الصغير" ثم ابتعد عنا • وقلت له "لاتذهب ياستيرفورث ، من فضلك • انهما من يارموث ويعملان على القوارب ، انهما عطوفين وطيبين وقد أتا من جرانسند لرؤيتي • وعاد ستيرفورث وقال: آه ، انى مسرور لرؤيتهما • كيف حالكما؟ " • وكان مرحا ولطيفا وحديثه معهما بدون تكلف • وكانا مسرورين منه وقد فتحا قلبيهما له من أول لحظه • وقلت "يجب ان تخبرهم يامستر بيجوتي حينما تصل الى المنزل ان مستر ستيرفورث عطوفا على ، وانى لا أعرف ماذا كنت سأفعل بدونه" • وقال ستيرفورث ضاحكا "لاشئ ، ويجب الا تخبرهم شيئا من هذا" •

وقلت "اذا حدث ان أتى مستر ستيرفورث الى نورفولك أو سافولك يا مستر بيجوتي ، وحيث انني كنت هناك فانني سأدعه يحضر الى منزلك في يارموث لانك لم تر من قبل منزل جميل مثله ياستيرفورث • انه صنع من قارب" • وقال ستيرفورث هل صنع من قارب حقا؟ انه النوع المفضل لان يبنيه مراكبى " • وقال هام "حسنا ، انه كذلك" • وقال ستيرفورث "ان احسن الرجال لايستطيعون ان يفعلوا احسن من ذلك" •

•• ورحلنا جميعا سويا ونحن مسرورين • ونقلنا القواقع الذى يطلق عليها مستر بيجوتي "ذات الطعم اللذيذ" الى حجرتنا دون أن يرانا أحد ، وأعددنا وليمة عشاء مساء ذلك اليوم •

ان باقى نصف السنه الدراسيه خليط مضطرب في ذاكرتي ، وانى اتذكر جيد كيف بدأت فكرة العطله من الاقتراب منا أخيرا • وكيف كنا نحسب الشهور ثم اتينا الى الاسابيع ثم الايام ، وحينئذ بدأت أشعر بالخوف من انه قد لايستدعيني احد • وعندما علمت من ستيرفورث انني قد استدعيت وسوف اذهب الى المنزل بالتأكيد ، فوجسني شعور مخيف • واستدعاني مستر باركس الحمال في التاسعه صباحا • وكنت مستعدا قبل الميعاد المحدد • واستقبلني وكأننا لم نر بعض منذ خمس دقائق فقط • وعندما جلست ومعى صندوقي بالعربه ، اخذ الحمال مكانه ، وبدأ الحصان الكسول يسير خطواته المعتاده • وقلت "مستر باركس ، لقد سلمت رسالتك ، لقد كتبت لبيجوتي" • وقال مستر باركس "آه" • وأجابت بعد فترة من التردد "هل مافعلته صحيح؟" • وقال مستر باركس "لم لا" • — "ليست الرساله" وقال مستر باركس "الرساله كانت صحيحه ، ولكنها أصبحت منتهيه حيث لا يوجد رد" •

•• وقلت وأنا احدق فيه بعيني حيث ان ذلك شعاع جديد لي " انه من المتوقع أن يصلنا رد ، اليس كذلك ؟ " وقال مستر باركس وهو ينظر الى بيبطئ مرة ثانيه "حينما يقول رجل انه يرغب هذا فانه يعني انه ينتظر الرد • "

"حسنا يامستر باركس " • وقال مستر باركس وهو ينظر الى أذني حصانه "حسنا ، هذا يعني ان الرجل ينتظر الرد مهما طال الوقت" "هل قلت لها ذلك يا مستر باركس" • وتلعثم مستر باركس وهو يفكر في ذلك ثم قال "لا • لا • لم اقل لها حتى سته كلمات" • وقلت متشككا "هل ترغب في ان اقل لها انا ذلك يامستر باركس ؟ " وقال مستر باركس "تستطيع أن تقول لها اذا شئت ، ولكن ما اسمها " فقلت "بيجوتي " فقال مستر بيجوتي " اسمها المسيحي أو اسمها الحقيقي ؟ "

"آه ، انه ليس اسمها المسيحي • اسمها المسيحي "كلارا" • وأكمل حديثه قائلا "يجب أن تقول لها ، ان باركس ينتظر الرد يابيجوتي " • ويمكن ان تقول هي : أى رد ؟ ! وتقول انت : الرد على ما اخبرتك به" وسوف تقول : "عن أى موضوع؟ ! " وعلى ذلك تقول انت ان باركس يرغب" • وبعد ذلك وخز حصانه كعادته ، ولم يشر الى الموضوع الذى كنا نتحدث فيه الا بعد نصف ساعه ، حيث اخرج قطعه من الطباشير من جيبه وكتب على العربه " كلارا ، بيجوتي " وهذا كما يبدو كتذكرة خاصه له •

•• وضع الحمال صندوقي بباب الحديقه وتركني ، فسرت في الممر المتجه الى المنزل ، وكنت اخشى في كل خطوة ان أرى مستر مردستون او مس مردستون مطلين من احدى النوافذ • ولكن على أى حال لم ار احدا ، ولما كنت أعرف كيف افتح الباب دون طرقه ، ودخلت في خجل •

•• سمعت أمي تغني بصوت منخفض ، فاعتقدت من الطريقه التي تغني بها انها بمفردها ، فدخلت الحجرة في رقه وكانت جالسه بجوار المدفأه تطعم طفلا ، وقد امسكت بيده الرقيقه الى رقبتها ، وعيناها تنظران الى وجهه وهي جالسه تغني له • وعندما كلمتها فزعت وصرخت ، ولكنها عندما رأتني دعتني يابنها العزيز ديفي ، وقبلتني ووضعت رأسي على صدرها بجانب المخلوق الصغير فوضع يده على شفتي • وقد تمنيت ان اموت • وتمنيت الموت من كل قلبي • انه من الافضل لي ان اذهب للسماء في الوقت الحالي عن أى وقت مضى • لقد قالت أمي : "انه اخوك ياعزيزي ديفي ، ياطفلي المسكين" ثم تعانقنا مرة ثانيه ، وفجأة دخلت بيجوتي تجرى وجلست على الارض بجانبي ، وبدت مذهوله مدة ربع ساعه •

•• ويبدو أن احدا لم يكن يتوقع حضورى سريعا ، فقد وصل الحمال قبل موعده العادى بكثير ، ويبدو أيضا ان مستر ومس مردستون قد خرجا في زيارة للجيران وانهما لن يرجعا قبل الليل ، ولم أكن قد تمنيت هذا • لقد كنت افكر انه من المستحيل ان نبقى نحن الثلاثه دون أن يزعجنا احد ، وشعرت بأن ايامنا الماضيه قد عادت •

•• تناولنا طعام العشاء معا بجوار المدفأه ، واشركت امي بيجوتي معنا في العشاء واستعملت طبقي الخاص القديم وفنجاني الخاص القديم وسكينتي القديمة وشوكتي الصغيرة القديمة الخاصه بي • وعندما كنا نجلس حول المائده ، فكرت في انها الفرصه المناسبه لاخبر بيجوتي عن مستر باركس ، والتي القت بفوطتها على وجهي قبل أن اكمل حديثي • فقالت والتي "بيجوتي ، ماذا حدث؟ " •

وضحكت بيجوتي اكثر ووضعت الفوطه على وجهها حينما حاولت أمي ان تشدها ، وجلست وكان رأسها في حقيبه • وقالت امي ضاحكه "ماذا تفعلين يا أيتها المخلوقه الغبيه؟ " • فصاحت بيجوتي : "انه يريد أن يزوجني " • فقالت أمي "انها سوف تكون جوله طيبه لك ، اليس كذلك؟ " • فقالت بيجوتي : "آه ، لست أدرى ، لاتسأليني • أنا لا أتزوج منه حتى ولو صنع من ذهب ، او أى شخص آخر أيضا • " فقالت أمي "اذن فلماذا لاتقولي له ذلك ؟ " • فقالت بيجوتي : "كيف اخبره بذلك وهو لم ينطق بكلمه لي عن ذلك ؟ ! انه يعرف جيدا • انه ادعى الشجاعه وقال لي ولو كلمه واحده فسوف اصفع وجهه " •

•• ولاحظت ان والدتى أصبحت اكثر جديه بالرغم من انها بدأت تبتسم حين نظرت اليها بيجوتى • لقد رأيت اولا انها قد تغيرت لكنها مايزال وجهها جميلا وتبدو رقيقه ويدها مخيفه وبيضاء • وأخيرا قالت وهى تضع يدها على يد خادمتها العجوزة "عزيزتى بيجوتى ، أحقيقة انك لن تتزوجى ؟ " • فصادت بيجوتى تقول : "بارك الرب ، لا " • فقالت امى برقه "ليس الان فقط" • فصاحت بيجوتى : "اطلاقا " • فأخذت والدتى يدها وقالت: "لا تتركينى بيجوتى • امكثى معى • ماذا سوف افعل بدونك" •

فصاحت بيجوتى "أنا لن اتركك ياعزيزتى الغاليه حتى وان كان مقابله العالم بأسره •• ولكن ما الذى جعل ذلك يملق برأسك الغبى الصغير" • وكانت بيجوتى قد تعودت منذ فترة طويله ان تتحدث مع امى احيانا مثل الطفل • وبينما كنا نجلس كذلك ونحن ننظر الى المدفأه لنرى صورا من خلال الفحم المتوهج من الحراره ، شعرت وكأننى لم أبعد عنهما ، وتمنيت ان يكون مستر ومسز مردستون مثل هذه الصور وينمحيا حينما تهدأ النار ، وانه لايوجد شئ حقيقى فيما تذكرته الا والدتى وبيجوتى وأنا •

وقالت بيجوتى "انى مندهشه ، ماذا حدث لعمة دافى " • وقالت أمى وكأنها افاقت من حلم "بيجوتى ، ماهذا الهراء الذى تقولينه ! " • فقالت بيجوتى "حسنا ، ولكنى حقيقة مندهشه" • وسألت امى "ما الذى ادخل هذه الشخصيه فى رأسك؟ يالك من امرأة متعبه يابيجوتى ! ان مس بتسى فى كوخها على البحر ، ولاشك فى انها ستظل هناك ، على أى حال فهى لن تحدث لنا أى متاعب مرة اخرى " •

وحينما تناولنا الشاى ، قرأت لبيجوتى فصل من كتاب التمساح لاذكرها بأيامنا الماضيه — وأخذته فى جيبها ولا اعرف عما اذا كانت تحتفظ به هكذا على الدوام — وبعد ذلك تحدثنا عن "سالم هاوس" الذى عاد به مرة أخرى الى ستيرفورث • وشعرت بعدم ارتياح اثناء نزولى لتناول طعام الافطار فى الصباح لانى اكن قد رأيت مستر مردستون اطلاقا منذ اليوم الذى عضضت فيه يده ، من ذلك نزلت الى غرفة الاستقبال كما يقضى بذلك الواجب •

•• واما وقفنا أمام المدفأه بينما كانت مس مردستون تعد الشاى ، ونظر الى بثبات عندما دخلت ولكنه لم يبد أى علامه تدل على معرفته لى • فذهبت اليه وقلت "استسمحك العفو ياسيدى ، انى اسف جدا لما فعلت ، وآمل ان تسامحنى " • فأجاب "انى سعيد أن أسمع انك آسف ياديفى " فقلت لمس مردستون "كيف حالك ياسيدتى ؟ " • فتنهدت مس مردستون وهى تعطينى يدها : "آه ، ياالهى ما طول اجازتك؟" — "شهر ياسيدتى" • — "منذ حتى يحتسب؟" • — "من اليوم ياسيدتى" فقالت مس مردستون "اوه ، اذن فقد انقضى يوم واحد" • واحتفظت بنتيجه لاجازتى على هذه الطريقه ، وكانت كل يوم تنزع منها يوما بنفس هذا السلوك • وفعلت ذلك حتى وصلت عشره وبدت مسروره حينما أصبح العدد من رقمين هذا يعنى ان وقت الاجازه قرب على الانتهاء •

•• لم أكن محبوبا من مس مردستون • وبالاختصار لم أكن محبوبا هناك من أى شخص آخر ولا حتى من نفسى ، لان اولئك الذين يحبوننى بالفعل لم يستطيعوا ان يظهروا حبهم واولئك الذين لا يحبوننى ، أظهروا ذلك بوضوح •

•• وهكذا مرت الاجازه ببطء حتى اتى صباح قالت فيه مس مردستون "ها قد انقضى آخر يوم ! " واعطتنى اخر فنجان شاى •

•• ولم اأسف لرحيلى ، فقد كنت اتطلع لرؤية ستيرفورث بالرغم من وجود مستر كريكل الضخم وراءه • ومرة أخرى ظهر مستر باركس على البوابه • ومرة أخرى قالت مس مردستون بصوت محذر "كلارا ! " حينما انحنت امى على وهى تودعنى •

وقبلتها وقبلت اخى الطفل وأنا آسف — ولكنى لست اسفا للذهاب بعيدا • لان العائق بيننا هناك وفراقنا يعتبر يوميا •

كنت في عربة الحمال عندما سمعت امي تناديني ، فنظرت الى الخارج لقد كانت واقفه وحدها بباب الحديقه وقد رفعت طفلها عاليا بين ذراعيها كي أراه . وكان الجو باردا ولم تتحرك شعرة في رأسها ، ولا ثنيه من ردائها لانها كانت تنظر باهتمام وهي ممسكه بطفلها .

وهكذا فقدتها ، وهكذا رأيتها بعد ذلك في نومي بالمدرسه ... وقد حضرت ساكنه بجوار فراشي .. تنظر الى بنفس النظره الجديدة ... حاملة طفلها بين ذراعيها .

(الفصـــــــل الرابـــــــع)

(ليذهب ديفيد كوبرفيلد الى غرفة الجلـــــــــــــوس)

توقعت سله من بيجوتي فأسرعت الى غرفة الجلوس ... وهناك وجدت مستر كريكل يتناول طعام افطاره ، وأمامه عصا وجريده .. ومسز كريكل وبيدها خطابا مفتوحا . ولم أجد سله . وقالت مسز كريكل وهي تقودني الى الكنبه وتجلس بجانبي : "اريد أن اتحدث اليك فان لدى شئ اريد ان اخبرك به ياطفلي . انك صغير جدا لكي تعرف ان العالم يتغير كل يوم وكيف ان الناس به يذهبون بعيدا . ولكننا جميعا يجب ان نتعلم ذلك ياديفيد — بعضنا في الصغر والبعض في الكبر ، وبعضنا في جميع أوقات حياتنا ". فنظرت اليها بجد .

وقالت مسز كريكل بعد فترة صمت "عندما عدت الى المنزل في نهاية العطله هل كان الجميع بخير ؟" ثم قالت بعد صمت آخر "هل كانت والدتك بخير ؟" فارتعشت دون أن اعرف سببا ، وكنت لا أزال انظر اليها بجد دون أن احاول أن اجيب.

قالت "لانني آسفه ان اخبرك انني سمعت هذا الصباح ان والدتك مريضه جدا ثم أضافت قائله : "انها مريضه وفي خطر" . عرفت الان كل شئ . "لقد ماتت" . ولم يكن هناك داع لاخباري بذلك فقد انفجرت بالفعل في البكاء وشعرت بأني يتيم في هذا العالم الكبير.

وكانت شفوقه جدا بي ، فقد أبقتني هناك طوال اليوم ، وتركتني بمفردي احيانا ، فبكيت حتى غلبني النوم ، ثم استيقظت وبكيت مرة ثانيه ، وحينما لا أستطيع الصراخ أكثر من ذلك ، ابدأ في التفكير

.. تركت "سالم هاوس" بعد ظهر اليوم التالي ، ولم يحل بخاطري حينئذ انني تركتها بلا رجعه . لقد سافرنا ببطء جدا طوال الليل ولم نصل الى يارموث قبل الساعة التاسعه او العاشرة صباحا . وبحثت عن مستر باركس ولكنه لم يكن هناك ، ووجدت بدلا منه رجلا قصيرا بدينا ، شكله مرح وحين رآني قال : — "سيد كوبرفيلد" ؟ — "نعم ، ياسيد"

وقال وهو يفتح الباب "هل يمكنك ان تأتي معي ، ياسيدي الصغير ، فاني سأكون مسرورا لان اصحبك الى المنزل ؟ . وذهبت معه وأنا مندهشا من يكون ، وسرنا حيث وجدنا دكانا في شارع ضيق حيث كتب عليه (أمر — تاجر أصواف ، ترزي ، ولوازم الجنازه) . وقال مستر أمر "هل يمكن أن تسير في الدكان ، سيد كوبرفيلد ؟" . وصحبت مستر امر بناء على طلبه ، وبعد أن اراني مجموعه ملابس قال عنها انها فاخره ، وانها مناسبه للحداد على الاباء ، أخذ مقاس اعضاء جسمي المختلفه ودونها في كتاب.

وقال مستر أمر بعد أن اخذ يدقق النظر في لبضع دقائق "لقد تعرفت عليك منذ فترة طويلـــه ، ياصديقي الصغـــير" — هل حدث هذا ، ياسيد . فقال مستر أمر "كل حياتك استطيـــع أن احكى عنها . لقد عرفت والدك من قبلك . انه خمس اقدام وتسع بوصات ونصف وهو يرقد في خمسه وعشرين قدم من الارض" وسألته "هل تعرف أخي الصغير ، ياسيد ؟ !" . وهز مستر أمر رأسه . وقال هو : "انه بين يدى امه"

— "وهل مات هذا المخلوق الصغير ؟"

فقال مستر أمر "نعم . مات الطفل" . وحينما وصلنا الى المنزل ، كنت بين يدي بيجوتي قبل أن أصل للباب وصحبتني للمنزل . ولم يكترث مستر مردستون بي حينما ذهبت الى غرفة الاستقبال حيث كان جالسا بجانب المدفأة يبكي بهدوء ، متكئا على الكرسي . وصافحتني مس مردستون التي

كانت تجلس خلف المنضده منهمكه بين الخطابات والاوراق وبـ التى بمس حاد عما اذا كنت اخذت مقاييس ملابس الحداد • فقلت نعم • وقالت مسز مردستون "هل احضرت قمصانك للمنزل ؟ "
— نعم •• لقد احضرت جميع ملابس المنزل •

•• اننى اتذكر الان الجنازه وكأنها كانت بالامس ، لقد كنا واقفين بدون غطاء للرأس ، وسمعت صوت كاهن ، وكان صوته يعلو فى الهواء الطلق من بعيد ولكنه كان واضحا ، وكان يقول : " انا البعث والحياة ، هكذا قال السيد " • وعلى ذلك سمعت تنهدات ، وبينما كنت واقفا بمفردى رأيت الخادمه الامينه التى احبها اكثر من كل الناس الذين على وجه الارض ، احبها بقلبى كطفل وانا متأكد اننى حين اكبر واصبح رجلا — اقول لنفسى يوما ما "حسنا ما فعلت" •

•• لقد كنت اعلم ان بيجوتى ستأتى الى حجرتى • وحين جاءت جلست بجانبى على سريرى الصغير ، ممسكه بيدى ، واحيانا كانت تضعها على شفتيها ، وقالت لى بطريقتها كل ما حدث • قالت بيجوتى "لم تكن فى حاله طيبه لفتره طويله • انها كانت مضطربه فى عقلها ، وغير سعيده •• وعندما ولد طفلها كنت اعتقد انها سوف تتحسن ولكنها بدأت تضعف وتسوء صحتها كل يوم •

"وكان الوقت الوحيد الذى رأيتها فيه مثلما كانت من زمن بعيد هو تلك الليله التى اتيت فيها الى المنزل ياعزيزى •• وفى اليوم الذى ذهبت فيه بعيدا قالت لى : "سوف لا ارى عزيزى الغالى مرة اخرى ان شيئا ما اخبرنى بذلك ، وانا اعرف انه يخبرنى بالحقيقه" •

"فى الليله الاخيره ، فى المساء ، قبلتنى وقالت : اذا مات طفلى ايضا يابيجوتى ، دعيهم يضعوه بين ذراعى ، وندفن سويا (لقد فعلوا ذلك ، لان الطفل المسكين عاش يوما واحد بعدها) وقالت دعى ولدى العزيز يذهب معنا الى مكان الاستراحه" واخبريه بأن امه حينما ترقد هنا ، تباركه ليس مرة واحده ، ولكن الف مرة" • ثم قالت لى : "عزيزتى بيجوتى" ضعى يدك تحت رقبتى وادير ينى لك ، لان وجهك يبتعد ، وانا ارغب ان يكون قريبا منى" • ووضعته كما طلبت •• آه ياديفى ! لقد جاء الوقت حين كانت كلمات الوداع لك صادقه وحين كانت مسروره لوضعها رأسها المسكين على ذراعى بيجوتى العجوزة المسكينه •• ثم ماتت مثل الطفل الذى ذهب لينام" •• وهكذا انتهت بيجوتى من سرد القصه •

•• وذات مساء بينما كنت ادفئ يدى امام نار المطبخ ، قلت لها "بيجوتى • ان مستر مردستون يحبنى اقل مما كان معتادا عليه • حقيقة انه لم يكن يحبنى كثيرا يابيجوتى ، ولكنه الان لايرغب ان يرانى اذا استطاع ذلك" • وظلت بيجوتى صامته لفتره قصيره ، وادفئت يدى وانا صامت مثلها واخيرا قالت : "ديفى" — "نعم يابيجوتى ؟ • لقد حاولت ، ياعزيزى ، بجميع الطرق ان اجد عملا مناسبا هنا ، فى بلندرستون ، لكن لايوجد شيئا كذلك ياحبيبى" •

وقلت وانا مهموما : " وماذا تنوين عمله يابيجوتى " هل تنوين الرحيل للبحث عن عمل ؟ " فاجابت بيجوتى "اننى اتوقع اضطرارى للذهاب الى يارموث والاقامه هناك • اننى سأذهب ياديفى — الى منزل اخى اولا فى زيارة لمدة اسبوعين — حتى يتيسر لى الوقت للنظر فى شئونى واستعيد قواى مرة اخرى • والان انى افكر فى حالة رغبتهم فى عدم وجودك هنا فى الوقت الحاضر — ان تأتى معى " •

•• وقد منحت الاذن بذلك ولم يتراجعوا فيه ، وكنت انا وبيجوتى على اهبه الرحيل عندما انصرم الشهر • وكانت بيجوتى فى حالة نفسيه سيئه بتركها المنزل الذى كانت تعده منزلها منذ سنوات مضت وذلك لان ارتباطها بكل من والدتى وبى كان قويا • ومشت فى فناء الكنيسه فى الصباح الباكر وركبت العربه وجلست فيها ومنديلها على عينيها • وقلت من باب التأدب : "انه يوم جميل يامستر باركس" • فقال مستر باركس الذى كان يحاول ان ينتقى حديثه رغم انه نادرا ماكان يفعل ذلك "انه ليس يوما رديئا " •

رأبديت ملاحظتى التى وجدت صدى فى نفسه : "ان بيجوتى الان مستريحه تماما " • فقال مستر باركس "هل هى كذلك ؟ " وبعد تفكير فى الامر قال مستر باركس وهو ينظر اليها واذنه متلهفه لسماع الرد "هل انت مستريحه تماما ؟ • فضحكت بيجوتى واجابت بالايجاب •

وزمجر مستر باركس وهو يقترب منها على المقعد ولمزها بمرفق يده : "ولكن هل انت حقا وفعلا مستريحه ؟ هل انت مستريحه تماما ؟ هل هذا صحيح ؟ هل هو كذلك ؟ ويسؤاله لها كان يقترب منها اكثر ثم لمزها مرة أخرى ، حتى تراكمنا جميعا في الجانب الايسر من العربه ، وضغطت تماما حتى لم أكد استطيع تحمل هذا الضغط.

ولفتت بيجوتي نظره الى انني اعاني من هذا الموقف ، فافسح لي مستر باركس على الفور مكانا وابتعد تدريجيا . ولكني لاحظت بيسر انه قد خيل له انه قد توصل الى طريقه موفقه للتعبير عن مكنون نفسه بطريقه مهذبه معقوله ومحدده دون تكبد عناء افتعال المناقشه . فكان من وقت لاخر يلتفت الى بيجوتي ويكرر القول : "هل انت مستريحه تماما؟" ويميل نحونا كما كان يفعل من قبل حتى لتكاد انفاسي تختنق داخلي . ومن حين لاخر يفاجئنا بنفس السؤال وبنفس النتيجة . وأخيرا كنت أنهض واقفا ، كلما رأيته يقترب وأقف على سلم العربه متظاهرا بالنظر الى المناظر الطبيعيه ووفقت في هذا تماما .

وكان في انتظارنا مستر بيجوتي وهام في المكان القديم (المعهود) . واستقبلاني وبيجوتي بعطف ، وحييا مستر باركس بحرارة والذي كانت قبعته منحسرة عن رأسه بطريقه غير لائقه على ما كنت أعتقد . وبينما كنا نسير سألتني بيجوتي : "ما رأيك فيما لو فكرت انا في الزواج ؟ قولي ما رأيك ياعزيزي؟ " .

— " أي لو فكرت في الزواج من مستر باركس يابيجوتي ؟ " . قالت بيجوتي "نعم" . اظن انه امر حسن . لانه سيكون كما تعرفين يابيجوتي لديك العربة والحصان ليحضرانك دائما لزيارتي ، وستحضرين دون دفع أجر ، ويمكنك التأكد من الحضور" . فصاحت بيجوتي : "انه شعور الاعزاء ان هذا كنت افكر فيه طوال الشهر الماضي . نعم ياعزيزي ، واعتقد انني سأكون مستقله تماما . اليس كذلك . ان باركس مخلوق بسيط مقبول ، واذا حاولت ان أؤدي واجبي تجاهه فسيكون من الخطأ اهمال هذا الواجب — اذا لم لكن مستريحه تماما ، قالت بيجوتي ذلك وضحكت من أعماق قلبها .

.. ان عبارة مستر باركس كانت تضحك كلا منا كثيرا ، حتى اننا كنا نضحك مرارا ، وكنا في حالة سعيدة عندما اقتربنا من كوخ مستر بيجوتي . ان لم يتغير الا انه ربما قد تضاءل قليلا في نظري . أما ما بداخله فكان كما هو حتى الحشائش البحريه التي داخل الاناء الازرق بحجرة نومي كانت هناك . ولكن لم تكن "اميلي " الصغيرة هناك ، ولذلك سألت مستر بيجوتي عنها . فقال مستر بيجوتي وهو ينظر الى الساعة الهولنديه : "انها في المدرسة ، وستعود الى المنزل بعد ثلث او نصف ساعة . اننا جميعا نفتقدها ، بارك الله فيك" .

.. ان المكان برمته كان ، اوربما كان من الواجب ان يكون مبهجا كما هو عهدي به — الا انه لم يترك في نفس هذا الاثر . فقد شعرت بخيبة امل نوعا ما . وربما كان هذا لان اميلي الصغيرة لم تكن بالمنزل . وكنت اعرف الطريق الذي سوف تأتي منه ، وفي الحال وجدت نفسي اسير في الطريق لاقابلها .

وقبل مضي فترة ظهر شخص على بعد ، وعرفت على الفور انها اميلي التي كانت ماتزال مخلوقا صغيرا في الطول بالرغم من انها كبرت . ولكن عندما اقتربت اكثر ولمحت عينيها الزرقاوتين اكثر زرقه ووجهها يبدو ناصعا اكثر من قبل ، ويدت في جملتها اكثر جمالا ومرحا ، تملكني شعور غريب جعلني اتظاهر بانني لااعرفها وأمر بها كما لو كنت اراقب شيئا على بعد .

ولم تعبأ اميلي الصغيرة بالمرة . فقد رأتني جيدا ، وبدلا من ان تلتفت وراءها وتناديني جرت ضاحكه . وقد اضطرني هذا الى أن اعدو خلفها ، فجرت بسرعه وقربنا من الكوخ تماما قبل ان الحق بها .

.. وقالت اميلي الصغيره : "آه ! اهو أنت ؟ " فقلت "انك تعرفين من أكون يا اميلي " فقالت اميلي : "او لم تعرف انت أيضا من اكون" . وكنت سأقبلها ولكنها غطت شفتيها الحمراوتين بيديها وقالت انها لم تعد الان طفلة ، وضحكت وهي بداخل المنزل كثيرا .

ويبدو انها كانت تجد لذه في مضايقتي ، وكان هذا تغييرا قد حدث لها مما أثار عجبي كثيرا . ولكنها كانت مملوءة بالعطف وذات طبيعه سمحه ، كما كانت طريقتها اللطيفه في المزج مابين المكر والحياء في وقت واحد قد أسرتني أكثر من ذي قبل .

.. وكانت رقيقة القلب أيضا ، لاننا عندما جلسنا حول النار بعد تناول الشاى ، اشار مستر بيجوتي وهو يدخن غليونا للخسارة التى عانيتها ، فتحجرت الدموع في عينها ، ونظرت الى عبر المائده بعطف شديد لدرجه انني شعرت بالامتنان لها . وسألني مستر بيجوتي : "كيف حال صديقك ياسيدي؟" قلت: "ستيرفورث؟" . وصاح مستر بيجوتي ملتفتا الى هام: "ان هذا هو اسمه انني كنت اذكر انه شئ من هذا القبيل" . وقال هام ضاحكا : "لقد قلت ان اسمه رثرفورد" ورد مستر بيجوتي : "حسنا ، انك تديره في الحديث أليس كذلك ؟ الم يكن هذا من زمن بعيد . كيف حاله ياسيدي؟

— "انه على خير مايرام عندما تركته يا مستر بيجوتي" . وقال مستر بيجوتي مشيرا بغليونه "انه لصديق" . "انه لصديق اذ أردت ان تتحدث عن الاصدقاء . فليحفظني الله اذ لم انظر اليه على هذا الاساس" . وقلت وقلبي ممتلئ بمديحه: "انه وسيم للغايه اليس كذلك؟ انه افضل لاعبي الكريكت. انه يعطيك مايقدمه عدة رجال في مواقف متعددة ، ويمكن ان يسلب لبك بسهوله." وهز مستر بيجوتي رأسه بشده وكأنه يقول "طبعا انه كذلك" . وأردفت قائلا : "انه متحدث لبق يمكنه ان يأسر أى شخص ، ولا أعرف ماذا ستقول لو انك سمعته وهو يغني يامستر بيجوتي" وهز مستر بيجوتي رأسه مرة ثانيه كما لو كان يقول : "ليس لدي شك في هذا" .

.. وهو أيضا كريم للغايه رقيق ونبيل . قلت وأنا متأثر بالموضوع الذي أفضل الحديث فيه ، وانه ليس من اليسير اعطاءه مايستحقه من مديح . انني لا أستطيع ان اعبر عن شكرى الكافي لنبله في حمايتي عندما كنت أصغر منه وأقل منه بالمدرسة" .

وكنت أسرد الحديث بسرعه في الواقع عندما وقعت عيني على وجه اميلي ، وكانت مستنده الى المنضده وهي تنصت باهتمام بالغ ، وتوقفت انفاسها ، وكانت عيناها تومض كالجوهرات ، كما كان يخضب لون وجنتيها . وكان يبدو عليها مظهر وجمال غير عادي مما جعلني توقفت عن الكلام متعجبا فنظر اليها الجميع في نفس الوقت ، لانني عندما توقفت عن الكلام نظروا اليها وضحكوا .

— وقالت بيجوتي : ان اميلي مثلي تريد أن تراه" .

واضطربت اميلي عن مراقبتنا جميعا لها ، وأحنت رأسها واحمر وجهها خجلا . وعندما نظرت في الحال خلال شعرها المتموج ولاحظت اننا كنا لانزال ننظر اليها . (وكنت متأكدا أنني استطيع النظر اليها ساعات) — هرعت الى الخارج وظلت مبتعدة حتى ساعة النوم .

.. وفي الليله الاولى بعد وصولنا ظهر مستر باركس في حالة من الارتباك والحرج ، ومعه ربطه من البرتقال في منديل . ولما لم يشر الى من هو المقصود بها ، وكان من المفروض ان يتركها بالصدفه عندما يرحل ، لذا جرى هام خلفه لاعادتها له ، ثم رجع وهو يقول انها تخص بيجوتي . وبعد هذه المرة كان يظهر كل مساء في نفس الساعه تماما ومعه ربطه صغيره لايشير اليها ابدا وكان يضعها دائما خلف الباب ويتركها هناك.

.. وكان مستر باركس الذي يريد أن يحوز حبها على ما أذكر — من نوع غريب فكان نادرا ما يقول شيئا ، وانما يجلس بجوار النار بنفس الطريقه التى كان يجلس بها في العربه ، ويحملق بشده الى بيجوتي التى كانت تجلس في مواجهته . وكان يسعد بهذا جدا ولا يرغب في الحديث بالمرة .

وأخيرا عندما أشرفت زيارتي على الانتهاء ، وأخبرونا أن بيجوتي ومستر باركس سيذهبان لقضاء يوم عطله معا ، وان اميلي الصغيرة وأنا سنذهب معهما ، نمت نوما متقطعا ليلتها وأنا اترقب سعادة وجودي يوما كاملا مع اميلي . واستيقظنا جميعا في الصباح مبكرا .

وخرجنا في يوم عطلتنا وكان أول ما فعلناه هو أننا توقفنا امام كنيسه حيث ربط مستر باركر الحصان الى بعض القضبان ، ودخل مع بيجوتي تاركا اميلي وأنا بمفردنا • وانتهزت الفرصه وطوقت خصر اميلي بذراعي ، واقترحت عليها أن نسعد طوال اليوم ونتبادل العواطف لقرب رحيلي • فوافقت اميلي الصغيرة وسمحت لي بتقبيلها ، وخيم على اليأس وأخبرتها انني لا أستطيع ان احب غيرها وانني على استعداد لان اريق دم أي شخص يأمل في حبها •

•• ومكث مستر باركس وبيجوتي طويلا في الكنيسه وخرجا وانطلقنا بالعربه في الريف• وبينما كنا نسير التفت الى مستر باركس وقال وهو يغمز بعينه — وكنت اظن قبلا انه لا يستطيع ان يغمز:
— ما هو الاسم كما كتبته وانا في العربه ؟
فأجبت : "كلارا بيجوتي" • — ماهو الاسم كما يجب ان اكتبه الان ؟ فقلت ثانية "كلارا بيجوتي" • فأجاب وقد انفجر في زئير من الضحك : "كلارا بيجوتي باركس" • وبالاختصار فقد تزوجا ولم يدخلا الكنيسه لغرض غير هذا •

وسرنا الى فندق صغير في طريق جانبي حيث كانوا ينتظروننا وتناولنا عشاء شهيا وقضينا يوما سعيدا • ولو كانت بيجوتي تزوجت كل يوم خلال العشر سنوات الاخيره فانها لن تكون سعيدة وهادئة البال كما هي الان ولم يغير فيها هذا شيئا وانما كانت كما هي قبلا وخرجت للمشي معي ومع اميلي قبل تناول الشاي بينما كان مستر باركس يدخن غليونه باطمئنان ويتمتع بالتأمل في سعادته• واذا كان الامر كذلك فقد فتح هذا شهيته للطعام لانني اتذكر بوضوح انه على الرغم من تناوله قدرا كبيرا من لحم الخنزير والخضراوات في العشاء ودجاجه او اثنين الا انه اضطر لتناول لحما باردا مع الشاي بقدر كبير دون أدنى تأثير•

* * * *

ومررت الان بفترة اهمال لايمكنني ان اتذكرها دون ان تثور مشاعري • انني كنت اتمنى ان ارسل حتى الى اقسى انواع المدارس لاتعلم شيئا بأي كيفيه وفي أي مكان • ولكن لم يراودني امل كهذا فقد كنت مكروها وكان ينظرون الي بكآبه وحزن وبقسوه•

ولم تسأ معاملتي بطريقه ايجابيه ولم يضربني أحد او يتركني اموت جوعا ، ولكن الاساءة الي لم يتخللها فترات من تخفيف الوطأة انما كانت بطريقه رتيبة خالية من العطف• فكنت أهمل يوما بعد يوم وأسبوعا بعد اسبوع وشهرا بعد شهر• وكنت اتساءل عندما أفكر في الامر ، ماذا كانوا سيفعلون بي اذا مرضت ، هل كنت سأرقد وحيدا بحجرتي وأعاني من وحدتي بالمعهوده ، او هل ثمة انسان سيساعدني خلال مرضي • كنت خارج المنزل ذات يوم اتمشى في احد الامكنه وبطريقه فيها من عدم الاكتراث ما اتسمت به حياتي ، عندما استدرت ناصيه حارة بالقرب من منزلنا ، فقابلت مستر مردستون يسير مع رجل عرفت انه مستر كوينيون•

•• ومكث مستر كوينيون بمنزلنا تلك الليله• وأزحت مقعدي بعد الافطار في صباح اليوم التالي وكنت سأخرج من الحجرة عندما ناداني مستر مردستون وقال : "اعتقد انك تعرف ياديفيد انني لست ثريا • وعلى أي حال انك تعرف هذا الان • وقد تلقيت قسطا من التعليم • والتعليم يكلف كثيرا وحتى اذا لم يكن يكلف كثيرا وكان في امكاني منحه لك ، فان من رأي انه ليس من صالحك ان تستمر في الدراسة بالمدرسة • فان امامك كفاح مع هذا العالم وكلما اسرعت في البدء بهذا كان من الافضل • وقد سمعت ذكر "مكتب المحاسبه" •

فأعدت القول : "مكتب المحاسبه ياسيدي؟" • فأجاب/ "الخاص بمردستون وجونبي — ويتاجر في النبيذ • ان مستر كوينيون يدير هذا العمل •

•• ونظرت الى مستر كوينيون باسترحام وهو ينظر من النافذه بينما تابع مردستون كلامه لها ••ان مستر كوينيون يقول ان المكتب يستخدم بعض الصبيه وانه لايرى سببا لماذا لايستخدمك بنفس الشروط• وهذه الشروط هي انك سوف تكتسب مايكفي ان يمدك بالطعام والشراب ومصروف الجيب• أما مسكنك فقد دبرته لك وسأدفع أجره وأيضا أجر غسيل ملابسك" • فقالت شقيقته: "وهذا يترك لتقديره لي " •

وقال مستر مردستون: "اننا سنرعى أمور ملبسك أيضا حيث سوف لا يمكنك لفترة ان تشترى بعضا منها لنفسك • وستذهب الان يا ديفيد الى لندن مع مستر كوينيون لكى تبدأ كفاحك فى العالم لحسابك الخاص، فقالت أخته : وبالاختصار فقد هيئنا لك السبيل ويجب ان تقوم بواجبك• واذا رأيتنى فى الصباح فانك سترى ان كل ما أملك من الدنيا كان أمامى فى صندوق صغير وأنا جالس فى عربه تقل مستر كوينيون الى عربه لندن التى فى يارموث• وسترى منزلنا والكنيسه تتضاءل من على بعد ، والقبر تحت الاشجار يختفى بين تداخل الاشياء ، وقمة البرج من الفناء القديم تختفى وثمة فراغ فى السماء•

(الفصل الخامس)

كانت تجارة مردستون وجونبى شركة بين عدد كبير من الناس ولكن الفرع الهام فيها هو تموين النبيذ والمشروبات الروحيه لسفن شحن معينه• وكنت أعلم ان عددا كبيرا من الزجاجات الفارغه تتخلف كنتيجه للنقل ، وان عددا كبيرا من الرجال والصبيه كان يستخدم لفحص هذه الزجاجات فى الضوء ويلقون بالزجاجات التالفه ثم يقومون بغسلها • وعندما تغسل الزجاجات الفارغه كان الصبيه يقومون بلصق البطاقات على المملوء منها أو يضعوا فيها الفلين أو يصففوا الزجاجات التى اعدت فى صناديق • وكان هذا كله هو عملى حيث اننى كنت احد الصبيه الذين استخدموا •

•• ولا يمكن للكلام ان يعبر عن الالم الخفى لنفسى حيث انحدرت فى مثل هذه الزماله عندما أقارن هؤلاء الزملاء بزملاء طفولتى السعيده — ولم أقل مقارنتهم بستيرفورث او ترد لز او بباقى الزملاء • فشعرت بأن آمالى فى أن اكبر وأصبح رجلا متعلما موموقا قد تحطمت داخل نفسى • وان تذكرى العميق لهذه المشاعر واننى دون أمل الان تماما ، والخجل الذى كنت استشعره بالنسبه لوضعى والبؤس الذى انتاب قلبى الصغير عندما كنت أشاهد ان ماتعلمته وسعدت به يزول عنى يوما بعد آخر ورويدا رويدا ، وانه سوف لا يعود مرة أخرى •• كل هذا لا يمكن التعبير عنه أو تصوره•

ودقت ساعة مكتب المحاسبه الثانية عشره والنصف وكان الاستعداد عاما للذهاب لتناول طعام الغذاء ، عندما طرق مستر كوينيون شباك مكتب المحاسبه وأشار لى بالدخول • ودخلت فوجدت شخصا بدينا فى منتصف العمر يرتدى سترة بنية وسروالا وحذاء أسود • ولا يزيد مقدار ما على رأسه الكبيرة اللامعة من شعر عما يوجد على بيضه ، وله وجه كبير أداره نحوى • وكانت ملابسه رثه ولكنه وضع عليها ياقة قميص عاليه• وكان يحمل نوعا من العصى يتدلى منها شرابتين ، كما يتدلى من سترته قطعة زجاج كحلية لامعه ، واكتشفت فيما بعد انه نادرا ما كان ينظر من خلالها لانه لا يرى شيئا اذ ما نظر خلالها •

وأشار الى مستر كوينيون قائلا : "ان هذا هو" • فقال الغريب وثمة حشرجه كثيفه فى صوته وبطريقه يبدو فيها أدب لا أستطيع وصفه مما أثر فى كثيرا : "أهذا هو مستر كوبرفيلد • آمل ان تكون على ما يرام ياسيدى ؟" • فقلت : "اننى على مايرام ،وآمل ان يكون هو أيضا كذلك" • فقال الغريب : "اشكر الله تماما • لقد تلقيت خطابا من مستر مردستون يطلب منى فيه ان أوجر غرفه خلفيه بمنزلى وهى شاغره الان ، وبالاختصار أؤجرها كـ ••• — وبالاختصار — قال الغريب بابتسامه وفى مظهر من الثقه — كغرفة نوم — لشاب مبتدئ والذى لدى السرور فى ••• " — ولوح الغريب بيده وأغرق ذقنه فى ياقة قميص•

وقال مستر كوينيون: "هذا هو مستر ميكوبر" • وتنحنح الغريب قائلا : "هذا هو اسمى" وقال مستر كوينيون: "ان مستر ميكوبر معروف لدى مستر مردستون• وهو يقوم بتوصيل الطلبات لنا بالعمولة عندما توجد طلبات• وقد كتب له مستر مردستون بشأن أمر مسكنك وسيستقبلك كساكن لديه•

فقال مستر ميكوبر: "ان عنوانى هو وندسور تراس روود سيتى " • وتابع مستر ميكوبر حديثه بنفس مظهر التأدب والثقه المفاجئه: فقال "وانا بالاختصار أسكن هناك" • فانحنيت له وقال لى : "انه ليس عدنى ان امر عليك هذا المساء لادلك على أقصر طريق الى المنزل " •

.. فشكرته شكرا جما فقد كان من باب اود من جانبه ان يتكبد هذه المشقه. ووضع قبعته على رأسي ، وخرج وعصاه تحت ذراعه ، معتدلا في مشيته ، وهو يترنم بنغم عندما ابتعد عن مكتب المحاسبه. وفي الوقت المحدد في المساء عاود مستر ميكوبر الظهور وغسلت يدى ووجهي تكريما لرتبته وذهبنا معا الى منزلنا كما يجب ان اسميه الان ، ويبدو لي من اشكال المنازل الجانبيه عندما كنا نسير انه يمكن أن استدل على طريقي بسهوله في العود عند الصباح .

.. ووصلنا الى منزله في وندسور تراس (ولاحظت ان المنزل رثا مثله ولكن يحيط به نوع من المظهريه مثله أيضا) وقدمني الى مسز ميكوبر ، وكانت سيدة نحيله ذابله وليست صغيره السن بالمرة ، وكانت تجلس في غرفة الاستقبال (وكان الطابق الاسفل غير مؤثث بالمرة وأغلقت شبابيكه لحجب الجيران) وكانت تحمل طفلا على صدرها . وكان الطفل احد توأمين ويمكني أن ابدى ملاحظه هنا وهي اني لم أكن ارى بكل خبرتي مع الاسرة ان هذين التوأمين منفصلين عن مسز ميكوبر في نفس الوقت .

وكان يوجد طفلين آخرين هما مستر ميكوبر ويبلغ من العمر أربع سنوات ومس ز ميكوبر وعمرها ثلاث سنوات ، وكان هؤلاء مع سيده شابه سمراء — لها عادة الشخير — وهي خادمة الاسرة ، يكملون أهل المنزل . وكانت غرفتي تقع أعلى المنزل وفي مؤخرته .

وعندما صعدت مسز ميكوبر مع توأميها والجميع لترينى الغرفه — جلست لتلتقط انفاسها ثم قالت "لم أكن افكر ابدا قبل ان اتزوج عندما كنت أعيش مع والدى انني سأضطر الى تأجير غرفه. ولكن بسبب متاعب مستر ميكوبر يجب التنازل عن الاعتبارات الشخصيه واذا لم يمنح الدائنون لمستر ميكوبر فسحه من الوقت فانهم يجب ان يتحملوا النتائج . ومن المستحسن أن يرعوا بهذا . وانه لا يمكن الحصول على الحياة من الحجر وأيضا لا يمكن الحصول على أى شيء على الحساب في الوقت الحاضر (وبغض النظر عن مصروفات القضايا) — من مستر ميكوبر . — مسكينه مس ز ميكوبر .

انها كانت تقول انها حاولت جاهده ، وأظن انها فعلت هذا .. وكان على وسط الباب الخارجي لوحه كبيرة من النحاس الاصفر وكان مكتوبا عليها : "تؤجر مس ز ميكوبر سكنا للشابات" . ولكني وجدت أنه لم تكن هناك شابه ملتحقه بالمدرسة أو اتت واحده الى المنزل او اقترحت المجيء ، ولم يكن هناك ادنى استعداد لاستقبال أى شابه. وكان الزوار الوحيدين الذين رأيتهم او سمعت عنهم هم الدائنون فقد اعتادوا المجيء في كل الاوقات وكان بعضهم فظا تماما . وفي هذه الاوقات كان مستر ميكوبر كثير الحيرة لدرجة انه كان في مرة يلوح لنفسه بالموسى عندما حذرت بصرخه من زوجته — ولكنه بعد نصف ساعه رأيته ينظف حذاءه باهتمام شديد ثم يخرج وهو يدندن بلحن ويظهر من الرقة البالغة . وكانت مسز ميكوبر مرنه تماما . فقد عرفتها يغمى عليها لزيارة أحد الدائنين في الساعه الثالثه ثم تأكل لحم ضأن وتحتسى بيره دافئه في الرابعة تكون قد دفعت ثمنها برهن ملعقتي شاى بمحل الرهونات.

.. في هذا المنزل ومع هذه العائله قضيت ساعات فراغي . وكان طعام افطاره هو دائما رغيف ثمنه بنس ولبن قيمته بنس واحد ، وكنت اشتريهما بنفسي ، وكنت أحتفظ برغيف آخر وقطعة جبن لعشائي عندما أعود في المساء وذلك على رف خاص بدولاب خاص. وكان هذا يسبب ثغره فيما اكتسبه وقدره ست أو سبعة بنسات. وكنت أقضى اليوم كله بمخزن السلع واعتمدت على هذا المبلغ من المال طوال الاسبوع.

.. وكنت أعمل من الصباح حتى الليل مع رجال وصبيه من العامه. وكنت صبيا بائسا . فقد كنت اتسكع في الشوارع جائعا . وعرفت انه لولا رحمة الله لاصبحت بسهوله — اذا لم انل حظا من الرعايه لصا او متشردا صغيرا . وليس في استطاعتي ابدا كما قلت ان اقول مقدار ماعانيته. وقد اعتبرت ان انقاذى من مثل هذا الوجود لا أمل فيه مطلقا ولا يمكن تجنبه بالمرة .

ووصلت متاعب مستر ميكوبر الى حد المصيبه والقى القبض عليه صباح أحد الايام وأخذ الى سجن كينجز بنش في بورو. وأخبرني وهو يخرج من المنزل أن الله قد صب غضبه عليه ، وكنت أعتقد ان قلبه قد تحطم كما تحطم قلبي أيضا . ولكني سمعت فيما بعد انهم شاهدوه يلعب لعبة الكرة الخشبية المرحة بعد الظهر.

وفى أول يوم أحد بعد أخذه للسجن كان على أن اذهب لرؤيته وتناول الغذاء معه . وكان ينتظرنى داخل البوابه وصعدنا الى غرفته فى الطابق قبل الاخير ، وبكى كثيرا . وحذرنى بوقسار كما أذكر بآخر حكمة منه حين قال : " اذا كان لدى الانسان من الدخل عشرين جنيها سنويا وانفسق منها تسعة عشر جنيها وتسعة عشر شلنا وستة بنسات فانه سيكون سعيدا ، ولكنه اذا انفق احدى وعشرون جنيها فانه سيصبح بائسا . وبعدئذ اقترض منى شلنا يشرب به خمرا وأعطانى امر كتابيا الى مسز ميكوبر بالمبلغ وأدخل منديله فى جيبه وانفرجت اساريره .

وكنت اذهب الى مستر ميكوبر لا واسيهما ، وأخيرا صممت مسز ميكوبر ان تنتقل الى السجن حيث ان لمستر ميكوبر الان غرفه خاصة به . وقد ساعدهم بعض الاقارب والاصدقاء فى محنتهم الحاليه وكانا سعيدين فى معيشتهما بالسجن عما كانا خارجه .

.. وعلى الرغم من أن امور مستر ميكوبر مرت بمحنتها الا انه كان مشغولا بعمل ما تعودت أن اسمع عنه كثيرا . وأعتقد ان الان هو تسوية اموره مع دائنيه . وأخيرا ظهرت هذه الوثيقه على انها الخروج من المأزق بطريقة ما ، وأخبرتنى مسز ميكوبر ان عائلتها قررت أن على مستر ميكوبر أن يقدم طلبا بأنه ليس فى امكانه دفع الديون حيث سيطلق صراحه كما تتوقع خلال ستة اسابيع .

وقال مستر ميكوبر وكان موجودا : " وعندئذ ليس لدى شك باذن الله اننى سأبدأ فى الحياة وأعيش بطريقة جديدة تماما اذا لم يحدث فى الامر شيئا أو تغييرا . " وفى الوقت المناسب أطلق سراح مستر ميكوبر وسررت أنا بذلك . وقلت لمسز ميكوبر : " هل لى ان أسأل ياسيدتى ماذا تنويان عمله بعد أن تخلص مستر ميكوبر من متاعبه وأصبح حرا ؟ " فهل قررتما شيئا ؟ .

فقالت : " ان مستر ميكوبر رجل ذو مواهب كبيرة ياستر كوبرفيلد " وقلت اننى متأكد من هذا . وكررت هى القول : " ذو مواهب كبيرة ، ومن رأى عائلتى انه بنفوذ قليل يمكن عمل شئ فى مصلحة الجمارك لرجل له مثل قدراته . وحيث ان لعائلتى نفوذ فى مكان وجودهم فان رغبتهم أن يذهب مستر ميكوبر الى بليموث . ويعتقدون أنه من الضرورى ان يذهب حالا .

وقلت : عليه أن يكون مستعدا . وردت مسز ميكوبر : بالضبط عليه أن يكون مستعدا اذا ظهر شئ . وقلت : " وهل ستذهبين أيضا انت ياسيدتى ؟ . ولكن أحداث اليوم بالاضافة الى التوابين جعلا مسز ميكوبر منفعله (أجابت وهى تذرف الدمع : " اننى سوف لا أترك مستر ميكوبر . فربما اخفى متاعبى أولا ولكن طبعه التفاؤل جعله يتوقع انه سيتغلب على متاعبه . ان العقد اللؤلؤ والاساور التى ورثتها عن والدتى بيعت بأقل من نصف قيمتها . ومجموعة المرجان التى كانت هدية الزفاف من والدى ذهبت دون شئ . ولكنى سوف لا أهجر مستر ميكوبر أبدا . وصاحت اكثر تأثرا عن ذى قبل : " سوف لا أفعل هذا — لا فائدة من سؤالى .. ان لمستر ميكوبر اخطاؤه ، ولا انكر انه غير متبصر بالامور . ولا أنكر انه اخفى عنى موارده — واستمرت فى حديثها وهى تنظر الى الحائط . " ولكنى سوف لا أهجز مستر ميكوبر " .

وكنت قد تعودت على اسرة ميكوبر وكنت اشاركهم أحزانهم وودا لهم لدرجة ان فكرة انتقالى لمسكن آخر والاقامة بين الناس ليس لى بهم معرفه ، لم يكن أمرا أستطيع احتماله . ولم يكن ثمة مهرب من الامر الا اذا قمت أنا بالهروب — كنت اعرف هذا جيدا ، ولم أسمع الا نادرا عن مسز مردستون ولم اسمع اطلاقا عن مستر مردستون . وكنت أمضى أمسياتى مع مستر ومسز ميكوبر وزاد شغفنا ببعض بمرور الوقت . وفى آخر يوم أحد دعانى كلاهما على العشاء ، وتناولنا لحم الخنزير وصلصة التفاح وبودنج . وقمت بشراء حصان خشبى منقط فى المساء كهدية وداع لبركنز ميكوبر وهو الصبى — ودميه لايما الصغيرة . وأمضينا يوما سعيدا رغم أن قلوبنا كانت مفعمة بالحزن لفراقنا الذى أصبح وشيكا .

.. وقالت مسز ميكوبر : " انى سوف لا أذكر الفترة التى كان يعانى فيها مستر ميكوبر المتاعب دون أن اذكرك ياسيد كوبرفيلد . لقد كنت صديقا حقا " . وقال مستر ميكوبر : " ياصديقى الشاب ، اننى اكبر منك سنا ولى بعض الدراية بالحياة — أى بالاختصار دراية بالمتاعب ، بوجه عام . وبالنسبه للوقت الحاضر وحتى يحدث تغيير (واننى ارقب هذا بالساعات) فانه ليس لدى ما أقدمه لك الا النصيحة .

وبالاختصار فان نصيحتي جديرة بالاهتمام رغم انني لم أطبقها فانا ... — وهنا تجهم وجه مستر ميكوبر الذى كان يشع بهجة وابتساما حتى تلك اللحظه ، وقال "انا اكثر الناس بؤسا منذ تلقاهم" . واستحثته زوجته : "ياعزيزى ميكوبر" .

واستطرد مستر ميكوبر وقد نسى نفسه وابتسم مرة أخرى : انني اقول اكثر الناس بؤسا من تلقاهم . ان نصيحتي الا تؤجل عمل اليوم الى الغد — ان التسويف هو لص الزمن — عليه اللعنه" . واتخذ بعد ذلك مظهر الجديه لدقيقه أو حوالى هذا . وقال مستر كوبرفيلد "ونصيحتي الثانيه ياكوبرفيلد كما تعلم ، اذا كان الدخل السنوى عشرون جنيها والمنصرف تسعة عشر جنيها وتسعة عشر شلنا وست بنسات فالنتيجه هى السعاده . واذا كان الدخل عشرون جنيها والمنصرف عشرون جنيها وستة بنسات فالنتيجة هى التعاسه . فالزهرة يانعه والاوراق ذابله ويتخلى الله عنك ، وبالاختصار ستصبح دواما فى حرج مثلى" .

ولكى يجعل لمثاله فاعليه شرب مستر ميكوبر قدحا من الخمر بمزيد من السرور والرضى واخذ يصفر لحنا . وفى اليوم التالى قابلت الاسرة كلها عند مكتب قيام العربات ، ورأيتهم بقلب مفعم بالحزن يتخذون مقاعدهم فى نهاية العربة . وأظن ان مسز ميكوبر جلست فى نهاية العربة مع الاطفال . ووقفت فى الطريق أنظر اليهم مشدوها واغرورقت عيناها بالدموع وادركت هى عندئذ انني كنت مخلوقا صغيرا . واعتقد هذا حيث انها اشارت الى لاصعد العربه ، وفى وجهها تعبير عن الامومة ووضعت يدها حول عنقى وقبلتنى كما تفعل بأحد ابنائها . ولم يكن امامى الا القليل من الوقت لانزل من العربة قبل قيامها ولم أستطع الا بالكاد ان ارى الاسرة ، وهم يلوحون بمناديلهم واختفت العربة فى دقيقة . وعدت لابدأ يوما جديدا بشركة مردستون وجرنبى . فقد صممت على الهرب . ثم اذهب بوسيلة أو بأخرى الى الريف الى القريبة الوحيدة لى فى هذا العالم ، واخبر عمتى مس بتسى بقصتى .

وقد بدأت افكر كيف ان هذه الفكرة اليائسه لم تطرأ ببالى . ولكن عندما طرأت لى ظلت عالقه بذهنى . وبما انى كنت مخلوقا صغيرا أمينا لا أرغب فى أن ادنس ذكراي التى ساخلفها بالشركه وجدت نفسى مضطرا ان امكث حتى ليلة السبت حيث انني تقاضيت أجرى اسبوع مقدما عندما وصلت الى هناك ، وقررت الا أظهر عند مكتب الحسابات فى الساعه المعتاده لاتقاضى اجرى . وبناء على ذلك عندما حلت ليلة السبت وكنا جميعا ننتظر بالشركه لتقاضى الاجر ، فررت مسرعا .

وكل ما كنت ادريه ان لدى فكرة جامحة وهى أن اجرى طوال الطريق الى دوفر عندما بدأت متجها الى جرينتش . وجمعت شتات مظهرى اذا كان لدى شئ منه وتوقفت عند كنت روود . وجلست على عتبه باب متعبا لكفاية من المجهود الذى قمت به . وخيم الظلام وقتئذ ودقت الساعه العاشرة ولحسن الحظ كان الجو جميلا وكنا فى أحسن صيف . ولما استعدت أنفاسى نهضت وتابعت المسير . وكنت أسير بائسا رغم انني اسرعت قدر المستطاع . وسوف لا أنسى الاحساس بالوحدة عندما نمت لاول مرة دون سقف فوقى . وغالبنى النوم كما يغالب الاخرين داخل ابوابهم المغلقه ، ونبحت الكلاب فى تلك الليلة .

والصورة التى استعدتها وعلقت بذهنى كانت صورة والدتى فى شبابها وجمالها وهى تبكى بجوار المدفأة ، وعمتى ترثى لحالتها مما جعلنى كما أظن ليس لدى الشجاعه ان اتابع المسير فى اليوم التالى . ولكن الفكرة كانت بذهنى وتابعت المسير . وكانت تلازمنى عندما كنت أرقد لانام وكانت امامى عندما استيقظ فى الصباح وكانت أمامى أيضا طوال اليوم . وعندما وصلت فى النهاية الى سهول دوفر الجرداء خفف هذا من شعورى بالوحده بحلول الامل حتى وصلت الى الهدف الاول من رحلتى ووطأت قدمى المدينه نفسها فى اليوم السادس من هروبى وحينئذ تركتنى تلك الفكرة . ومن الغريب ان اقول انه عندما وقفت بحذائى الممزق وثيابى الرثة ومظهرى المترب الذى لفحته الشمس فى هذا المكان الذى كنت اهفوا اليه من زمن بعيد بدى انه اختفى كالحلم واصبحت ضعيفا يائسا .

وانقضى الصباح عندما لاح سائق عربة صغيرة بعربته وقد وقع منه غطاء الحصان • وبينما كنت اناوله له شجعنى شئ فى وجهه يدل على طيبته أن أسأله اذا كان بامكان ان يخبرنى اين تقيم مسز بتساى تروتوود • وقال : تروتوود ؟ دعنى افكر انى اعرف هذا الاسم •• انه لسيدة عجوز فقلت : نعم • نوعا ما • قال وقد اعتدل : مستقيمه الظهر تماما ؟ • قلت: نعم اظن أن ذلك من المحتمل جدا • قال : وتحمل حقيبه؟ حقيبه بها فراغ كبير ؟ وهى فظه وتتسم بحدة الطبع • فغاص قلبى وانا اتعرف على هذا الوصف الدقيق •

فقال وهو يشير بسوطه نحو المرتفعات : حسنا ، سأخبرك اذا ذهبت الى هناك، وسرت الى اليمين حتى تصل الى بعض المنازل المواجهه للبحر أظن انك ستسمع عنها " •

واخيرا ذهبت الى دكان صغير (وهى ماتسميه عادة لدينا بالمحل العام) وسألت اذا كانوا من العطف بحيث يخبرونى أين تقيم مسز تروتوود • وكنت أخاطب رجلا خلف منضدة البيع وكان يزن بعض الارز لشابه ، ولكن الاخيرة استدارت بسرعة وقالت: "انها سيدتى ماذا تريد منها ياصبى ؟ "
فاجبت: اريد ان اتحدث اليها من فضلك؟ فاجابت الشابه بحده: تقصد ان تستجدها ؟ فقلت كلا ، فى الحقيقه" وفجأة تذكرت انى قد أتيت حقا لهذا الغرض، فشعرت ان وجهى يلتهب •

ووضعت خادمة عمتى — واعتقد انها كذلك مما قالته — الارز فى سلة صغيرة وخرجت من الدكان واخبرتنى اننى استطيع ان اتبعها اذ اردت ان اعرف اين تسكن مسز تروتوود • وتبعتها وسرعان ما وصلنا الى كوخ صغير أنيق له نوافذ سهميه بهيجة المنظر ، وامامه حديقه صغيرة مربعة مليئه بالزهور المعتنى بها ولها رائحه شذيه •

قالت الشابه : هذا هو منزل مس تروتوود " • اما وقد عرفته الان فهذا هو كل مالدى أن اقوله لك" وبهذه الكلمات اسرعت داخل المنزل كما لو أراد ترفع مسئولية ظهورى عنها وتركتنى واقفا بجوار باب الحديقه •

•• كان حذائى فى هذا الوقت فى حالة رثة ، وانحسر النعل شيئا فشيئا ، وتمزق وجه الحذاء واختفى منه شكل الحذاء • اما قبعتى (التى كنت استخدمها كقبعة للمساء) فقد اعوجت حتى انها تخجل من منافسة طاسة قديمة بلا يد ملقاه على تل • وكان قميصى وسروالى ممزقين وبهما بقع من الحشائش والندى •• ومن الارض التى كنت انام عليها ، حتى ان الطيور كانت تخافنى عندما وقفت عند بوابة حديقة عمتى • ولم يعرف شعرى المشط او الفرشاة منذ أن تركت لندن • اما وجهى ورقبتى ويداى فقد احترقت بلون بنى غامق من تعرضها للهواء والشمس بطريقة غير معتادة • وكان يغطينى من رأسى الى قدمى طباشير أبيض وتراب كما لو كنت خارجا من محجر للجير • وفى هذا المنظر وأنا اتذكر جيد انتظرت لاقدم نفسى لاول مرة الى عمتى ذات الطابع العنيف •

وأوحى الى هدوء الجلوس بعد فترة الى انها ليست هناك ورفعت بصرى الى الشباك العلوى حيث وجدت شخصا باسما حسن المظهر اشيب الشعر ، أغلق عينيه بطريقة لطيفه وأومأ برأسه عدة مرات وهزها لى كثيرا وضحك واختفى • واضطربت لهذا السلوك الغير متوقع حتى اننى كنت على وشك الانسحاب لانى فكرت انه كان يجب على أن اتقدم بطريقة أفضل — حين خرجت من المنزل سيدة عقدت منديلا فوق قبعتها وفى يديها قفازين للعمل فى الحديقه وتحمل سكينا ضخما • وفى الحال عرفت ان مس بتسى لانها سارت خارج المنزل منتصبة القامة كما وصفتها والدتى المسكينه عندما جاءت الى حديقتنا فى بلندرستون روكرى •

قالت مس بتسى وهى تهز رأسها وتلوح بسكينها فى الهواء: "اذهب بعيدا ، لايوجد فتية هنا • " فراقبتها وقد قفز قلبى الى فمى وهى تشير الى ركن من حديقتها وتوقفت لتغرس بعض الجذور هناك • وعندئذ ودون ادنى شجاعة ولكن بيأس عظيم ، ذهبت فى هدوء ووقفت بجوارها ولمستها بأصبعى وبدأت الكلام : "لو سمحت ياسيدتى " • ففزعت ونظرت الى اعلى • فقلت "لو سمحت ياعمتى " •

فصاحت مس بتسى فى لهجة من الدهشه لم أسمعها من قبل : "ماذا ؟ — لو سمحت ياعمتى اننى ابن اخيك • فقالت عمتى وقد جلست على ممر الحديقه: "اواه يا الهى " •
— اننى دافيد كوبرفيلد من بلندرستون بمقاطعة سفولك وقد اتيت فى الليلة التى ولدت فيها ورأيت أمى العزيزة • ومنذ وفاتها وأنا فى غاية الشقاء وقد أهملت ولم أتعلم شيئا • واعتمدت على نفسى والحقت بعمل

لا يناسبني ولهذا هرعت اليك • وسرت اليك طوال الطريق ولم انم في فراش منذ أن بدأت الرحلة • وعندئذ انهارت قواى وانهمرت في البكاء بحرارة كنت اكظمه بداخلي طوال الاسبوع • وجلست عمتي على الرمل وكان وجهها كله يعبر عن الدهشه وهي تحملق في حتى بدأت البكاء ، وعندئذ نهضت بسرعة وجرتني الى غرفة الاستقبال ، وكان اول ما فعلته ان فتحت دولابا كبيرا واخرجت منه عدة زجاجات صبت بعض محتوياتها في فمي • واعتقد انها أخرجتها بالصدفة لاني تذوقت طعم ماء معقم وصلصة وزيت للسلطة • ولما كنت في حالة عصبية لا استطيع التحكم في بكائي أجلستني على الاريكه بعد أن وضعت شالا تحت رأسي •

وبعد برهة دقت الجرس وقالت عمتي عندما دخلت خادمتها : " اذهبي الى الطابق العلوي يا جانيت وابلغي تحياتي لمستر "ديك" وقولي له انني اود التحدث اليه " • وبدت على جانيت الدهشه عندما رأتني مستلقيا على الاريكه ولكنها ذهبت لمهمتها • ودخل الشخص الذي غمز لي من الشباك العلوي ضاحكا • وقالت عمتي : " يامستر "ديك" لا تكن أحمقا لانه لا يمكن ان يكون هناك من هو أدق منك عندما تقوم بالاختيار • ونحن نعرف هذا جميعا • فلا تكن أحمقا مهما كنت انت • فاتخذ الرجل مظهر الجد في الحال ونظر الي — كما أظن — وكأنه يريد رجائي الا اقول شيئا عما حدث وهو بالشباك • وقالت عمتي : هل سمعتني يامستر ديك اذكر اسم ديفيد كوبرفيلد ؟ والان لا تتظاهر بانه ليست لديك ذاكرة ، لاننا نعرف الحقيقه " •

فقال مستر ديك ولم يبدو انه تذكر كثيرا بشأن هذا : " ديفيد كوبرفيلد ، آه نعم بالطبع ، ديفيد كوبرفيلد " • فقالت عمتي : حسنا ، هذا هو ولده ، ابنه ، وسيكون شبيها بابيه قدر المستطاع ، ان لم يكن شبيها بامه ايضا • فقال مستر ديك : ابنه — ابن ديفيد ؟ حقا ! • قالت عمتي : نعم • ولهذا ارتكب عملا أحمقا • لقد هرب • آه ! ان اخته بتسي ترتوود لم تكن لتهرب ابدا " وهزت عمتي رأسها بحزم وهي تثق من خلق وسلوك الطفلة التي لم تولد • ثم قالت عمتي : "والان التفت الى ديفيد كوبرفيلد • والسؤال الذي أسألك اياه : ماالذي سأفعله معه ؟ " فقال مستر ديك وهو يحك رأسه ببطء : "ماذا ستفعلين معه ؟ آه ! تفعلين معه ••" وقالت عمتي بنظرة حاده وهي تشير بسباتها : "هيا انني اريد نصيحه جيده " •

قال مستر ديك وهو يفكر وينظر الي ببلاهة : "اذا كنت مكانك • يجب •••" ويبدو ان تأمله لي الهمه فكرة مفاجئه وأضاف بحماس : "يجب ان أجعله يغتسل " • واستدارت عمتي وقد بدا عليها شعور بالانتصار لم أفهمه في ذلك الوقت : ان مستر ديك على حق • اعدي حماما ساخنا ياجانيت" وبالرغم من اهتمامي الشديد بهذا الحوار فانني لم اتمالك من تأمل عمتي ومستر ديك وجانيت اثناء الحديث وهو يجرى وكذا تأملي لما تحتويه الحجرة •

•• لقد كانت عمتي سيده طويلة ذات تقاطيع قاسيه ، ولكنها لم تكن بأي حال كئيبة المظهر وقد لاحظت بصفه خاصه ان لها عين لامعة يشع منها الذكاء • وكان شعرها الاشيب مصففا في قسمين تحت القبعة • ورداءها ذا لون ليموني وفي منتهى الاناقة ومفصلا بطريقة غريبة كما لو كانت ترغب في أن يلتصق بها قليلا •

•• وكان مستر ديك أشيب الرأس كما قلت من قبل وكان بهيجا : وكان هذا هو كل مايجب ان اقوله بشأنه ، لولا عينه الرماديتين الواسعتين وبهما نوع من بريق مائي غريب شككت في انه مجنون لطريقته البلهاء وخضوعه لعمتي وفرحه الطفولي عندما تمتدحه ••• ولكن اذا كان مجنونا فكيف جاء الى هذا المكان ، وحيرني هذا الامر كثيرا •

اما جانيت فكانت فتاه جميلة تبلغ من العمر تسعة عشر او عشرون عاما وهي نموذج للاناقه • وكانت جانيت قد خرجت لتعد الحمام عندما انفجرت عمتي غضبا وانحسر صوتها وهي تصيح : جانيت ! الحمير ! وقد ازعجني هذا • وجاءت عندئذ جانيت تجرى وهي تصعد السلالم كما لو كان قد اشتعل المنزل نارا ، والقت بنفسها على قطعه عشب خضراء بسرعة امامها ، وازاحت حمارين مسرحين ، وسيده راكبه وطأت هذا المكان ، بينما اندفعت عمتي خارج المنزل وامسكت بلجام حمار ثالث قليلا وقادته بعيدا عن هذا المكان المقدس ، وأمسكت باذن صبي من العامه سيء الحظ لانه تجرأ على ان يخطو على هذه الارض الطاهرة •

وحتى هذه الساعة لم اعرف اذا ماكانت عمتى لها الحق الشرعي في هذه البقعه الخضراء ، ولكنها ثبتت في ذهننا انها ملكها . والغضب الوحيد الذي يدعو للانتقام دائما هو مرور حمار في هذه البقعه الطاهره . ومهما كانت منهمكه في أي عمل ، ومهما كانت المحادثه التي تجريها مشوقة فان حمارا يحول دفة افكارها في لحظه ، وتندفع نحوه مباشرة . وكانت تحتفظ بآنيه للماء وأباريق في أماكن سرية لتلقيها على الصبيه المشاغبين ، وتضع عصيا كثيرة خلف الباب ، لتكون مفاجآتها في كل الاوقات حين تعلن حربا لاهوادة منها .

ربما كان هذا الغضب مقبولا بالنسبه للصبيه الذين يقودون الحمير وربما كانت الحمير تجد لذه في عنادها على هذا النحو ، ولكني فوجئت بثلاثة انذارات قبل اعداد الحمام ، ورأيت عمتى منهمكه بمفردها مع صبى في الخامسة عشر وتدق رأسه المغطاه بالرمال على بوابتها مثل أن يفهم ماذا حدث . وهذه الاحداث كانت مضحكة بالنسبة لى لانها كانت تعطيني شوربه من ملعقه في هذا الوقت (وكنت أحس بأننى أتضور جوعا ويجب أن اتناول التغذيه أولا في وجبات خفيفه ، وبينما أنا فاغر فمي لاتلقى الملعقه ، أرجعتها الى الاناء وصاحت : "الحمير ياجانيت" ثم خرجت الى الهجوم المفاجئ .

.. لقد كان الحمام راحة كبرى ، وعندما استحممت جاءت عمتى وجانيت ولفانى في قميص وبنطلون خاصين بمستر ديك وربطانى في شالين كبيرين أو ثلاثه . وكنت اشبه أى ربطه ولكني شعرت بالحرارة وشعرت بدوار ونعاس ورقدت على الاريكه واستغرقت في النوم .

وربما كان حلما ، ولكني استيقظت وبى احساس ان عمتى قد جاءت وانحنت فوقى ، وازاحت شعرى من على وجهى ، وأزاحت رأسى ووقفت تنظر الى . وكانت الكلمات "شخص جميل" "المسكين" ترن في اذني أيضا ولكن من المؤكد انه لم يكن هناك شيئا آخر عندما استيقظت ، واعتقدت ان هذه الكلمات فاهت بها عمتى التى جلست الى الشباك السمى تنظر الى البحر . وتناولنا الغذاء بعد ان صحوت وكان مكونا من الدجاج المحمر وبودنج . وسحب الغطاء ووضع على المنضدة الكريز وأرسلت بعد ذلك عمتى لاستدعاء مستر ديك ثانيا الذى لحق بنا ، وكان يبدو عليه الاتزان قدر استطاعته عندما ينصت الى قصتى التى استطاعت ان تعرفها منى بعدد من الاسئلة .

قالت عمتى بنظرتها الجديه ومشيرة باصبعها كما فعلت من قبل : "والان يامستر ديك ، سأسألك سؤالا آخر . انظر الى هذا الطفل . قال مستر ديك ووجهه منتبه ومتحير : " ابن ديفيد ؟ " فردت عمتى : تماما هو هكذا . ماذا نفعل به الان ؟ قال مستر ديك : ماذا يابن ديفيد ؟ " . أجابت عمتى : نعم يابن ديفيد . قال مستر ديك : "آه ! نعم — يجب ان ارسله للفراش . فصاحت عمتى بنفس مظهر الانتصار الذى لاحظته في المرة السابقه : يا جانيت ان مستر ديك على حق . اذا كان الفراش معدا فسنصعد به الى هناك" .

.. وكانت الغرفة مبهجة وهى في اعلى المنزل وتطل على البحر ، وكان القمر يسطع عليها بوضوح وبعد تلاوة صلواتي وأطفئت الشموع فانني اتذكر كيف انني ظللت اجلس ناظرا الى القمر على صفحة الماء ، كما لو كنت آمل ان أقرأ مستقبلي (مصيرى) فيها ، كما لو كان في كتاب ناصع ، أو لا أرى أمى مع طفلها تأتى من السماء عبر هذا الممر المضئ ، لتطل على بوجهها الجميل مثل آخر مرة .

وأتذكر كيف فكرت في الاماكن المنعزلة التى نمت فيها تحت سماء الليل ، وصليت لكى لا أصبح شريدا مرة اخرى ولا أنسى تشردى وأتذكر كيف انه بدى لى اننى اطفو نحو هذا المجد الذى تشوبه المحنه الى طريق البحر ، بعيدا في دنيا الاحلام .

(الفصل السادس)

وعندما نزلت في الصباح وجدت عمتى ساهمة وهى تجلس الى مائدة الافطار . وقالت بعد فترة من الزمن : "أهلا" . ونظرت اليها والتقيت عيناى بنظارتها الحادة باحترام . وقالت عمتى : لقد كتبت اليه . — "الى ..... ؟ " قالت عمتى : " الى زوج امك . لقد ارسلت له خطابا وأخبرته بأن يكلف نفسه مشقة الحضور او التقى به خارجا حتى يمكنني ان أخبره بهذا . فاضت روحى عند سماع هذه الكلمات وابتأست واصبحت مهموما . وقالت عمتى وهى تلضم الابرة : انني اود أن تصعد الى اعلى

وبلغ تحياتي إلى مستر ديك ويسرني ان اعرف كيف تسير الامور معه في مذكراته" . وصعدت ومعي رسالتي . قال مستر ديك: حقا . تحياتي لها وإني اعتقد انني بدأت فيها . اعتقد انني بدأت قالها مستر ديك وهو يمر بيده على شعره الاشيب: هل ذهبت قبلا الى المدرسة ؟ قلت: نعم ياسيدي لمدة وجيزة. قال مستر ديك وهو ينظر الى بشغف وأخذ قلمه ليدون هذا: "هل تذكر التاريخ الذي قطعت فيه رأس الملك شارل ؟" قلت: "انني اذكر انها سنة ١٦٤٩ .

فرد مستر ديك وهو يحك اذنه بقلمه وينظر الى بشك: حقا هكذا تقول الكتب . ولكني لا ارى كيف حدث هذا . لانه اذا كان هذا هو أمر بعيد تكيف امكن للناس الذين احاطوا به أن يخطئوا لوضع المتاعب التي كانت برأسه — بعد قطعها — في رأسي انا ؟" ودهشت لهذا السؤال جدا ولكني لم أستطع الرد على استفساره . وقال مستر ديك . انه لامر غريب جدا . ثم قال وهو ينظر الى الاوراق التي امامه ويده على شعره مرة ثانية: انني لا أفهم هذا جيدا . ولا أستطيع توضيحه . ولكن لايهم : لايهم" قال بابتهاج وأوقظ نفسه: ان هناك وقتا كافيا" .

وكنت سأغادره عندما لفت نظري الى طيارة لعبه . وقال: ما رأيك في هذه الطيارة؟ فأجبت بأنها جميلة . وقلت اعتقد أن ارتفاعها سبعة اقدام . فقال مستر فيك: لقد صنعتها أنا هل ترغب في ان تذهب معي لنجعلها تطير . هل ترى هذه ؟ وأراني انها مغطاه بمخطوط مكتوب بعنايه وجهد ولكن بوضوح ولما نظرت خلال السطور ، اذكر انني رأيت اشاره الى الملك شارل في مكان او مكانين .

وقال مستر ديك : هناك قدر كاف من الدوبار . وعندما تطير عاليا فانها تأخذ الحقائق معها وهذه هي طريقتي في توزيعها . ولا اعرف اين تهبط . وهذا تبعا للظروف وللريح وهكذا . . . ولكني انتهز فرصتي . وكان وجهه سارا لطيفا ، ولكني لم أكن متأكدا هل كان يمزح معي . ولذلك ضحكت وضحك هو ، وافترقنا ونحن على أفضل حال من الصداقة والود .

قالت عمتي عندما هبطت الى الطابق السفلي : حسنا ايها الصبي ، ماذا حدث لمستر ديك هذا الصباح ؟ مارأيك فيه؟ . هل هو — هل مستر ديك . . . انني أسأل لانني لا أعرف ياعمتي — هل هو ليس بكامل قواه العقلية ؟ وتلعثمت لانني شعرت انني اطرق امورا خطيرة . قالت عمتي : لا ليس بالمرة فقلت بصوت خافت : " أوه هذا حقا " . فقالت عمتي بتصميم وقوة: "اذا كان ثمة شئ في العالم وليس لمستر ديك ، فانه هذا الشئ الذي قلته . فلم يكن لدي شيئا افضل اتقدم به عن القول بحياء: آه! حقا !" وقالت عمتي : لقد كانوا يطلقون عليه مجنونا . ان مستر ديك يمت الى بصلة قرابة بعيدة . وهو أكثر الناس ودا وصداقة في هذا الوجود — ولاعطاء النصيحة ولكن أحدا لا يعرف عقل هذا الرجل الا هو نفسه . هل قال لك شيئا عن الملك شارل الاول ايها الصبي ؟ — نعم ياعمتي .

قالت عمتي وهي تحك انفها كما لو كانت مرتبكة قليلا : آه . ان هذه هي طريقة الاسطورية في التعبير عن الامر . فانه يربط مرضه باضطراب شديد طبعا ، وهذا هو التشبيه أو التصوير أو سمها كما تشاء التي اختارها للاستخدام . ولماذا لا يكون ذلك اذا كان يفكر تفكيرا سليما ؟ قلت : بالتأكيد ياعمتي . فقالت عمتي : انه ليس شأننا بالتحدث في هذا وهي ليست طريقه سليمة . وانني متأكدة من هذا ، ولهذا السبب فانني اؤكد على هذا — وهو أنه يجب الا تكون هنا اشاره عن هذا الامر في مذكراته . وهل هي مذكرات عن تاريخ حياته يقوم بتدوينها ياعمتي ؟ !

قالت عمتي وهي تحك انفها ثانيه : نعم ايها الصبي . انه يتذكر لورد تشانسلور أو أي لورد آخر — واحد من هؤلاء الناس وفي جميع الاحوال يدفع لهم ليذكروه — عن أحوالهم . واعتقد ان هذه الطريقة ستتبع في هذه الايام وهو لم يستطع ان يكملها دون أن يدخل هذه الطريقه في التعبير عن نفسه — ولكنها لاتهم انما تجعله مشغولا — وفي الحقيقه لقد اكتشفت فيما بعد أن مستر ديك يجاهد مدى عشر سنوات ليخرج الملك شارل الاول من المذكرات ولكنه كان يذكره دواما ويدونه الان .

ويجب القول ان كونها بصحبة مستر ديك الوديع البائس لم يوحي الى قلبي الصغير بأمل اناني ولكنه اثلجه دون انانية نحوها . واعتقد انني بدأت اعرف شيئا في عمتي بغض النظر عن شذوذها الكثير وطرقها الغريبه ، انها شخصية محترمه ويوثق بها .

وأخيرا جاء الرد من مستر مردستون ، وأخبرتني عمتي بما سبب لي رعبا لا نهاية له ، انه سيأتي بنفسه للتحدث معها . وفي اليوم التالي جلست احسب الوقت، وانا في انتظار الفزع من رؤية ذلك الوجه الكئيب والذي كان يفزعني كل وقت عدم وصوله . وتأجل غداؤنا الى أجل غير مسمى ولكن تأخر الوقت حتى انها امرت باعداده عندما اعلنت تحذيرا مفاجئ بوجود الحمير ، وبتركيزي ودهشتي رأيت مس مردستون على سرج وهي تركب على البقعة الخضراء المقدسة وتوقفت امام المنزل . وفوجئت عمتي بالبرود الذي نظرت به اليها مس مردستون ، حتى اعتقدت انها بلا حركة غير قادرة على الخروج لحظتها تبعا للتقاليد . وانتهزت الفرصة لاخبرها عمن تكون وكان الرجل الذي يقترب من هذه السيدة المسيئه (لان الطريق كان منحدرا وجاء خلفها) هو مستر مردستون نفسه .

وصاحت عمتي وهي لا زالت تهز رأسها وتشير بيديها كيفما اتفق ودون ترحيب من الشباك: انه انه لا يهمني من هو .. وانه لا يمكن ان يعتدي على ارضي . فانا لا أسمح بهذا . أذهبي ياجانيت وابعديه عن المكان واخرجيه منه" . ورأيت من وراء عمتي نوعا من المعركة السريعه حيث وقف الحمار يقاوم أي شخص وأرجله الاربعه مترامية بينما حاولت جانيت ابعاده عن اللجام . وحاول مستر مردستون اقتياده ، فاصطدمت مس مردستون بجانيت عرضا ، وجاء عدة صبيه ليشاهدوا المعركة وهم يصيحون بشدة .

وترجلت مس مردستون اثناء الجزء الاخير من المشهد وانتظرت الان مع اخيها عند اسفل الدرج حتى يمكن لعمتي استقبالهما . وأثارت المعركة عمتي فمرت بهما داخل المنزل بكبرياء شديد ولم تهتم بوجودهما حتى اعلنت دخولهما جانيت . وقلت مرتعدا : هل اذهب ياعمتي ؟ . قالت عمتي "لا ياسيدي . بالتأكيد لا . ودفعتني الى ركن بجوارها . ورأيت منه مستر ومس مردستون يدخلان الحجرة . وقالت عمتي : أواه ! انني لم أدرك بادئ الامر من كنت أعارض . ولكني لا أسمح لأي انسان ان يركب فوق هذه النجيلة . ولا استثناء في هذا . ولا أسمح لاي شخص يفعل هذا . قالت مس مردستون: ان تعليماتك محرجة للغرباء . قالت عمتي : هل هي كذلك ؟ وخشى مستر مردستون من تجدد العداء وبدأ التعارف: مس مردستون .

قالت عمتي بنظرة حادة : عفوك أرجوك . انت المدعو مستر مردستون الذي تزوج ارملة ابن اخي المرحوم ديفيد كوبرفيلد من مقاطعة بلندرستون روكري ؟ — ولماذا روكري انني لا أدري . فقال مستر مردستون: "انني هو" . وقالت عمتي وهي تدق الجرس: "ياجانيت — تحياتي لمستر ديك وأرجوه ان ينزل .

وحتى وصل جلست عمتي منتصبة تماما ومتصلبة وتقطب جبينها وهي تنظر الى الحائط . ولما وصل قامت بتعريفه بهما . وقالت عمتي للتأكيد لهما وفي نفس الوقت لتحذير مستر ديك الذي كان يقضم اصبعه ويبدو عليه البلاهه : ان مستر ديك صديق حميم واعتمد على احكامه" . فاخرج مستر ديك اصبعه من فمه عند هذه الملاحظة ووقف بين الجمع وتعبير الانتباه والحدق على وجهه . واحنت عمتي رأسها لمستر مردستون الذي استطرد قائلا : "عند استلامي خطابك يامس ترتوود ، اعتبرت هذا عدلا بالنسبه لي واحتراما اكثر لك ان اجئ للرد عليه بنفسي بدلا من الرد بخطاب . ان هذا الولد التعس الذي هرب من اصدقائه وعمله ، كان سببا لمتاعب منزليه خلال حية المرحومة زوجتي العزيزه ومنذ ذلك الوقت حتى الان . ان له روح متمردة عنيدة . وحاولت انا وشقيقتي اصلاح رذائله ولكن دون جدوى .

وقالت مس مردستون: "انه ليس من الضروري بالنسبه لي التصديق على اى شئ يقوله أخي ولكني ارجو ابداء ملاحظة وهي أنني اعتقد بانه أسوأ جميع الصبيه في العالم . قالت عمتي : ها ! حسنا ياسيدي؟ " واستأنف مستر مردستون قائلا — وقد أصبح وجهه داكنا اكثر كلما كان يرمق عمتي وترمقه عن كثب : ان لي رأيي الشخصي في أفضل السبل في تنشئته . انه يكفي انني وضعت هذا الصبي في رعاية صديق لي ، في عمل محترم وهو لا يرضيه ، ويهرب منه ، ويجوب الريف شديدا ويأتي الى هنا في ملابس مهلهلة ليتوسل اليك يامس ترتوود . واني اود ان اوضح لك العواقب في معاونته على هذا الالتجاء .

قالت عمتي : اما عن العمل المحترم أولا فهل اذا كان هذا ابنك الوحيد كنت تلحقه بنفس العمل كما افترض؟ واذا كانت والدة الطفل المسكين موجودة كان سيذهب الى هذا العمل المحترم؟ . وقال مستر مردستون وهو يميل برأسه : انني اعتقد ان كلا لا تمارض في امر أرى انا وشقيقتي جين مردستون انه الافضل . وأيدت مس مردستون هذا بهمهمة . فقالت عمتي : آه يا لتعاسة الطفل .

وكان مستر ديك يصدر صوتا بنقود طوال هذا الوقت وقد ارتفع الصوت اكثر حتى ان عمتي شعرت انه من الضروري ان توقفه قبل ان تقول : "ان المنزل والحديقة ما يسميان روكري ألم ينته أمرهما من حيث الملكيه بالنسبه للصبي ؟ — ان المرحومة زوجتي ... وردت عمتي وهي تهز رأسها تجاهه : "ان المرحومة زوجتك ياسيدي كانت في غاية التعاسة وطفلة سيئه الحظ . هكذا كانت . والان مالديك لكي تقوله بعدئذ ؟ فرد : "فقط هو هذا يامس ترتوود . ولقد جئت هنا لاخذ ديفيد معي لاعامله بما اعتقد انه الصواب . ولست على استعداد لاعطاء وعد أو عهد لاي انسان . ربما لديك فكرة ما يامس ترتوود لايوائه بعد هربه لشكواه لك . وانني يجب ان أحذرك ، اذا تدخلت بينه وبيني فستتولين امره يامس ترتوود الى الابد . اني لا أتكلم باستخفاف ولا احب ان يكلمني احد بهذه الطريقه . فقد جئت هنا لاول وآخر مرة لاخذه معي . فهل هو على استعداد للمجئ ؟ واذا لم يكن مستعدا فان بابي سيغلق في وجهه ، وعندئذ لامفر من ان تنتحي له بابك . "

فقالت عمتي : "وما رأى الصبي ؟ هل انت على استعداد للذهاب ياديفيد ؟ فاجبت بانني لا أرغب ورجوتها الا تدعني اذهب . وقلت ان لمستر مردستون والمس مردستون لايحبانني ولا يعطفان علي . وتسببا في تعاسة والدتي التي كانت تحبني حبا جما ، وأنا اعرف هذا جيدا كما تعرف بيجوتي . وقلت انني كنت اكثر تعاسة مما يستطيع أي انسان ان يتصور عندما كنت صغيرا جدا . ورجوت واستعطفت عمتي ان تحميني من أجل والدي .

فقالت عمتي : " ماذا افعل مع هذا الصبي يامستر ديك؟ وفكر مستر ديك وتردد وأشرق وقال : "فلنأخذ مقاسه لتفصيل حلة له في الحال . فقالت عمتي بانتصار : " أعطني يدك ، فان ادراكك له قيمة كبيرة " . وهزت يده بحماس شديد وجذبتني نحوها وقالت لمستر مردستون : " يمكنك أن تذهب عندما تريد ، ساجرب حظي مع هذا الفتى . وإذا كان كما تقول فعلى الاقل سافعل معه كما فعلت . ولكنني لا أصدق كلمة مما قلت . أتعتقد أنني لا أعرف اى نوع من الحياة كنت يجب ان توفرها لهذا الطفل البائس المسكين ولذى أسأت توجيهه . وهل تعتقد انني لا أعلم أي يوم تعس كان عندما تعرفت بالمخلوقة المسكينه الرقيقه في بادئ الامر ، وانت تحملق فيها . انني مضطرة للقول بانك لاتستطيع ان تخيف اوزه " .

فقالت مس مردستون : "لم استمع لشئ لطيف مثل هذا من قبل . واستمرت عمتي قائلة : اظن انني لا أستطيع فهمك كما لو كنت قد رأيتك من قبل . آه فليباركنا الله . لقد كنت ناعما ورقيقا في بادئ الامر . وكنت تعبدها . لقد تظاهر مستر مردستون بالعطف على هذا الصبي وانه من المفروض ان يكون أبا آخر له ، وكان الجميع سيحيون في جنة . يا للسخافة . "

فقالت مس مردستون متعجبه : " لم استمع الى شخص مثل هذه في حياتي . وقالت عمتي : "وعندما تملكت المسكينه البلهاء بدأت تدربها أليس كذلك؟ وحطمتها كطائر داخل قفص ودربتها على أن تردد نغماتك؟ قالت مس مردستون : "ان هذا اما اهانة او تكدير " . قالت هذا وهي في أشد حالات المحنه حيث انها لم تستطع ان تجعل عمتي توجه الحديث اليها .

ولم تلتفت عمتي الى مقاطعتها بالمرة ، ووجهت الحديث الى مستر مردستون كما لم يحدث شيئا : يامستر مردستون — وهزت اصبعها تجاهه — لقد كنت طاغيه بالنسبه لهذه الطفله البسيطه وحطمت قلبها — لقد كانت لطيفه وكنت اعرف هذا منذ سنوات قبل ان تراها — وكان واضحا انها ستتزوج شخصا ما في وقت او آخر ولكنني كنت اود الا يكون سيئا كما اتضح الامر فيما بعد " .

ووقف بجوار الباب طوال هذا الوقت يراقبها بابتسامة تعلو وجهه ، رغم انه قطب جبينه ، ولاحظت انه على الرغم من ابتسامته الا انه قد شحب لونه وبدى كما لو كان يتنفس بسرعة ويلهث .

وقالت عمتي : يوما طيبا ياسيدى وداعا ، وانت أيضا وداعا ياسيدتي " . والتفتت فجأة الى شقيقته . وأردفت " لو رأيتك تركبين حمارا فوق النجيلة الخاصة بي مرة ثانية فتأكدى انى ساطيح بقبعتك وأطأها بقدمي " .

ان الامر كان يتطلب رساما من نوع غير عادى ليصور وجه عمتي وقد أطلقت لنفسها العنان ، ووجه مس مردستون وهي تستمع اليها . وكانت طريقة الحديث ليس اقل من الامر حماسة حتى أن مس مردستون دون أن تتفوه برد وضعت ذراعها في ذراع اخيها ، وسارت في كبرياء خارج الكوخ ، وظلت عمتي تنظر من النافذه اليهما ، وعلى تمام الاستعداد — دون شك — ان تنفذ تهديدها لو عاود الحمار الظهور . ولم يحاول أحد في طريقه تحديها ، ومع هذا فقد ظهرت آثار الارتياح على وجهها ، حتى انني تجاسرت وقبلتها وشكرتها من كل قلبي وذراعي تطوق عنقها . ثم صافحت مستر ديك الذى صافحني عدة مرات وضج بالضحك عدة مرات لما انتهى اليه الامر .

وقالت عمتي : " يمكن ان تعتبر نفسك وصيا على هذا الفتى معي يامستر ديك " . فقال مستر ديك : " سوف يسرني هذا ان اكون وصيا على نجل ديفيد . فقالت عمتي : " حسنا . اتفقنا . لقد كنت افكر يامستر ديك ان اسميه تروتوود " . فقال مستر ديك : " بالتأكيد بالتأكيد . سمه ترتوود ابن ديفيد تروتوود " . فردت عمتي : " يقصد ترتوود كوبرفيلد " . فقال مستر ديك محرجا : بالتأكيد نعم . ترتوود كوبرفيلد " وتقبلت عمتي الفكرة بشغف حتى انها كتبت بعض الملابس الجاهزة التي اشترتها لي بخط يدها ترتوود كوبرفيلد بحبر ثابت وذلك قبل ان أرتديها .

وهكذا بدأت حياتي الجديدة باسم جديد وكل شئ حولي جديد . والان وقد انتهت حالة الشك شعرت لمدى ايام عديدة كما لو كنت في حلم . وكان الشيئان الواضحان في ذهني هما : انه قد تباعد مابيني وبين حياة بلندرستون الماضيه — وبيدو ان هذا التباعد كان قصيرا . وانه قد اسدل ستار على الحياة بيني وبين شركة مردستون وجرميني . ولم يرفع أحد الستار منذئذ . وربما رفعت الستار وان اقصر الان لمدى لحظه بيد متراخية وأسدلته مسرورا . ان ذكرى هذه الحياه مفعمة بألم كبير حتى انه لم تعد لدى الشجاعة لكي أتأمل ما المدى الذى قدر لي أن أحيا هذه الحياة . وكل ما أعرفه أنها كانت موجودة وتوقفت وانني اسطرها ثم اتركها .

وسرعان ما أصبحت أنا ومستر ديك افضل صديقين ، وكثيرا ما كنا نخرج سويا لنطلق في الهواء طيارة ورق كبيرة . واعتقد ان من المناظر المؤثرة التي تعودت عليها هو رؤيته حين ترتفع الطائرة في الهواء فينظر اليها في السماء ويشعر بها وهو يجذبها ويرخيها بيده . وكان لايبدو هادئا الا عندما يفعل ذلك . وبينما كنت أجلس بجواره ذات مساء على منحدر أخضر ورأيته وهو يرقب الطائرة في الهواء الساكن تخيلت بعقلي الصغير ان ذلك يرفع عنه اضطراب عقله .

وبينما كانت صداقتي لمستر ديك تتقدم ، فانني لم أتخاذل في هذا من أجل صداقته لعمتي وكانت تعاملني برفق ، وفي مدى اسابيع قليلة اختصرت اسمي الجديد من ترتوود الى " تروت " وشجعتني ان يكون لدى الامل اذا ما استمريت كما بدأت فانني ساكون على قدم المساواة مع شقيقتي بتسي ترتوود . وذات مساء قالت عمتي : تروت — يجب الا ننسى تعليمك . هل ترغب في الذهاب الى مدرسه في كانتربرى ؟ فأجبتها انني أود هذا كثيرا لانها قريبة منا . قالت عمتي : حسنا — هل تحب ان تذهب غدا ؟ قالت عمتي : " حسنا — هل تحب ان تذهب غدا ؟ ولما كنت اعرف عمتي في ذلك الوقت ، فانني لم أدهش من اقتراحها المفاجئ وقلت : " نعم " . وقالت عمتي مرة أخرى : " حسنا — أجرى المهر والعربه غدا صباحا في الساعة العاشرة ياجانيت ، واحزمي ملابس مستر ترتوود الليله .

وفي الصباح ركبنا الى كانتربرى حيث توقفنا أخيرا أمام منزل قديم يطل على الطريق ، وكانت نوافذه طويله بارزة ويظهر عليه رؤوس محفورة وبارزة أيضا لدرجة انه خيل لي أن المنزل يميل الى الامام ليرى من يمر أمامه على الرصيف أسفله . وكان لايضارع في نظافته . وكانت المطرقة على الباب تلمع كالنجم . وكانت السلمتان بيضاوتان كما لو كانتا مغطاة بالتيل الابيض وكل الزوايا والاركان والنقوش والواح الزجاج والنوافذ الصغيرة رغم قدمها الا انها كانت صافية كالثلوج التي تتساقط على التلال .

وعند ما وقفت العربة على الباب رأيت وجها يطل من الشباك الارضي ثم اختفى بسرعة ، وفتح الباب الصغير وخرج هذا الوجه الذى يشبه وجه الموتى . وكان صاحبه شخصا احمر الشعر ، شابا يبلغ الخامسة عشر ولكنه كان يبدو أكبر من سنه . وكانت عيناه بلا رموش وكان بلا حواجب وعيناه بنية مشرجة بحمرة لدرجة انني اتذكر كيف كان ينام . وكانت كتفاه عاليتين وكان بارز العظام ، ويرتدى لباسا أسود وياقة عاليه ، كما كانت عظام يده ظاهرة مما لفت نظرى وهو يقف بجوار رأس المهر ويحك ذقنه بها وينظر الينا ونحن فى العربة .

وقالت عمتى : "هل مستر ويكفيلد بالمنزل ، يايورايا هيب ؟" . فقال يورايا هيب : ان مستر ويكفيلد بالمنزل ياسيدتى وأرجو ان تتفضلى بالدخول من هنا " . وأشار بيده الطويلة الى الغرفة المقصودة . وفتح الباب فى الطرف الاخر من الحجرة ودخل رجل ابيض الشعر تماما على الرغم من سواد حاجبيه ووجهه لطيف وكان مظهره يدل على الثراء وانه يشرب النبيذ . وكان نظيف الملبس ويرتدى سترة زرقاء وصديريا مخططا وسروالا .

قالت عمتى : "هذا ابن أخى " . فقال مستر ويكفيلد : "لم أكن اعرف ان لديك ابن أخ . وبادرت عمتى قائلة : انه ابن اخى . فقال مستر ويكفيلد : "لم أكن أعلم ان لديك ابن لابن اخيك" . فقالت عمتى : "لقد تبنيته ، ولقد أحضرته الى هنا لالحقه بمدرسة يعامل فيها بطريقة حسنة ويتعلم جيدا . والان اخبرنى اين هى هذه المدرسة وكل مايتعلق بها . فقال مستر ويكفيلد مبكرا : "ان أحسن مدرسة لدينا لاتستطيع ان يلتحق ابن اخيك بها بالقسم الداخلى . اتركيه هنا بالنسبه للوقت الحاضر . فهو شخص هادئ . وسوف لا يزعجنى بالمرة . وسوف يكون لدى فسحه من الوقت تسمح ان اجد له مكانا أفضل . فقالت عمتى : اننى أشكرك جدا ويسعدنى ان اتركه هنا . وقال مستر ويكفيلد : "اذن تعالى لترى مديرة منزلى الصغيرة .

وتبعا لهذا صعدنا سلما رائعا قديما الى غرفة استقبال يضيئها ثلاث نوافذ او اربعه كنت قد رأيتها من الطريق . وفتح مستر وكفيلد بابا فى ركن من الحائط وخرجت فتاة فى مثل سنى بسرعة وقبلته . وعلى الرغم من اشراق وجهها وسعادته ، كان فيه هدوء وروح هادئه لم ولن أنساها ابدا .

كانت هذه هى مديرة منزله الصغيرة وابنته "اجنس" كما قال مستر ويكفيلد واقترح على عمتى ان تصعد لاعلى لترى غرفتى . وذهبنا جميعا وهى فى مقدمتنا . وكانت غرفة عظيمة عتيقه . وأنا لا أستطع ان اتذكر وأنا صغير اننى قد رأيت زجاجا ملونا فى كنيسه . ولكن عند ما استدارت فى الضوء الذى يشع على السلم لتنتظرنا فكرت فى هذا الشباك ، وارتبط فى ذهنى باشراقها الهادئ بعدئذ . وسعدت عمتى كما سعدت بتلك الترتيبات لى . وقالت لى اننى سوف لا احتاج لشئ ، واعطتنى اعذب الكلام وأفضل النصيحه .

وقالت عمتى فى النهايه : " ياتروت كن مصدر ثقه لنفسك ولى ولمستر ديك ، وليكن الله معك . لا تكن وضيعا فى أى شئ ولا كاذبا ولا قاسيا . وتجنب هذه الرذائل الثلاث ياتروت واعلم انك ستكون دائما موضع الـ . فوعدتها صادقا باننى سوف لا أسئ استغلال عطفها أو انسى كرمها . وقالت عمتى : "ان المهر بالباب وسأرحل وامكث انت هنا . ثم احتضنتنى بسرعة وخرجت من الغرفه وأغلقت الباب خلفها . وفى الساعة الخامسة وهو الموعد المحدد لعشاء مستر ويكفيلد . وبعد أن تناولنا العشاء صعدنا لاعلى فى غرفة الاستقبال مرة ثانيه حيث وضعت اجنس لوالدها فى أحد الاركان اكوابا ووعاءا من النبيذ . وجلس هناك يحتسى النبيذ ، وشرب قدرا كبيرا منه لمدى ساعتين بينما كانت تعزف اجنس البيانو وتعمل وتتحدث معه ومعى .

وكان مرحا معنا معظم الوقت ، ولكنه أحيانا عندما تستقر عيناه عليها يخيم عليه التفكير العميق ويصمت . وكانت تلاحظ هى ذلك دائما وبسرعه تنبهه بسؤال أو لمحة عطف . فيخرج من تفكيره ويشرب قدرا من النبيذ مرة اخرى . وكانت اجنس تقوم بعمل الشاى ، ويمر الوقت بعد ذلك كما هو الحال بعد العشاء حتى تذهب للنوم . واذهب أنا ايضا للفراش . ولكن أثناء الليل كنت اذهب الى الباب ، وأسير قليلا فى الطريق حتى انظر الى المنازل العتيقه والكنيسه الرمادية . وعند ما أعود أرى يوريا يغلق المكتب ، واما كنت أشعر بالود والصداقه نحو كل شخص لذا دخلت عنده وتحدثت اليه ، وعند الافتراق مددت له يدى . . . ولكن يالها من يد باردة او ياله من رعب عند ملمسها ، وقد حككت يدى بعد ذلك لادفئها ، ولازيل الشعور الذى احسست به . لقد كانت يدا غير مريحه حتى اننى عند ما ذهبت لحجرتى علق اثر برودتها بذاكرتى .

وبعد الافطار فى اليوم التالى بدأت حياة الدراسة مرة أخرى • وذهبت لحجرة الدراسة وتحدث مع ناظر المدرسة الجديد دكتور سترونج • وكان يبدو وكأنه يعلوه الصدأ مثل الابواب الحديديه خارج المنزل ، وكان صلبا كالحجر الموضوع حول الفناء •

وكانت حجرة الدراسة عبارة عن صالة جميله فسيحه فى أهدأ جانب من المنزل ، وتشرف على حديقه منعزلة خاصة بالدكتور حيث كان الخوخ ناضجا • وكان يدرس حوالى خمسة وعشرون طالبا فى كتبهم عندما دخلنا ، وهبوا واقفين لالقاء تحية الصباح للدكتور وظلوا واقفين عندما رأونى ومستر ويكفيلد • وقال الدكتور: "زميل جديد أيها السادة • انه ترتوود كوبرفيلد ، وخرج آدمز رائد الطلبه من مكانه ورحب بى • وكان لطيفا وأرشدنى الى مكانى ، وقدمنى للاساتذة بطريقة لطيفه أراحتنى •

ويبدو لى انه قد مضت مدة طويلة منذ تركت أمثال هؤلاء الصبيه ثم شعرت بأننى غريب ذلك الشعور الذى لم أشعر به طوال حياتى ولكننى احسست بتأثير غريب فى منزل مستر ويكفيلد العتيق حتى عندما كنت ادق الباب ، وكتبى الجديدة تحت ذراعى شعرت بأن قلقى بدأ يتلاشى وكانت اجنسى بحجرة الاستقبال تنتظر والدها الذى تعطل بواسطة شخص ما فى مكتبه • وتلقتنى بابتسامتها اللطيفه وسألتنى هل احببت المدرسة • وقلت اننى آمل ان أحبها كثيرا ، ولكنى كنت أشعر بأنى غريب عليها اول الامر • وقالت أجنسى : "اهلا ، هذا أبى ! "

وأشرق وجهها الهادئ بالسرور عندما ذهبت لتلقاه ودخلا متشابكى الايادى • وحيانى بحرارة واخبرنى بأننى سأكون سعيدا عند دكتور سترونج وهو من ألطف الناس • وبعد أن تركنا اجنسى لم أكن متعبا ، ورأيت ضوءا فى المكتب الصغير ، وشعرت فى الحال اننى منجذب تجاه لوريا هيب ، وكان معجبا بى ، ودخلت عنده • ووجدته يقرأ كتابا ضخما بانتباه عظيم ، حتى انى سبابته كانت تتابع كل سطر وهو يقرأ ، وكانت تؤشر ببطء على الصفحة وكأنها حية كما كنت اعتقد • وقلت أنا : "لقد تأخرت فى العمل الليله يا يورايا • " فقال يوريا : "نعم ياسيد كوبرفيلد " •

وعندما جلست على المقعد المواجه لاتحدث اليه لاحظت انه لا يبتسم وانما كان فقط يفغر فاه واسعا • وقال يوريا : "اننى لا أؤدى عمل المكتب ياسيد كوبرفيلد ، انما انمى معلوماتى القانونية • فقلت اعتقد عندما تنتهى فترة الدراسة ستصبح محاميا " • فردت يوريا : "باذن الله ياسيد كوبرفيلد " • وقلت "ربما تصبح شريكا لمستر ويكفيلد يوما ما — وسيصبح المكتب باسم ويكفيلد وهيب ، أو هيب سابقا ويكفيلد •

ورد يوريا هازا رأسه: "لا ياسيد كوبرفيلد ••• اننى شخص متواضع جدا فى هذه الناحية • ان مستر ويكفيلد رجل ممتاز ياسيد كوبرفيلد • فأجبت اننى متأكد من انه كذلك ، ولكنى لم أعرفه الا منذ زمن قريب ، رغم انه صديق لعمتى • فقال: "حقا ياسيد كوبرفيلد ، ان عمتك سيدة لطيفه • " وكان له طريقه يتلوى بها عندما يعبر عن مشاعره ، وكانت فى منتهى القبح • انها سيده لطيفه ومعجبه بمس أجنسى ياسيد كوبرفيلد كما أعتقد ؟ واعتقد انك أيضا كذلك ياسيد كوبرفيلد ؟ " • ولوى نفسه فى غمرة حماسه على مقعده ، وخرج منه وابتعد للعودة لمنزله • وقال : "ان والدتى تنتظرنى وبدأت تشعر بالقلق لانه بالرغم من اننا متواضعين جدا ، ياسيد كوبرفيلد فان كلانا متعلق بالاخر واذا اتيت لزيارتنا فى أى يوم بعد الظهر ، وتناولت قدحا من الشاى فى منزلنا المتواضع ، فان والدتى سوف تفخر بصحبتك كما أفخر انا بك • فقلت: "انه يسعدنى أن اذهب " •

وكانت مدرسة الدكتور سترونج عظيمة ، وهى تختلف عن مدرسة مستر كريكل كاختلاف الخير عن الشر • وكان طلبة السنوات النهائيه يقيمون بمنزل الدكتور • وعرفت عن طريقهم بعضا من امور الدكتور الخاصة • وان طريقته فى أصلها تعزى الى انهماكه فى البحث عن اصول يونانيه ، حيث كنت لجهلى وبراءتى اعتقد انه يبحث عن أصول نباتيه لانه كان ينظر دائما الى الارض عندما يسير حتى عرفت انها لكلمات حيث كان يزمع تأليف قاموس • وكان آدمز رائدنا يحسب مقدار مايستغرقه القاموس بالسرعة التى يسير بها الدكتور • فقرر انه سينتهى بعد ١٦٤٩ سنه •

ولكن الدكتور كان مبجلا من المدرسة كلها ، وربما كانت مدرسة سيئه لو انه كان شيئا آخر ، لانه كان اكثر الناس عطفا •

(الفصل السابع)

كنت ارى مستر ديك كل يوم أربعاء اسبوعا بعد أسبوع عندما كان يصل فى عربة اجرة ظهرا • ويبقى حتى صباح اليوم التالى • وكانت ايام الاربعاء أسعد الايام فى حياة مستر ديك • وسرعان ما أصبح معروفا ، وكان منفردا بأشياء صغيرة كثيرة ، فكان يقطع البرتقال بطريقه لم يتوقعها أحد • أو يصنع قاربا من أى شئ • ويحول العظام الى قطع الشطرنج ، أو يقوم بعمل عربات رومانيه من الورق المقوى واقفاص للطيور من الاسلاك القديمة وهكذا • وكان امهر الجميع فى عمل أدوات من الخيوط والقش ، حتى اننا اقتنعنا بانه ماهر ويمكن القيام بعمل أى شئ يدويا •

وسرعان ما أصبح معروفا ليس لدينا فقط ، فقد سألنى عنه مستر سترونج بعد عدة اسابيع من زيارته • وأخبرته بما أخبرتنى عنه عمتى ، حتى ان الدكتور فرح كثيرا حتى انه سأل عن موعد زيارته التاليه لتقدمه اليه • وتحدث مستر ديك اليه وهو يرتدى قبعته ، وعندما توطدت صداقتهما ، كان يسيران معا فى الممر المجاور للفناء وهو الممر الخاص بالدكتور ، وأحيانا كان مستر ديك يرفع قبعته ليظهر احترامه للحكمه والمعرفة • ولم أدر كيف بدأ الدكتور يقرأ اجزاء من قاموسه فى المرات فربما كان يفضل فى البداية القراءة لنفسه او انها اصبحت عادة ، وكان يصغى باشراقه عن وجهه بفخر وسرور وقد اعتقد داخل نفسه ان القاموس أفضل كتاب فى العالم •

وكنت كلما افكر فيهما وهما يسيران بجوار نوافذ الفصول عندما كان يقرأ الدكتور وعلى شفتيه ابتسامه العريضه ، مخطرطا حديثا ، أو يحرك رأسه بطريقه خطيرة ، ومستر ديك يصغى ويجذبه الاهتمام ، ويشرد بذهنه عند الكلمات الصعبه — كنت عندئذ لاعتقد ان هذا الموقف من الطف الاشياء التى قابلتها فى حياتى •

وقابلت يوريا يوما بالطريق ، وذكرنى بوعدى لتناول الشاى معه ومع والدته ، وأضاف وهو يتلوى "انا لم أتوقع ان تحتفظ بوعدك فنحن متواضعون جدا يامستر كوبرفيلد " • فقلت انى ساخبر مستر وكفيلد بهذا ، واذا وافق ولا أشك فى هذا ، ساحضر بكل سرور • وفى الساعه السادسه من مساء ذلك اليوم اخبرت يوريا انى على استعداد (للزيارة) • • • • ودخلنا حجرة صغيره من طراز عتيق ، وقد دخلنا اليها من الطريق مباشرة ووجدنا مسز هيب ، وكانت صورة باهته من يوريا والاختلاف الوحيد أنها اقصر منه • واستقبلتنى بتواضع جم ، واعتذرت لى لتقبيل ابنها ، واردفت قائله انهما لتواضعهما فان شعورهما بهدوطبيعيا ، وأنا أتأمل الا يسئ هذا لاحد •

وقالت مسز هيب وهى تقوم بعمل الشاى "ان هذا اليوم سنذكره يايوريا بالتأكيد ، عندما زارنا مستر كوبرفيلد " • ووجدت ان مسز هيب اقتربت منى بالتدريج وان يوريا جلس فى مواجهتى ، وكانا يلحان على فى تناول أفضل ما كان على المائدة • وفى الحال بدأ الحديث عن العمات ، وحدثتهم عن عمتى وبدأت مسز هيب الحديث عن ازواج الامهات وحدثتهما عن زوج والدتى ولكنى توقفت لان عمتى نصحتنى الا اتكلم فى هذا الموضوع • ولكن لم يكن لى الاختيار مع يوريا او مسز هيب ، فقد جعلانى أقول ما يريدان سماعه ومالم اكن أرغب فى قوله • ولقد بدأت أشعر بالخجل ، فقد كنت ككرة يتلقفها كل منهما ليقذفها للاخر ، حتى اننى لم أدر من أمر نفسى شيئا ، واصبحت شارد اللب • كما انت فى حيرة مابين سلوك مستر وكفيلد الممتاز وبين اعجابى باجنس وتحدثت فى عمل مستر وكفيلد ومصادر دخله ، وحياتنا المنزليه بعد تناول الطعام وكذا عن النبيذ الذى يحتسيه ولماذا يحتسيه والعطف الذى كان يتسم به فى كل شئ • ووجدت اننى افصح بشئ ليس من شأنى الافصاح به •

وبدأت أشعر بالقلق وتمنيت انهاء الزيارة ، عندما مر شخص فى الشارع بالباب المفتوح — وكان مفتوحا لتهوية الغرفه الدافئة — ثم عاد ونظر الى الداخل • واخيرا دخل وهو يصيح متعجبا بصوت مرتفع: "كوبرفيلد ! أهذا ممكن ؟ • لقد كان مستر ميكوبر بمنظاره وعصاه وياقة قميصه وهيئته الانيقه وحشرجة صوته وهو كل مايتصف به •

قال مستر ميكوبر وهو يمد يده الى : عزيزى كوبرفيلد ان هذه المقابله غير متوقعه وغير عادية • فقد كنت اسير بالطريق افكر احتمال حدوث تغيير ، اذا بى أجد أمامى اعز صديق • كيف حالك ياعزيزى كوبرفيلد ؟

ولم أجد في هذه الظروف بدا من أن اقدمه ليوريا ووالدته • وبطبيعة الحال مستر ميكوبر • بطريقة مهذبه • وقال : "ان أي صديق لصديقي كوبرفيلد له التزام قبلي " • فقالت مسز هيب : اننا متواضعين انا وابني حتى لايمكن ان نكون صديقين لمستر كوبرفيلد • وبعد تعطف تناول الشاي معنا يمكن ان نشكره على هذه الصحبه ، ونشكرك أيضا لما أبديته من ملاحظة • ورد مستر ميكوبر قائلا : " اننى ياسيدتي في غاية الامتنان لك •

وقلت محاولا ابعاد مستر ميكوبر : "هل سنذهب لنرى مسز ميكوبر ياسيدي " ؟ • فنهض واقفا وأجاب : "لو تفضلت بهذا يا كوبرفيلد • وودع يورايا ووالدته قائلا "خادمكم " • وخرج معي بهيئته هذه • وهو يحدث صوتا بحذائه على الرصيف ويترنم بلحن ونحن نسير •

كان مستر ميكوبر يسكن في فندق صغير • وكان يشغل حجرة صغيرة فيه • ودهشت مسز ميكوبر ولكنها سعدت للغايه لرؤيتي • وسعدت أنا أيضا لرؤيتها • وبعد تحيات ودية من الجانبين جلست على الاريكه الصغيرة بجوارها • قلت لمسز ميكوبر عندما خرج مستر ميكوبر : "لقد ظننت انكم في بليموث ياسيدتي " • فأجابت "ياعزيزي كوبرفيلد ، لقد ذهبنا الى بليموث • فقلت : "لتكونوا هناك في الوقت المناسب " • فقالت مسز ميكوبر : " تماما • لنكون في الوقت المناسب • ولكن الحقيقه ان الموهبه لا يرغبون فيها بالجمرك • قلت متعجبا : "يالهي ! " • وقالت : "ومنذ ذلك الوقت استشرت فروعا أخرى في عائلتي عن الطريق المناسب لمستر ميكوبر لان لابد له من طريق يسلكه • انه من الواضح ان عائلته مكونه من سته اشخاص عدا الخادمة لا يمكنهم ان يقتاتوا على الهواء • قلت : "بالتأكيد ياسيدتي " • واخبروه عندما استفسر عن عطي انه ربما يجد منفذا لرجل في مثل موهبته في ميداوي في تجارة الفحم • فجئنا ياسيد كوبرفيلد لنعاين مكان العمل بميداوي • لانني سوف لا أهجر مستر ميكوبر " • وتمتمت باعجابي بها وتقديره • وقالت مسز ميكوبر : لقد جئنا هنا منذ ثلاثة أيام ولم يبد في الافق شيئا " • وعندما استأذنت في الانصراف ، شددا على بضرورة تناول العشاء معهما • ولم أستطع الرفض •

وعندما كنت أطل من النافذه تلك الليله ، شعرت بقلق اذ رأيت مستر ميكوبر ويورايا هيب يمران متشابكي الذراعين • ولم استرح لهذا وفكرت في هذا الامر كثيرا فيما بعد • وكنت اشك فيما اذا كنت سعيدا او آسفا ، عندما انتهت أيام الدراسة ، وحان الوقت لترك مدرسة الدكتور سترونج • وتناقشت كثيرا مع عمتي عن العمل الذى سأكرس حياتي من اجله • وقالت لي عمتي صباح احد الايام في موسم اعياد الميلاد عندما تركت المدرسة : "تروث ما رأيك ياعزيزي ، لقد فكرت في أن بعض التغيير قد يفيدك ويساعدك على أن تعرف ماتريد وتصدر حكما هادئا • ولهذا تستطيع ان تقوم برحله قصيرة الان مثلا وتزور تلك المرأة ذات الاسم الفظيع " • قالت وهي تحك انفها لانها لاتستطيع ان تغفر لبيجوتي تسميتها بهذا الاسم •

— "ان هذا أحب شئ لدى في الدنيا ياعمتي " •

— "انه من الطبيعي والمعقول ان تحب هذا • وانني مقتنعه بان كل ماتفعله ياتروت سيكون طبيعيا ومعقولا •

— آمل ذلك ياعمتي • فقالت عمتي : "ان اختك بتساي ترتوود كانت ستكون طبيعيه وعاقله وستكون انت جديرا بها • أليس كذلك ؟ • قلت : آمل ان اكون جديرا بك ياعمتي • وهذا يكفيني • واستأنفت عمتي قائله : " انك اريدك ياتروث ان تكون حازما • لك ارادتك الخاصه ، ذو عزم وعلى خلق • لا تتأثر بأي انسان او بأي شئ الا العقل الخير • هذا ما أريد ان تكون عليه • فقلت انني آمل ان اكون كما أوضحت • وقالت عمتي : "قد تبدأ الى حد ما في الاعتماد على نفسك ، وسأرسلك في هذه الرحلة بمفردك " •

•• وتنفيذا لمشروع عمتي زودتني بمبلغ لابأس به من المال في الحال ، وحقيبه للملابس ثم ودعتني بحرارة لاقوم برحلتي • وذهبت الى كانتربرى أولا لاودع اجنيس ومستر ويكفيلد (وحجرتي التي لم أعادرها بعد) والدكتور الطيب • وفرحت اجنيس كثيرا لرؤيتي واخبرتني ان المنزل لم يعد كما كان منذ أن تركته • وقالت اجنيس : "ياترتوود — هناك شيئا اود ان اسأل عنه ، اذ ربما لاتتاح فرصة اخرى الا بعد وقت طويل • وهو هل لاحظت اى تغيير طرأ على والدى ؟

وكنت قد لاحظت هذا التغيير ، وكثيرا ما تساءلت اذا كانت قد لاحظت أيضا • ولابد أن وجهي أظهر شيئا حيث انها اسدلت عيونها ورأيت الدموع في عينها •

قلت: أظن — هل اكون صريحا يا اجنس — فأني احبه كثيرا ؟
— اعتقد انه يخطأ كثيرا في حق نفسه بهذه العادة التي زاد اتهاله عليها منذ المرة الاولى التي جعـ... فيها الى هنا . انه حاد المزاج او يخيل الى كذلك ، ويده ترتعش ، وحديثه ليس واضحا ، وعينيه تبدو فيهما الغرابه . وقد لاحظت في هذه الاوقات ، وعندما يفيق لنفسه ، انه يستدعي في بعض الاعمال .
— قالت اجنس : يستدعيه يوريا .
— أجل ، ان شعوره بانه غير صالح ، أو عندما ينبهه أحد الى حالته تجعله قلقا ، وتصبح حالته أسوأ في اليوم التالي .

ووضعت يدها على شفتي برقه بينما كنت أتحدث ، وبعد برهة قابلت والدها عند باب الغرفة . وقد لاحظت على وجهها التأثر ولم يكن هناك من شيء يستطيع ان يوضح لي أكثر من هذا او يؤثر في أكثر من هذا .

وجاء الصباح وتركت المنزل . وافترقت عن اجنس ووالدها بطريقه فيها عدم مبالاة وأنا اتصنع الرجولة ، واتخذت مكاني بجوار السائق في العربة المسافرة الى لندن ، وعندما اقتربت من لندن ، ومررت بسالم هاوس كنت اتمنى تصريحا قانونيا ان انزل من العربه وانحيه واطلق الاولاد خارجا كالعصافير من القفص . ذهبنا الى فندق "جوارن كروس" في مقاطعة تشارنج كروس ودلني الجرسون الى المقهى . ولم أدر الا وشخص حسن المظهر ، يرتدي ملابسا تدل على رفعة الذوق ولكن باهمال وتذكرته جيدا ، ولكني عندما ذهبت تجاه الباب ، مررت بالشخص الذي كان قد دخل ورأيته بوضوح . وعرفته للتو وذهبت اليه بقلب يخفق بشدة وقلت : "ستيرفورث ، الا تريد التحدث الي ؟ "
وصاح فجأة : يا الهي ! انه كوبرفيلد الصغير .
— انني لم أشعر بمثل هذه السعادة أبدا ، ياعزيزي ستيرفورث اني سعيد جدا برؤياك . وقال وهو يصافحني بحرارة : واني لمبتهج لرؤياك أيضا . ماهذا أيها الصديق العزيز ، لا تتأثر بهذه الكيفيه . ومع هذا فقد كان سعيدا أيضا كما أعتقد ، عندما شعر ان مقابلتي له قد اسعدتني .
— كيف جئت الى هنا ياستيرفورث ؟ فرد : اني كما يدعونني من رجال اكسفورد . اي انني احضر الى هنا باستمرار وبصفه دورية . انني اقوم بمهمة . وتعيش والدتي على مقربة من المدينه ، ولكن الطرق في حالة قذرة ومكثت هنا الليله بدلا من الذهاب الى هناك .

وربت ستيرفورث على كتفي ، ودعاني للافطار معه في اليوم التالي في الساعه العاشرة ، وكانت دعوه افتخرت بها وسعدت أيضا بها . ولم اجد ستيرفورث ينتظرني بالمقهى ، ولكن في غرفه خاصة بها ستائر حمراء . وسجاده تركيه ، وحيث كانت النار متأججه ، ووضع طعام افطار شهي على المنضدة المغطاه بمفرش نظيف . وقال ستيرفورث عندما انفردنا : "والان ياكوبرفيلد ، أود أن استمع الى ماتقوم به ، والى اين ستذهب ، وأعرف كل شيء عنك . وابتهجت اذ وجدت انه لازال مهتما بي ، فأخبرته كيف ان عمتي اقترحت هذه الرحلة التي كنت سأقوم بها .

وقال ستيرفورث : "بما انك لست في عجلة من امرك ، فتعال معي الى منزلنا في "هاي جيت" وامكث يوما او يومين . انك ستسر لرؤية والدتي كما سيسرها أيضا ان تراك . وكنا عند الغسق عندما توقفت بنا العربة امام منزل مبني من الطوب في هاي جيت على قمة تل . وعندما وصلنا الى مدخل الباب كانت هناك سيدة وسيمة ، وحيت ستيرفورث بقولها : "اهلا بعزيزتي جيمس " وطوقته بذراعيها . وقدمني لتلك السيدة فقد كانت والدته . ورحبت بي كثيرا .

وكانت هناك سيدة اخرى ضئيله البنية سمراء وعلى قدر من الوسامة مما لفت نظري . ولها عيون داكنه وشعر أسود ، وكانت نحيله وعلى شفتها ندبة تجاه ذقنها . وقدرت عمرها بحوالي ثلاثين عاما ، واحسست بأنها ترغب في الزواج . وقدمت الى باسم مس "دارتل" ، ويدعوها ستيرفورث ووالدته باسم "روزا" . ووجدت انها تعيش هناك وكانت زميله لمسز ستيرفورث منذ أمد بعيد . وتحدثت الى مسز ستيرفورث ، عن عزمي على الذهاب الى سافولك ، وقلت انني سأسعد جدا لو جاء ستيرفورث معي الى هناك ، وقلت انني سأذهب لرؤية موبيتي وأسرة مستر بيجوتي ، وذكرته بالملاح الذي رآه بالمدرسه .

قال ستيرفورث . آه ! هذا الرجل الرث الذى كان يرتقب ابنه ، اليس كذلك ؟ . فاجبته لا بعد.؟ كان ابن اخيه وتبناه . وله ابنة اخ لطيفة للغاية وتبناها أيضا . وبالاختصار فان منزله (او القارب الذى يعيش فيه على اليابس) مملوء بأناس هم محل رعايته وسر تسر برؤية اهل المنزل . قال ستيرفورث: أحقا حسنا يجب ان اذهب ، وأرى مايجب عمله . انها رحلة تستحق الاهتمام وخاصة معك لترى مثل هؤلاء الناس سويا ولاشعر اننى واحد منهم .

وتدخلت مس دارتل وكانت تراقبنا وقالت: "احقا . أخبرنى . هل هم كذلك؟ " . قلت ستيرفورث: هل هم . . ؟ ! ماذا تقصدين ؟ ! " — هؤلاء الناس . هل هم حقا حيوانات وكائنات من نوع آخر ؟ اننى أود ان اعرف الكثير عنهم . قال ستيرفورث بعدم اكتراث: "ان هناك فارقا كبيرا بيننا وبينهم . وليسوا على قدر من الحساسيه مثلنا . ويجب ان يشكروا ذلك فانهم لخشونتهم لا يجرحون بسهولة . واعتقد أن ستيرفورث قال ذلك لتخرج مس دارتل من الموضوع وكنا نجلس نحن الاثنان امام المدفأة . وسألنى رأى فيها فقلت: "ماهذه الندبة التى على شفتيها ؟ . وخفض ستيرفورث رأسه وتوقف برهة .

ثم قال : فى الحقيقه لقد فعلت أنا هذا .

— بسبب حادث لعب فيه سوء الحظ دورا ؟

— لا ، لقد كنت صغيرا وأثارتنى ، فالقيت عليها مطرقة . لقد كنت ملاكا يبشر بالخير !

وتأسفت للغايه اذ اثرت موضوعا مؤلما وليس هناك جدوى من اثارته الان . وقال ستيرفورث: ولقد تركت الاثار فى وجهها منذ ذلك الحين ، وستحملها حتى وفاتها ، اذ توقيت بالرغم من اننى اعتقد انها لاتستقر فى أى مكان . وهى ابنه لاحد اعمام والدى وتوفيت والدتها . وتوفى والدها . وأحضرتها والدتى هنا لتكون معها عندما أصبحت والدتى أرملة . . هذه قصة مس روزا دارتل .

وقلت : لاشك انها تحبك كأخ . وتمتم ستيرفورث وهو ينظر الى المدفأة : لا . ولم أستطع الا ان انظر باهتمام الى تلك الندبه عندما ذهبنا لتناول الشاى . وكانت ابرز شئ فى وجهها ، وكانت عندما يشحب لونها يتغير لون الندبه ويصبح رماديا داكنا .

. . ولاعجب ان كانت مسز ستيرفورث مهتمه بابنها . . وكان يبدو لى انها لا تتحدث او تفكر فى شئ آخر سواه ، وعرضت على صورته وهو طفل ، ثم أخرى كانت كما التقيت به اول مرة كما كانت تحمل صورته الحالية على صدرها . وكانت تحتفظ بكل خطاباته لها فى صندوق بجوار المدفأة ، وقرأت لى بعضها ، وسعدت بالاستماع اليها أيضا لولا انه قاطعها واستحثها بلطف فى عدم الاستمرار .

وكان هناك خادم فى المنزل ، وكان كما علمت يلازم ستيرفورث ، وكان يقوم على خدمته وهو بالجامعه وكان نموذجا يدعو للاحترام . وكان اسمه "ليتمر" . وهو هادئ الطبع ، قوى الملاحظه وكنت تجده دائما بالقرب منك اذا أردت شيئا ، اما اذا كنت لاترغب فى شئ فانه لا يقترب منك . وكانت رأسه صغيرة عليها شعر قصير من الجانبين ، وكان رقيق الحديث ، كما كان عموما مقبولا فى كل شئ ويدعو للاحترام ، وكان من المستحيل أن تتوقع ان يقوم بشئ خطأ وقد اهتممت به ، لما تركه فى نفسى من أثر ولما حدث فيما بعد .

. . وانقضى الاسبوع بطريقة سارة للغاية . وحان يوم رحيلنا . . اننى لا أستطيع ان اتحمل وصف ما شعرت به عندما عدت الى الاماكن القديمة . ووصفت لستيرفورث وصفا دقيقا لمكان اقامة مستر باركس وهو الذى يقوم بتوصيل الناس الى يلندرستون وأى مكان آخر ، وبعد ذلك خرجت بمفردى .

وكانت الاشجار تبدو صغيره بالطبع . وها قد عادت الى الشوارع التى تعودنا السير فيها ونحن اطفال ولم أنس شيئا فيها كما لم يتغير شئ . فها قد وجدت محل مستر أومر . ودخلت وسألته: "هل مستر أومر هنا " . اننى اود أن اقابله لحظه اذا كان موجودا .

وسمعت صوتا يزفر الانفاس يتجه نحونا ، ثم جاء الينا مستر اومر وكان بدينا وقصيرا ولكنه لم يكن قد كبر كثيرا . وقال مستر اومر: "خادمك ياسيدى ؟ ما الذى أستطيع ان افعله من أجلك؟ وقلت وأنا أمد يدى "تستطيع ان تصافحنى يامستر اومر من فضلك . لقد كنت لطيفا معى فيما مضى فى وقت ربما لم أستطع ان اشعر منه بهذا فرد الرجل المسن "اهذا صحيح ؟ اننى سعيد بهذا ولكنى لا أذكر متى . هل انت متأكد منى ؟ "

ـ الا تذكر مجيئك الى العربه لتقابلني ثم ركوبنا سويا الى بلندرستون• فصلح مستر اومر بعد أن اخذ يسعل : يا الهي ! لا تقل هذا ، يا الله وكانت برفقتنا سيدة على ما اعتقد ؟ "
فردت : والدتي • وقال مستر اومر وهو يلمس الصديري الذى ارتديه باصبعه : "مؤكد وكان هناك طفل ايضا • وكانت هناك جماعتين • والتقت الجماعتان في بلندرستون ثم تابع كلامه قائلا : دعني أرى مس باركس زوجه الحمال أى بيجوتي شقيقة البحار ، أكان لبيجوتي علاقة باسرتك ؟ أكانت تخدمكم بالتأكيد ؟ ان لها قريب هناك وهى خياطه ذات ذوق رفيع• ولاتستطيع دوقه في الجلترا ان تمسها بسوء• وقلت موعما : "انها ليست اميلى الصغيرة قطعا " • فقال مستر اومر : "اسمها اميلى وهى صغيرة أيضا • ولكن لها وجه تحسدها عليه نساء المدينة" وقال وهو يمسح رأسه ويتنفس بصعوبة : "وانها لاتصادق أحدا هنا ، ويقولون عنها قصصا سخيفه فى انها تريد أن تصبح سيدة انيقة • وهى تستطيع ان ترتدى أفضل من الاخرين ما يزيد الامر سوءا • وعلاوة على هذا فهى تترك لنفسها حرية التصرف• ولاتعرف صالحها ، ولم تستطع التحكم فى نفسها أول الامر• وجاءت هنا بعد أن دربت ثلاث سنوات ، ومضى منهما سنتان واصبحت الان فتاه صالحة كما كانت•

وبعد أن استأذنت من مستر اومر ذهبت الى بيجوتي العزيزة • وكانت فى المطبخ تطهو طعام العشاء • ونظرت اليها بابتسامه ولكنها لم تبتسم لى رغم انى لم أكف عن الكتابة اليها ، ولكن كان قد مضى سبع سنوات منذ ان التقينا آخر مرة • وسألتها برقة : "هل مستر باركس بالمنزل ؟ " فقالت بيجوتي "انه بالمنزل ياسيدى • ولكنه يرقد فى الفراش مريضا بالروماتزم • وسألتها : " هل لا يذهب الى بلندرستون الان ؟ فأجابت : "عندما تتحسن صحته " • فقلت : "وهل تذهبين انت يامسز باركس" • لانى اريد أن اسأل عن منزل هناك يسمونه • • ماذا ؟ بروكرى على ما اعتقد " • فخطت الى الخلف ، ومدت يدها بطريقة فيها من الخوف بعض الشئ ، كما لو كانت تريد ابعادى•
ـ فصحت فيها "بيجوتي ! " • فصاحت "يابني العزيز• • • وانفجرت فى البكاء ، وقد احتضننا بعضنا بعضا • وقالت وهى تمسح عينها بمريلتها : "ان باركس سوف يسر كثيرا وهذا سيفيده• هل اذهب لاخبره بانك هنا ؟ هل تصعد الى أعلى لتراه ياعزيزى؟ واستقبلنى بحماس بالغ• ولم أستطع مصافحته بشده لمرضه • وعندما جلست بجوار الفراش ، قال انه سعيد كما لو كان يوصلنى بعربته الى بلندرستون ثانية • وقال مستر باركس: "ما الاسم الذى كتبته فى العربه ياسيدى؟ ولقد تكلمنا كثيرا فى هذا الموضوع ياسيدى ، أليس كذلك" • وقال مستر باركس: "لقد كنت ارغب فيها منذ وقت بعيد ياسيدى" • فقلت : "نعم من وقت بعيد " •

قال مستر باركس : " وانا غير آسف على ذلك• فهى افضل النساء ان كلارا بيجوتي (ك•ب باركس) تستحق كل الثناء وأكثر• وأعطيت فكرة لبيجوتي عن زيارة ستيرفورث ووصل بعد ذلك مباشرة • وقد استحوذ على اعجابها بفضل روحه المرحة ونظراته اللطيفه• ودخل حجرة مستر باركس كالهواء المنعش• ولم تكن هناك ضجة أو ازعاج فيما نعمله ، ولكن كل شئ كان يسير معه بهدوء وبطريقة طبيعية حتى انه يكاد يأسرنى عندما اتذكر ذلك الان• وكان بشخصيته اللطيفه ايضا عندما ذهبنا فى الساعة الثامنة الى قارب مستر بيجوتي • ولو أن أحدا قال لى ان هذا التصرف كان يتصنعه بسبب سعادة هذه اللحظات ليوحى للغير بصفات ليست فيه لكنت أرد بأن هذا محض هراء وكذب•

وكانت هناك ضجه فى الخارج ، وعندما دخلنا سمعنا صوت تصفيق وصاح مستر بيجوتي بصوت أجش، وفتح ذراعيه لاميلى الصغيرة ليحتضنها ، أما هام فقد ظهر على وجهه تعبير الاعجاب وهو يمسك اميلى من يدها ، كما لو كان يقدمها الى مستر بيجوتي ، اما هى فقد احمر وجهها ، وابتهجت لسرور مستر بيجوتي كما عبرت عن ذلك عيناها ، ولاحظت دخولنا فتوقفت وتركت هام ليتلقاها مستر بيجوتي بين ذراعيه•

ومحت هذه الصورة رهبه دخولنا ، ولم يعد لها من أثر• ووجدت نفسى فى وسط الاسرة عندما صاح هام : "السيد ديفي ! • • انه السيد ديفي " • وفى لحظه كنا جميعا نتصافح ونسأل بعضنا بعضا كيف حدث هذا اللقاء وكنا نتحدث جميعا فى وقت واحد " • وقال مستر بيجوتي وهو يجلس بجوار المدفأة : اذا لم تكن هذه اسعد ليلة فى حياتى ، فانني اكون انانيا بل وأكثر من هذا • وقال

لستيرفورث بعد أن خفض صوته: "هذه اميلى الصغيرة ياسيدى ، وقد احمر وجهها خجلا كما ترى الان. وثمه شخص كان يرعاها منذ ان غرق والدها ومنذ ان كانت طفله وشابه وامرأة. وأردف مستر بيجوتى وقد اعجب بها شاب امين. وفجأة فى أحد الامسيات كما لو كانت هذه الليله، عادت اميلى من عملها وكان معها هذا الشاب — وأمسك بيدها وصاح مبتهجا وقال: "هذه ستصبح زوجتى. وقالت هى بينما يمتزج فيها شعور الجرأة بالخجل ويمتزج الضحك بالبكاء "نعم ياعمى .. من فضلك". وصاح مستر بيجوتى: "من فضلى ايالهى كانى كنت سأفعل غير هذا".

قال ستيرفورث: "انك شخص خير تماما يامستر بيجوتى، وتستحق السعادة التى انت فيها الليلة. اننى اهنئك ياهام. وقد جمعنا ستيرفورث بفرح وسعادة فى حلقه لطيفه وتحدثنا دون تحفظ. فقد جعل مستر بيجوتى يغنى، او بالاحرى يزأر: "عندما الرياح، تهب، تهب..." اما هو فقد غنى اغنية احد البحـــارة بطريقه جميلة رقيقه حتى اننى تخيلت ان ريحا حقيقه تهب على المنزل، وتقطع السكون ونحن نستمع.

.. وانى لاتذكر ان الليل قد انتصف عندما استئذنا فى الانصراف. وتناول طعام العشاء من سمك مجفف وبسكويت، وأخرج ستيرفورث من جيبه زجاجه افرغناها فى جوفنا نحن الرجال. وانصرفنا بمرح. وعندما وقفوا متكتلين على الباب ليضيئوا لنا الطريق قدر ما استطاعوا، رأيت عيون اميلى الصغيرة الزرقاء وهى تنظر خلفنا من وراء هام وهى تصيح علينا بصوتها الرقيق ان نحترس فى المسير. قال ستيرفورث وقد أخذ بذراعى: "انها صحبه لطيفه. انه مكان هادئ، وهم هادئون، وان احساس لطيف ان نوجد بينهم. وقلت: "اننا محظوظون للغايه أيضا ان نصل فى وقت نشاهدهم فيه سعداء بهذا الزواج، ولم أر اناسا سعداء مثل هؤلاء. وقال ستيرفورث: "انه فتى مناسب للفتاة. اليس كذلك؟ ولقد كان ستيرفورث لطيفا معه ومعهم جميعا حتى اننى صدمت لهذه الاجابة الشاذة التى لم أتوقعها. وبعد ذلك عاوده المرح وأخذ يغنى اغنيه مستر بيجوتى ونحن نسير فى طريق العودة الى يارموث.

(الفصل الثامـــــن)

ومكثت انا وستيرفورث اكثر من اسبوعين فى هذا الجزء من البلدة. وسمعت انه كان يذهب مع البحارة، ويرتدى ملابسهم ويخرج معهم اثناء الليالى المقمرة ويعود مع الصباح، وكنت انا بالفراش. وقد أطلـــق لنفسه العنان فى هذا الجو القاسى وفى العمل الشاق وكان ينتهز هذه الفرصة وهو سعيد ولهذا لـــم يدهشنى تصرفه. وفى احدى الليالى المظلمه، عندما كنت أودع بلندرستون لاننا كنا على وشك العـــودة الى المنزل — وجدته بمفرده فى منزل مستر بيجوتى وهو يجلس مفكرا أمام المدفأة، حتى انه لم يشعـــر بدخولى. وانزعج عندما وضعت يدى على كتفه مما جعلنى انزعج انا أيضا.

— لقد تأخرت أين كنت؟ — قلت: "كنت أقوم برياضة المشى كالمعتاد. قال ستيرفورث: "كنـــت أجلس هنا مفكرا فى أمر هؤلاء الناس الذين وجدناهم جميعا سعداء ليلة وصولنا، وقد يلحقهم الموت أو الفناء أولا.. لست أدرى... اننى كنت أود أن يكون أبى موجودا يفيد خلال العشرين سنة الماضية.

— ما الامر ياعزيزى ستيرفورث؟ . فصاح "كنت أود ان يوجهنى أحد أفضل من هذا، وكنت أود أن اكون مثل ذلك الشخص البسيط بيجوتى او ابن اخيه".

— قال ذلك وهو ينحنى متكئ على المدخنه ووجهه تجاه النار وتابع كلامه قائلا: "اكثر من أن اكون أغنـــى واعقل مما أنا عليه عشرون مرة، بدلا من أن اتعذب فى هذا القارب اللعين خلال النصف ساعة الاخيرة.

ولقد تأثرت بحديثه وبهذا التغيير الذى طرأ عليه حتى اننى فى البدايه ظللت أراقبه وهو صامت بينما كان يقف متكئا برأسه على يده، وهو ينظر مكتئبا الى المدفأة. وسرعان ما ارتفعت معنوياته، واتخذت محادثاته طابع الحيويه ونحن نسير تجاه الفندق حيث كان يقيم. وقال بمرح: اننا سننهى حياة الصعلكـــة هذه غدا. اليس كذلك؟ فقلت: اتفقنا، وقد حجزنا امكنتنا بالعربة. قال ستيرفورث: "حسنا، ليس هناك مفر على ما أعتقد. لقد نسيت كل شئ الا أن نخرج الى البحر هنا. وقد اختبرت نفسى كبحار فـــى هذه الحياه، على ما اعتقد. فقلت: ان مستر بيجوتى يقول انك مدهش.

— هل تعلم اننى اشتريت قاربا هنا؟

فصحت متعجبا وتوقفت : "انك لشخص غريب يا ستيرفورث ، هذه اول مرة اسمع عن هذا الموضوع وانك تعرف انك قد لا تأتي الى هذا المكان ثانية • نرد قائلا : انني لا اعلم ، لقد اعجبت بالمكان • وعلى ايه حال ، لقد اشتريت قاربا كان معروضا للبيع وسيتولى شأنه مستر بيجوتي في غيابي • انه حديث الصنع وسأترك ليتمر يراقب انهاء الامر بشأنه وبتم عمله •

— هل اخبرتك بان ليتمر جاء هنا ؟ — لا — قد جاء الى هنا وهو يحمل خطابا من والدتي • ولاحظت عندما التقت نظراتنا أن وجهه قد شحب رغم انه كان يبدو متماسكا امامي •

— انه سيتولى تسمية القارب ، ويغير اسمه الحالي • — وسألت : باي اسم ؟ — اميلي الصغيرة ! ولما كان ينظر الى نظرات قوية فهمت انه يعارض امتداحه من اجلي • ولم أستطع الا أن ابدي بتعبيرات وجهي ان هذا يسعدني ، واستأنف ابتسامته المعهودة واسترخ قليلا • وقال وهو ينظر أمامنا : "انظر ان اميلي الصغيرة آتيه • وهذا الشخص معها • انه فارس حقا لا يتركها أبدا •

وكان هام يقوم بعمل القوارب في هذا الوقت وكان عاملا ماهرا • وكان يرتدي ملابس العمل الممزقة ، ولكن يبدو وعليه مظهر الرجوله ، وانه يحمي هذه الزهرة الصغيرة التي بجواره • وسحبت يدها من ذراعه بحياء عندما توقفنا للتحدث اليهما ، وخجلت وهي تمد يدها لستيرفورث ولي • وعندما ذهبا لم تعاود وضع يدها في ذراعه ومشت في حياء بمفردها • وقد أعجبنا هذا أنا وستيرفورث ، عندما كنا نتابعهما بنظراتنا وهما يختفيان في ضوء القمر • وفجأة مرت بنا امرأة صغيرة تتبعهما ولم نلحظ مجيئها ، ولكن رأيت وجهها عندما مرت ، واعتقدت انني رأيتها قبلا • وقد بدى عليها البؤس من ملابسها • ثم سارت بجوارهما وبعد ذلك ابتعدت •

قال ستيرفورث وهو يقف ساكتا : "ان هذا الظل يتبع الفتاه • فما معنى هذا ؟" • ودهشت عندما جئت الى منزل مستر باركس ، اذ وجدت هام امامه يمشي جيئه وذهابا ، ودهشت اكثر عندما علمت منه ان اميلي بالداخل • وطبعا سألته لماذا لم يدخل هو بدلا من أن يذرع الشوارع بمفرده ؟ وقال مترددا "الا ترى يا مستر ديفي • ان اميلي تتحدث لشخص ما هنا بالداخل • قلت مبتسما : "هل هذا سببا يدعوك الا تكون انت بالداخل أيضا يا هام • " فرد قائلا : "هذا ما كان يجب ان يكون يا مستر ديفي " — ثم خفض صوته متحدثا بطريقه فيها الكثير من الجديد : "انها امرأة شابه يا سيدي ، عرفها اميلي منذ زمن ويجب الا تعرفها بعد ذلك" • وعندما سمعت هذا بدأ يتبين لي الامر بشأن من كانت تتبعهما منذ عدة ساعات • وقال هام : "انها امرأة مسكينه يا مستر ديفي ، تجوب الشوارع ويدوس عليها الناس • وتذهب الى فناء الكنيسه ويبتعد عنها الناس أيضا •

— لقد رأيتها الليله يا هام تسير على الرمال ، بعد أن قابلناك ؟ قال هام : " أكنت رأيتها ؟ انني لم اعرف ذلك ، وكانت هي هناك وجاءت الى اميلي وهمست : " يا اميلي ••• يا اميلي من اجل المسيح اشفقي علي ، انني كنت يوما مثلك • وكانت هذه الكلمات مؤثره يا سيد ديفي عندما سمعناها •

— هي كذلك يا هام •• وماذا فعلت اميلي ؟ قالت اميلي : "أهي انت يا مرثا ؟ ! هل يمكن ان تكوني انت مرثا ؟ ! " وكانت مندهشه لانهما كانا يعملان سويا عند مستر اومر •

وفتح الباب وعندئذ ظهرت بيجوتي وأشارت الى هام ليدخل • وكانت نفس الفتاه التي رأيتها على الرمال تجلس بجوار المدفأة • وكانت تجلس على الارض مستنده باحدى ذراعيها ورأسها على مقعد ولم أروجها بوضوح حيث كان شعرها ينساب فوقه ، وكانت في مقتبل العمر ذو بشرة بيضاء • وكانت بيجوتي تبكي وكذلك اميلي • وقالت لهام : "ان مارثا تريد أن تذهب الى لندن" • فرد هام : "ولماذا تذهب الى لندن ؟ " وقال صوت ثالث وكان صوت مارثا — دون أن تتحرك : "ان هناك أفضل من هنا • فهناك لا يعرفني احد بينما الكل هنا يعرفونني • نسأل هام : "وماذا ستفعل هناك ؟ " • قالت اميلي "ستحاول ان تعمل بطريقة أفضل " • وقالت مارثا : " سأحاول اذا ساعدتموني • فانني سوف لن أفعل أسوأ مما فعلت هنا • وقد أكون أفضل • اخرجوني من هذه الطرقات ، حيث يعرفني الناس جميعا منذ طفولتي •

ومدت اميلي يدها لهام ووضع فيها كيسا من القماش السميك وسمعته يقول : "ان هذا لك يا اميلي انني لم أعرف ان هذا لك يا عزيزتي • ان هذا لا يسعدني الا اذا كان لك • وطفرت الدموع الى عينها

ولكنها استدارت وذهبت تجاه مارثا . ولا أعرف ما أعطته اليها . ونهضت ماريا ، ووضعت يدها على رأسه وغطت وجهها به ، وهي تبكي بصوت عال واتجهت ببطء الى الباب . وتوقفت لحظة قبل أن تخرج ، كما لو كانت تقول شيئا ولكنها لم تتفوه بكلمة . وتأوهت بحزن وبؤس ثم رحلت . وشعرت بيجوتي وأسرتها بالاسى لرحيلنا . وخرج أهل منزل أومر وجورام لتوديعنا ، وجاء بحارة كثيرون لستيرفورث ، وعندما وصلت حقائبنا الى العربة حملوها لنا . وبالاختصار حلنا والكل آسفين . وقلت للتيمر وهو ينتظر رحيل العربه . هل ستبقى هنا مرة طويلة ؟ فرد قائلا : لا ياسيدى ، ربما لوقت قصير . وقال ستيرفورث بعدم اكتراث : "لا يمكنه أن يحدد ذلك الان فهو يعرف ماسيفعله . وسوف يفعله . فقلت "انا متأكد من هذا" .

وحياني ليتمر بقبعته اعترافا بفضلي فيما قلت ، وشعرت انني كبرت ثمان سنوات . ثم حيانا مرة أخرى ، وتركناه واقفا على الطوار وهو أشد مايكون هيبه ووقارا . ولم نتحدث لوقت قصير ، وكان ستيرفورث صامتا على غير المعتاد ، وكنت اتساءل كثيرا متى سأرى هذه الاماكن العتيقه مرة أخرى ، وما الذى سيحدث لى من تغيير عندئذ . وفى الحال عاود ستيرفورث مرحه وأخذ يتحدث ، وجذبني من ذراعي : "تكلم ياديفيد . ما الامر بشأن الخطاب الذى تحدثت عنه اثناء الافطار ؟" . واخرجته من جيبي : "آه ! انه من عمتي تسألني اذا كنت أود ان اصبح محاميا مدنيا بمكتب دكتور كومنز بلندن فما رأيك ؟

— فرد ستيرفورث ببرود : " لا أعرف ، واعتقد انه يمكنك القيام بهذا العمل شأن أى عمل آخر" ولم أستطع الا الضحك لقوله ان كل المهن متساوية وصرحت له بهذا . وقلت : ماهو المحامي المدنى ياستيرفورث ؟ . فأجاب : "انه نوع من المحاماة ، وأستطيع ان أوضح لك ما هو باخبارك عن المحاكم المدنيه . فهى المكان الذى تجهز فيه الامور القانونيه الخاصة بالكنيسه ، ويقومون بعمل حيل رهيبة على القوانين البرلمانيه ، لا يعرف معظم الناس عنها شيئا . وهو عمل مربح يعتمد على التمثيل الذى يقدم الى عدد من المتفرجين . والمحامون المدنيون يتقاضون اجورا حسنه — وعلى العموم فانني احبذ الذهاب الى المحاكم المدنيه ياديفيد . فهم يعتمدون على رقتهم هناك اذا كان هذا يرضيك . وقد استمعت الى معالجة ستيرفورث للامر ، ولم أشعر بمعارضة لاقتراح عمتي .

* * *

.. ولو انني ذهبت فى رحلة حول العالم منذ افتراقنا ، لما شعرت بمثل هذه السعادة عندما التقينا مرة ثانية فى لندن . وصاحت عمتي وهى تحتضنني وتظاهرت بالضحك ، لو أن والدتى كانت تعيش كانت ستجهش بالبكاء ولاريب . وفى منتصف اليوم ، ذهبنا الى مكتب السيدين سبنلو وجوركنز فى المحاكم المدنيه ، وعندما اتجاهنا اليه فى الشارع الخلفى اختفت ضجة المدينه . وكان مستر سبنلو شخصا غير كثيف الشعر يرتدى حذاءا غريبا وياقه عاليه وربطة عنق . وكانت ملابسه ضيقة ومحكمة وكانت ساعته الذهبيه كبيرة . وكان متصلبا بطريقه لا يمكنه معها الانحناء . ونظر الى بعض الاوراق فى مكتبه بعد أن جلس على مقعده ، ليحرك جسمه كله .

— اتريد يامستر كوبرفيلد الالتحاق بمهنتنا ؟ اننا نلحقك لمدة شهر حسبما اقترح فى البدايه . ويسعدني ان يكون شهرين أو ثلاثه او مدة غير محددة ، ولكن لدى شريك وهو مستر جوركنز . وقلت "والقسط الاول هل هو ألف جنيه ؟ فقال مستر سبنلو : "والقسط الاول الف جنيه . ولمستر جوركنز رأيه فى هذه الامور ، وانى مضطر لاحترام رأيه ، فهو بالاختصار يعتقد ان هذا المبلغ قليل . فقلت وأنا أرغب فى معاونة عمتي : "اعتقد ياسيدى ، انها ليست العادة هنا اذا كان الطالب الذى يدرس نافعا ومفيدا ، ان يسمح له ب ... وبمجهود شاق رفع مستر سبنلو رأسه بعيدا عن ربطة عنقه بهزهما وأجاب متوقعا الحديث عن المرتب : لا ، انني سوف لا أتحدث عما سأوليه لهذا الامر من عنايه ياسيد كوبرفيلد . ان مستر جوركنز لا يغير رأيه .

وتضايقت من الحديث عن مستر جوركنز ، ولكنى وجدت فيما بعد أنه رجلا معقولا ، ذو طبع جامد وكان هذا خير ما يوصف به . وكان مستر جوركنز لا يصغى الى أى موظف يريد رفع مرتبه ، وكان أيضا اذا تأخر أحد المتعاملين عن تسديد حسابه فان مستر جوركنز كان يصمم على دفعها . ومهما كانت

هذه الامور مؤلمه لمستر سبلنو. فان مستر جوركنز تكون له الكلمه. وعرفت ان هناك بعض المكاتب تسير على منوال مستر سبنلو وجوركنز. واتفق على أن أبدأ شهر تدريبي في أقرب فرصة. وتلقيت رسالة من أجنس جاء فيها :

عزيزي ترتوود

انني اقيم بمنزل وكيل والدي — مستر ووتر بروك في مكان ايلي بملبورن. فهل لك ان تأتي وتقابلني اليوم في أي وقت تريد تحديده ؟ المخلصه — اجنس.

.. ان عمل مستر ووتر بروك كان في الطابق الارضي ، اما الاعمال الاخرى فكانت في الطابق العلوي من المبنى. وادخلت حجرة استقبال جميله ، وكان اجنس هناك تطرز كيسا. وكان يبدو عليها الهدوء والطيبه ، وتذكرت ايامي الجميلة عندما كنت طالبا بكانتربري ، ولم أتمالك الا أن آخذ بيدها واضعها على شفتي وأقبلها. وقلت : آه يا أجنس انك ملاكي الخير". وابتسمت بحزن نوعا ما على ما أظن وهزت رأسها. وتابعت كلامي : — نعم يا أجنس انت دائما ملاكي الخير. فقالت لو انني كنت مكانك ، فان ثمة شئ يجب ان أهتم به ، وهو أن احذرك من ملاكك. وبادرتها قائلا : ياعزيزتي اجنس ، اذا كنت تقصدين ستيرفورث.... فردت : انني اقصده. — اذن فانك قد أسأت فهمه يا اجنس. أهو ملاكي الشرير ، انه ليس الا مرشدا ومعاونا وصديقا لي ، ياعزيزتي اجنس.

— انني متأكدة انني على صواب. وأحذرك فانه صديق خطر. فهل تغفر لي قولي هذا ؟. وأجبت "انني اسامحك يا أجنس حين تعطين ستيرفورث حقه ، وتحبينه كما أحبه". قالت أجنس: "ليس حتى هذا الوقت. — وردت على ابتسامتي وعاودنا ثقتنا القديمة ببعضنا. وسألتني اذا كنت قد رأيت يورايا. قلت : " يورايا هيب ؟ لا ، هل هو بلندن ". فردت اجنس : " انه يأتي الى المكتب في الطابق الارضي كل يوم. وكان في لندن قبل ذهابي باسبوع. انني أخشى من عمل لا أوافق عليه ياترتوود. اعتقد انه سيشارك والدي في العمل. فصحت بغضب. ماذا ؟ يورايا ؟ هذا الشخص الحقير يرفع نفسه الى هذا المستوى. ألم تعارضي في هذا يا اجنس ؟ الم تفكري في أي نوع من العلاقة ستكون ، يجب ان تتكلمي . يجب الا تسمحي لوالدك ان يتخذ مثل هذه الخطوة الجنونيه. يجب ان تمنعيها يا اجنس طالما هناك متسع من الوقت.

فأجابت بعد فترة من التردد : "ان يورايا جعل من نفسه بالنسبة لوالدي شخصا لا يمكن الاستغناء عنه. لقد كان يقظا ، واستغل ضعف والدي ، حتى ان والدي أصبح يخشاه ياترتوود. انه يدعي التواضع والعرفان بالجميل ، ولكنه في مركز القوة. وأخشى أن يستغل هذه القوة. أرجوك ان تكون ودودا مع يوريا ياترتوود. فكر في والدي وفي أنا.

.. ومرت الايام والاسابيع. وتسلمت دعوة في مكتب سبنلو وجوركنز. وقال مستر سبنلو عندما كنت انهي عملي ، انه يسعده أن يستقبلني بمنزله في نوروود حيث يحتفل بمناسبة عودة ابنته بعد انهاء تعليمها بباريس ، ورغم ان امور منزله مضطربة نوعا ما الا انه يأمل أن تسري عني عند عودتها.

.. وأوفى مستر سنبلو بوعده. وفي خلال أسبوع او اثنين قال : "انه يسعده للغايه ان ازوره يوم السبت التالي وأمكث حتى يوم الاثنين. ووافقت ، ووعد بأن يوصلني بعربته ويعود بي. وكانت هناك حديقه جميله في منزل مستر سنبلو ، ورغم انه لم يكن أفضل موعد في السنه لمشاهدة حديقه ، الا انها كانت منسقه بطريقه جميله حتى انني انتعشت. وكان بها حشائش وأشجار تنمو بها الازهار. ودخلنا المنزل وسمعت صوتا يقول "يامستر كوبرفيلد هذه ابنتي دورا". وكان هذا بلا شك صوته مستر سبنلو ولكنني لم أعبأ بهذا. لقد انتهى الامر في لحظة ، وحددت مصيري. لقد أصبحت أسيرا وعبدا. ووقعت في حب دورا تماما. ولم يعد هناك تردد فقد غمرني حبها قبل ان اتفوه بكلمه.

وبجوار دورا ، لم أشعر بما تناولته من طعام العشاء. لقد اشبعتني تماما وجلست في مواجهتها وكان صوتها جذابا رقيقا ، وضحكتها مرحة ، وحركاتها جذابه تأسر أي شاب. وفي مجموعها كانت ذات حسن وبهاء. وكل ما أذكره انني منذ تلك الليله سمعت قلبي يغني ملاحما بالفرنسيه ، ثم رقصنا بعدئذ على انغام آلة تشبه الجيتار. وتهت في حلم جميل ، ولم أرغب في ترفيه آخر.

وتحررت روحي من الالم • ونظرت فجأة الى نفسي بالمرآة فكان يبدو على نوع من البلاهة • وذهبت الى الفراش في حالة اضطراب ذهني وصحوت في وهن كالاطفال • وكان الصباح مبهجا واردت أن أسير في أحد الممرات تحت البواكي ، واسترجع مشاعري واعيد على صورتها • وفي الطريق عبر الصالة وجدت كلبها الذي يدعى جيب • فاقتربت منه برقة ، فقد احببته أيضا ولكنه كشر عن أنيابه ، ودخل تحت مقعد ولم يستجب الى •

وكانت الحديقة رطبه ومنعزله • ولم أسر كثيرا حتى قابلتها في منحنى • فارتعدت من قمة رأسي الى قدمي • فقلت: "لقد خرجت مبكرة يا مس. ستبلو" — اليس هذا أفضل وقت في اليوم • الا تظن كذلك؟ فقلت غير متلعثم : انه لطيف بالنسبه لي رغم انه كان مثالما منذ لحظة مضت • فقالت دورا : "اتقصد تحيتي ، أو أن الطقس قد تغير فعلا ؟ • وتلعثمت وقلت انني لا أعني التحيه ، ولكن الواقع رغم انني لم أشعر بتغير في الطقس • وشعرت انني اريد التوضيح •

وجاء الكلب يعدو ، وكان غيورا مني ونبح تجاهي • فاخذته بين ذراعيها • يا الهي — وربتت عليه ولكنه اصر على النباح • ولم يدعني المسه عندما حاولت ذلك • وكان منظرا لطيفا رجميلا للورود وكانت دورا تتوقف امامها وتعجب بهذه وتلك و وكنت أتوقف لأعجب بها أيضا ، وضحكت دورا ورفعت الكلب ليشم الزهور • وكانت رائحة الزهور تؤثر في بطريقة مثيره ، وتعجبت لما حل بي في لحظة ، وكنت احس بخير الى بكل ذلك • وفكرت في اليوم التالي أن اذهب للبحث عن ترادلز وكان يقطن في شارع صغير بجوار الكليه بمدينة كامدن • ولم يكن منظر الشارع سارا كما كنت أود لترولز • فقد كان السكان يلقون بالنفاية في الطريق ، وكانت من أشياء متعددة ، وأخذت ابحث عن رقم المنزل • وكان جو المكان يذكرني بالايام التي قضيتها مع مستر ومسز ميكوبر • حتى المنزل كان يتسم بنفس الطابع من الرقة الدابله •

ونزل تردلز لمقابلتي ، وفرح بلقائي ورحب بي بحرارة الى غرفته الصغيرة • وكانت بالحجرة ترتيبات عجيبة يخفي بها صندوق ملابسه واحذيته وأدواته ، وقد أوحى لي هذا بطبع تردلز نفسه الذي كان يقوم بعمل أوراق ليضع فيها الذباب فيما مضى • وقلت وأنا أصافحه مرة أخرى بعد أن جلسنا : "انني سعيد برؤياك • هل تعرف ما أجبر على التفكير فيه وأنا أنظر اليك ؟" قال : "لا" — الحلة الزرقاء التي كنت ترتديها • فصاح تردلز ضاحكا : "نعم ، يا الهي لقد كانت ضيقة من الذراعين والارجل هل تذكر ؟ لقد كانت أياما سعيدة أليس كذلك ؟" فأجبته "ان ناظر المدرسة كان يمكن أن يجعلها أسعد اذا لم يسئ الى أحد منا" • فقال تردلز: "ربما كان يمكن ذلك • ولكن كان هناك مرحا كثيرا ، اتذكر الليالي في حجرات النوم ؟ وعندما كنا نتناول طعام العشاء ؟ وعندما كنت تقص القصص؟ ان وجهك لم يتغير ياكوبرفيلد واني سعيد لرؤياك ، حتى لا يمكنني ان أخفي شيئا" •

•• انني احصل على دخل لا بأس به ، ولكني لا اكسب كثيرا ولا انفق كثيرا • وعموما فانني اسكن مع من يسكنون في الطابق الارضي وهم أناس طيبون جدا • ان كلا من مستر ومسز ميكوبر قد عركتهما الحياة وهم صحبه حميدة • وتعجبت في الحال : " ياعزيزي تردلز ، عمن تتحدث ؟" ونظر الى تردلز وكأنه قد عجب مما قلت • فقلت له : "مستر ومسز ميكوبر • انني اعرفهما جيدا" • ثم رجوت تردلز أن يطلب من صاحب المنزل أن يصعد ، ففعل ذلك تردلز وناداه ودخل مستر ميكوبر الغرفة بهيئته الرقيقة ، ولو أن تغير قليلا رغم احتفاظه بعصاه وملابسه ونظارته كما كان معهودي به •

وقال مستر ميكوبر بنفس حشرجة صوته وهو يترنم بلحن رقيق : عفوا ياسيد تردلز ، لم أكن أعرف أن احدا بصحبتك • وانحنى لي مستر ميكوبر قليلا ورفع ياقة قميصه • قلت : "كيف حالك يامستر ميكوبر" • وفحص ملامحي عن قرب ، وتراجع صائحا : "أهذا ممكن • أأتشرف باستقبال كوبرفيلد • لقد التقينا مصادفة بكانتربري بجوار ظلال ذلك المبنى المقدس وبالاختصار قال مستر ميكوبر: "بجوار الكاتدرائيه • انك تجدنا الان ياكوبرفيلد نعيش في مستوى دخل ضئيل ولكنك تعرف انني قد تغلبت على الصعاب وهزمت العوائق • ولكن قد أحقق قفزة قريبا • انني اقوم الان بتسويق القمح بالعمولة • وهو عمل لا يدر أجرا ، وكانت النتيجة بعض الارتباك المالي • ولكن يسعدني القول انني اتوقع قريبا تغييرا ، (ولكني لا أعرف في أي اتجاه) حيث سيمكنني هذا من توفير مطالبي ومطالب تردلز بصفة دائمة ، فانا اهتم به دائما • وصافحني مستر ميكوبر مرة ثانية وتركني • وجلست الى المدفأة افكر في شبه خليط من الجديه والضحك في شخصية ميكوبر ، والعلاقة الغريبه بيننا عندما سمعت وقع اقدام على درجات السلم ، واقترب الصوت

وعرفت وقلبي يدق انه ستيرغورث • ولم اتذكر انه نسى ولكنه حين وقف امامي ومد يده يصافحني شعرت بالخجل لاني اشك في شخص احببته حبا جما • وقال : "ما هذا ، ان هذا عشاء الملوك • لقد حضرت من يارموث حيث كنت اقوم برحلة بحرية • فقلت : "لقد كان ليتمر اليوم هناك يسأل عنك ، وعرفت منه انك باكسفورد ، رغم انه لم يقل هذا • وقال ستيرغورث وهو يصب قدحا من النبيذ ويشرب نخبي : " ان ليتمر احمق على عكس ما ظننت اذ يسأل عني • واذا كنت قد فهمته اكثر منا يا ديفيد فانك تفوقنا مهارة "

وقلت وانا اقترب بمقعدي من المنضدة : "هذا صحيح في الواقع فقد كنت في يارموث يا ستيرغورث ، هل كنت هناك فترة طويله؟ " فأجاب : " لا ، ص ملكه لمدة اسبوع أو حوالي هذا •

— وكيف حالهم جميعا ؟ • طبعا لم تتزوج اميلي الصغيرة بعد ؟

— لم تتزوج بعد ، ولم أذهب عندهم كثيرا ، رغم انني اذهب لاسابيع كثيرة • وعلى فكرة " • ثم اخذ يبحث في جيوبه واخيرا تابع كلامه قائلا : " اني معي خطاب لك " — ممن فأجاب : " طبعا من مربيتك " ، واخرج بعض الاوراق من جيب الصديري • ثم قال : "ان زوجها في حالة سيئه ، واعتقد ان هذا يخص ومن ذلك الموضوع على ما أعتقد " •

— هل تقصد باركس ؟

— نعم — واخذ يبحث في جيوبه ويفحص محتوياتها — ان الامر قد انتهى على ما أعتقد مع باركس • وبينما كنت أفحص الخطاب استمر ستيرغورث في تناول الطعام • وعندما انتهيت من تراءته : "انه لامر سيء ، ولكن الشمس تغرب كل يوم ، ويموت الناس كل دقيقه ، ويجب الا نخشى او نفزع من هذا • بل يجب أن نعلو فوق الصعاب ونربح هذا السباق • وقلت : "أي سبق نربحه ؟ قال : "السباق الذي نبدأه ونستمر فيه " • واتذكر وهو ينظر الي بعد أن توقف وكان يلقي برأسه الى الخلف ، ويحمل الزجاجه في يده ، انني كنت اتفق معه في التفكير ، وبعد ذلك عدت الى موضوع الحديث •

— ماذا أقول لك يا ستيرغورث • اعتقد انني يجب ان اذهب لمقابلة مربيتي • وهذا سوف لا يكلفني مجهودا كبيرا ، لانها كانت ودودة بالنسبة لي • ألم تكن تذهب ولو ليوم واحد لو كنت مكاني ؟ وكان وجهه يعبر عن التفكير ، وجلس يفكر قليلا قبل ان يجيب بصوت منخفض : "حسنا ، اذهب • ان هذا لا يضر " • — نعم ، انني اعتقد ذلك " • — نحسبنا ، لا تذهب حتى الغد • لقد كنت اود أن تحضر لتمضي عدة أيام معنا • وها قد جئت لاراك — ولكنك ستذهب الى يارموث •

— انك لشخص لطيف ان تتحدث عن الذهاب يا ستيرغورث وانت الذي تذهب في رحلات استكشافية كثيرة • فنظر الي لحظة دون أن يتكلم ، واستأنف وهو يمسك بي ويهزني : تعال ، وامض الغد معنا واذهب في اليوم التالي • فمن يعرف متى ستلتقي مرة أخرى ؟ ولما وافقت على هذا ، ارتدى معطفه وأشعل سيجاره ، وشرعنا للذهاب الى المنزل • وارتديت معطفي ، وسرت معه حتى الطريق • وكانت روحه المعنويه عالية طوال الطريق ، ولما افترقنا ورأيته وهو يتجه الى المنزل بهمة تذكرت في قوله : " نعلو على الصعاب ونربح السباق " • — وودت لاول مرة أن يكون لديه سباقا ذا قيمه ليربحه •

(الفصل التاسع)

وكانت مسز ستيرغورث سعيدة على وجه الخصوص بصحبة ابنها • وكان مما يسرني ان اراهما معا للتشابه القوى بينهما • وكنت افكر كثيرا في انه ليس هناك سبب خطير يفرق بينهما ، كما أن طبيعتهما اقوى من أن يختلفان او يتعارضان • وذهبت الى ستيرغورث في حجرته لالقي عليه تحية المساء ، ولم يشأ ان يتركني اذهب ، ووقف ممسكا بي واضعا يديه على كتفي • وقال بابتسامه : "اذا حدث ما يفرق بيننا فيجب ان تفكر يا عزيزي هيا لنعقد هذه الصفقه • • احسن الظن بي اذا فرقتنا الظروف • فقلت : "لا احسن ولا أسيء الظن بك يا ستيرغورث • فانني احبك ولقد استوليت على قلبي " •

واستيقظت في الفجر وارتديت ملابسي بهدوء ، ونظرت الى غرفته • ووجدته نائما وهو يضع رأسه على يده ، كما كنت أراه يفعل هذا في المدرسة • وهكذا تركته في هذه الساعه الهادئه • وذهبت الى يارموث في المساء • وعندما وصلت الى محل أومر وجورام وكان باب المحل مفتوحا — رأيت مستر أومر بالداخل يدخن غليونه ، قرب الباب ، فدخلت واستفسرت عن حاله • قال مستر أومر : "باركني الله ، كيف حالك ؟ اجلس • " وافسح لي ووضع مقعدا •

واستفسرت عن حال اميلي الصغيرة . قال مستر أومر وقد أزال غليونه من فمه ليحك ذقنه: "حسنا ياسيدي ، انني سأكون سعيدا حقا عندما نتزوج" وسألته "ولماذا؟" قال مستر اومر: "انها غير مستقرة في الوقت الحاضر . فهي ليست جميلة ولكنها اصبحت أجمل وأؤكد لك هذا . وهي تعمل الان . ولكنها تريد قلبا على أي حال . ولهذا اعتبرها غير مستقرة . وهز مستر اومر رأسه برقة قائلا: "انك يجب ان تفهم ان اميلي عاطفية بطريقة غير عادية . وهل تعلم انها ستتزوج ابن عمها ياسيدي ؟ ولولا مرض باركس المسكين لكانا قد تزوجا خلال هذا الموقف . ولكن تأجيل الامر على اية حال جعل حالتها غير مستقرة . قلت "نعم انه كذلك" . واستمر مستر أومر قائلا: "وبالتالي فان اميلي مرتبكة ، وعلى العموم فهي ربما تكون مرتبكة الان عن ذي قبل" .

ولما كانت الفرصة سانحة فقد خطر لي أن أسأل مستر أومر ان كان يعرف شيئا عن مارثا . فقال وهو يهز رأسه بأسى : "آه . انها قصة حزينة ياسيدي ، اذا عرفتها ، ولم يكن ثمة من ضرر في الفتاة . ولم يعتقد احد بهذا . وودعت مستر أومر واتجهت الى منزل بيجوتي ، وكان شعوري متزنا مما جعل مستر باركس شخصا مختلفا تماما . وتلقتني بيجوتي بين ذراعيها ، وشكرتني كثيرا ، لمواساتي لها في أحزانها وتوسلت بعدئذ لي أن أصعد الى الطابق العلوي ، وهي تنتحب اذ أن مستر باركس كان دائما يحبني ويعجب بي ، وكان دائم الحديث عني ، قبل ان يفقد وعيه ، وكانت تعتقد عندما يفيق بأنه سيسعد لرؤيتي . ولكني عندما رأيته وجدت أن هناك احتمالا ضئيلا في أن يفيق .

وقالت بيجوتي وهي مبتهجة وتنحني فوقه بينما وقفت أنا وأخيها عند طرف الفراش: "ياعزيزي باركس ، هذا هو ولدي العزيز مستر ديفي . وهو الذي جمعنا معا ياباركس . فقد كنت ترسل اليه الرسائل معه . الا تريد التحدث الى السيد ديفي ؟" وقال مستر بيجوتي لي بصوت خافت: "انه في غيبوبة . " .. ولقد اظلمت الدنيا في عيني ، وكذا مستر بيجوتي ولكني رددت في همس: "في غيبوبة؟" . قال مستر بيجوتي : "ان الناس لا يموتون على السواحل ، الا اذا كان المد بعيدا . واذا عاش حتى يعود القيام فانه سيولي مع المد التالي" .

ومكثنا هناك نراقبه لمدى طويل ولعدة ساعات وقد كان لوجودي تأثير سحري على حالته ، ولكنه حين بدا يهذي بضعف كان من المؤكد انه يتمتم عن أمر ارسالي للمدرسه بعربته ، قالت بيجوتي : "انه يفيق .. باركس ياعزيزي" فصاح بضعف: "كلارا بيجوتي باركس ، ليس هناك امرأة أفضل منها" . فقالت بيجوتي : "انظر ! ها هنا السيد ديفي — لقد بدأ باركس يفتح عينه" . وكنت على وشك ان أسأله اذا كان يعرفني حينما حاول مد ذراعه وقال لي بوضوح وبابتسامه عذبه : "ان باركس يود !" وبذهبه المد بعيدا ... لقد مات . وكان على مربيتي ان تذهب الى لندن معي في اليوم التالي ، بشأن الوصيه . وكانت اميلي تمضي ذلك اليوم عند مستر أومر . وكان يجب ان نلتقي في القارب مساء . وفي الحال اقتربت من منزل بيجوتي ، ورأيت الضوء يأتي من النافذة . وكان مكانا مريحا في الواقع . ودخن مستر بيجوتي غليون المساء ، وكانت هناك استعدادات العشاء فيما بعد . وكانت المدفأة مشتعلة . وجلست بيجوتي بمكانها المعهود وكانت تبدو وكأنها لم تتركه . وكانوا جميعا وكأنه لم يحدث ما يعكر صفوهم .

وقال مستر بيجوتي / "انك أول المجموعة ياسيد ديفي ونظر الى الساعه ونهض وعدل الشمعه ووضعها على الشباك . وقال مستر بيجوتي بابتهاج : " ها هي مشتعلة تبعا للعادة . انك تتعجب لاي شيء هنا ياسيدي . انها لاميلي الصغيرة . الا ترى الطريق مظلم ، وعندما اكون هنا أضع الضوء على الشباك ينير لها عندما تعود للمنزل وها هي آتيه .. ولكنه كان هام . وقال مستر بيجوتي : "اين اميلي" وهز هام رأسه بحركة تدل على انها بالخارج . — هل لك أن تأتي لمدة دقيقة ياسيد ديفي وترى ما أحضرناه انا واميلي لكي نطلعك عليه . وخرجنا ، وعندما ذهبت للباب ، رأيته وقد دهشت وذكرت انه شاحب اللون جدا . ودفعني بسرعة الى الخارج وأقفل الباب خلفنا أنا وهو فقط .

— ما الامر ياهام ؟

"ياسيد ديفي ..." — وبالقلبه الكسير ، انه بكى بشده وهو يكمل حديثه قائلا : "ياسيد ديفيد ان حبيبتي — فخري وأمل قلبي — والتي أنا على اتم الاستعداد لكي اموت من أجلها — ذهبت!"

— ذهبت ! — لقد هربت اميلي . وتحرك الباب ، وبطريقة غريزية أردت أن امسك به ، ولكن مستر بيجوتي أخرج وجهه ، ولا أنسى مدى تغير وجهه عندما رآنا حتى لو عشت خمسمائة عام .

٠٠ انني اتذكر عويلا وصراخا ، وتجمعت النساء حوله ووقفنا جميعا بالغرفه ، وامسكت بورقة في يدي أعطاها لي هام ٠ وفي وسط همة الموت قرأت خطابا مكتوبا بالحبر جاء به: "وأنت تقرأ هذا الخطاب يامن تحبني اكثر مما استحق ، حتى ولو كان عقلي سليم النية — فاني سأكون قد غررت بعيدا ٠

ورد بيط: "ساكون بعيدا ، قف ، ان اميلي ذهبت بعيدا ، حسنا ٠ — عندما اترك منزلنا العزيز٠٠" وكان الخطاب يحمل تاريخ الليله السابقه — "فسوف لا أعود ، مالم يعود بي وأنا سيده٠ لو انك تعرف كيف يتمزق قلبي ٠ انني شريرة يجب الا اكتب عن نفسي ٠٠انني استريح عندما اتذكر انني شريرة ٠ آه ! من اجل الرحمة ، انني لم أحبه كما احببته الان ٠لاتذكر اننا كنا سنتزوج ، ولكن فكر كما لو كنت قد توفيت ونفنت في مكان ما وأنا صغيره ٠ فلتحب فتاة اخرى فاضله ٠ لتكون ماكنت أنا ساكون بالنسبه لعمي ، فتكون مخلصة لك ، وجديرة بك ، ولاتعرفني الا انني العار ٠ وليبارك الله الجميع ٠ ومع دموعي وشكري لعمي ٠ هذا كل ما كان في الامر ٠

ووقف مستر بيجوتي طويلا بعد أن توقفت عن القراءة وهو لايزال ينظر الي وقال بصوت منخفض: من هو هذا الرجل؟ انني اريد ان أعرف اسمه؟ " ونظر الى هام ، وفجأة شعرت بصدمة انتابتني ٠ وقال مستر بيجوتي: " هناك رجل يشك فيه ، من هو ؟ " وقال هام هناك لوقت ما ، كان هناك خادمة تأتي في أوقات غريبه ٠ وكان هناك رجلا أيضا ٠ وكان لهما علاقة ببعضهما ٠ وقال مستر بيجوتي وهو يتراجع ويمد يده ، كما لو كان يريد اعداد ما يغشاه: " من اجل الله ، لاتقل ان اسمه ستيرفورث وصاح هام في صوت متقطع: "يامستر ديفي ، انه ليس خطأك — ولكن اسمه ستيرفورث وهو شرير ٠ ولم يفه مستر بيجوتي بصرخه ، ولم يذرف دمعه ، ولم يتحرك ، حتى بدا كانه يستيقظ مرة أخرى فجأة وجذب معطفه العتيق من أحد أركان الحجرة وقال: — "ساعدوني ، والان اعطوني هذه القبعة التي هناك ٠ وسأله هام اذا كان سيذهب ٠ فقال: "انني سأذهب للبحث عن ابنة اخي ٠ انني سأذهب للبحث عن اميلي " ٠

وصاح هام ، ووقف امام الباب: "اين؟ " في اي مكان سأذهب للبحث عن ابنة اخي في كل أرجاء العالم ٠ وسأخبرها في عارها وسأرجعها ٠ ولايستطيع أحد أن يقف في طريقي ٠ اقول لكم انني سأذهب للبحث عن ابنة اخي ٠ واقترح مقابلة مسز ستيرفورث اولا ٠ ولما شعرت انه يجب أن اساعده في هذا كنت لما في تلك الليله ٠ وقلت ان كان رجلا في الحياه العادية ذو خلق مستقيم ، وقلت انها لاتود ان تراه وهو في متاعبه ٠ وذكرت اننا سنحضر في الساعه الثانية بعد الظهر ٠ ورأيت مباشرة في وجه والدته انها على علم بما فعل وكانت شاحبه للغايه ورأيتها كثيرة الشبه به اكثر مما كنت أظن ، وشعرت اكثر مما رأيت وجه التشابه بينهما ٠

وكانت تجلس معتدله في مقعدها ، بهيئه متعاليه لايتحرك شعورها ، وكانه ليس هناك مايزعج الامر ونظرت مليا الى مستر بيجوتي عندما وقف امامها ، وكان ينظر اليها بثبات ٠ وافهمتنا نظرة روزا دارتل جميعا ما الخبر ، حيث حدث صمت للحظة ولم يتكلم أحد منا ٠ — "انني اعرف بكل أسف ، ما الذي احضرك الى هنا ؟ وما الذي تريده مني ؟ وماتريدني أن افعله ؟ " ووضع قبعته تحت ذراعه وبحث في صدره عن خطاب اميلي واخرجه ثم فتحه واعطاه لها ٠

— "اقرأي هذا من فضلك ياسيدتي ٠ انه بخط ابنة أخي " وقرأته بنفس هيئتها المتعالية ، ولم تؤثر فيها محتوياته وردته اليه ٠ وقال مستر بيجوتي وهو يشير الى هذا الجزء باصبعه: " مالم يعيدني سيدة " ٠ لقد جئت ياسيدتي لاعرف اذا ماكان سيحتفظ بوعده؟ فردت قائلة: "لا "
— مستحيل ٠ انه سيجلب العار لنفسه ٠ أظن انه لايخفي عليه انها اقل منه بكثير٠
فقال مستر بيجوتي "فليرفعها الى مستواه" — انها غير متعلمه وجاهله ٠ وقال مستر بيجوتي: "ربما هي كذلك ٠ ولكني أظن انني لا أحكم على هذه الاشياء ٠ فليعلمها أفضل ٠

٠٠ بما انك تجبرني ان اتحدث بوضوح أكثر رغم اني لا ارغب في هذا ، فاني اقول ان حالتها المتواضعه تجعل مثل هذا الامر مستحيلا ٠ اذا لم يحدث شيء آخر ٠ فرد بيط: "هذا مراء ياسيدتي ٠ انت تعرفين معنى حب ابنك وأنا اعرف ذلك ٠ واذا كانت ابنتي ماكنت قد احببتها اكثر من هذا ٠ انك لاتعرفين معنى فقدها لابنك ولكني اعرف ٠ ان كل ثروات العالم لو كانت ملكا لي لاتكف لارجاعها ٠ انقذيها من هذا العار ٠

آن مثل هذا الزواج سيحطم مستقبل ابنى • ان مثل هذا لا يمكن ان يحدث وسوف لا يحدث • واذا كان هناك أى تعويض • • • فقاطعها مستر بيجوتى قائلا: "اننى اتطلع الى هذا الوجه الذى كان فى منزلى ، وبجوار المدفأة ، وفى القارب يبتسم بود ، حتى اننى احبه عند التفكير فيه • واذا كان حبى لهذا الوجه لا يتحول الى نار حارقه ، لمجرد فكرة اعطائى مالا من أجل تدمير طفلتى — فانه لامر سيئ • • اننى لست أدرى ، وكونك سيدة ، فما أسوأ ذلك •

وتغيرت الان فى لحظة • واحمر وجهها وقالت وهى تمسك بيديها ذراع المقعد : "وماهو التعويض الذى تعطينى اياه حيث انك توجد ثغرة بينى وبين ابنى ؟ وماهو مدى حبك بالنسبه لحبى ؟ وما مدى فراقك بالنسبه لفراقى ؟" ولمستها مس دارتل برفق ، وانحنت لتهمس فى أذنها ولكنها لم تسمع أى كلمة • — لا ياروزا ولا كلمه • دعى الرجل يصغى لما أقول • ان ابنى الذى كان أمل حياتى ، وكان فكرى مكرسا له ، والذى كنت البى رغباته وهو طفل — أجده يذهب فى لحظه مع فتاه بائسه ويهجرنى من أجلها • ويفضل هذه البائسه على حقوق والدته وواجبه وحبه واحترامه وعرفانه بالجميل لها — ويدعى مع كل يوم من حياته انه يقوى الروابط بحيث لا يقوى عليها شئ • اليس هذا ضررا ؟

وحاولت روزا دارتل تهدئتها مرة أخرى • فتقول لها : "— قلت انى لا أريد ان اسمع أى كلمه ياروزا ، دعيه ينحى فكرته الان وأنا أرحب به • واذا لم يتنازل عنها الان فانه سوف لا يرانى ، حيا او ميتا ، طالما اننى يمكنى الاعتراض عليها ، الا اذا تخلص منها الى الابد ، وليعود الى بتواضع ويطلب العفو • هذا حقى • وهذا ما أعرفه • والا فلتكن الفرقة بيننا • "اليس هذا ضررا" — ونظرت لزائرها بطريقة الكبرياء التى بدأت بها وقالت: "اليس هذا ضررا"؟ وبينما كنت استمع وأشاهد تلك الام وهى تقول هذا الكلام خيل الى اننى اسمع وأشاهد الابن وهو يتحداهم • وكنت أرى فيها روح العزيمة وقوة الارادة • وفهمت ان سوء توجيهها لابنها نابع من شخصيتها أيضا ، وأدركت انها المصدر القوى لهذا أيضا •

وعند خروجنا كان علينا ان نعبر صالة ، فتح بها بابين من زجاج ، ودخلت روزا دارتل من هذا الاتجاه بهدوء ، وعندما اقتربنا منهم خاطبتنى قائله : "لماذا أحضرت هذا الرجل هنا ؟" فأجبت "انه قد اضير كثيرا يامس دارتل ، وقد لاتعرفين هذا • وقالت ويدها على صدرها كما لو كانت تريد منع العاصفه المدويه فيه: "اننى اعلم ان جيمس ستيرفورث ، يحمل قلبا مضللا فاسدا وانه خائن ولكن ما فائدة ما أعرفه او احرص على معرفته عن هذا الشخص وعن ابنة اخيه؟" فأجبت: "انك تزيدين الجرح عمقا يامس دارتل • هذا يكفى • وانى اقول قبل ان نفترق انك تلحقين به ضررا بالغا •" فأجابته "اننى لا الحق به ضررا • انهم اناس تافهون لاقيمة لهم ، اننى كنت افضل ان تضرب بالسوط •

وخرج مستر بيجوتى دون ان يتفوه بكلمه الى الباب الخارجى • وقلت بغضب : "ياللعار — ياالعار يامس دارتل" • — اننى كنت أفضل ان يلطخ وجهها ، وترتدى أسمالا ، وتلقى فى الشوارع لتتضور جوعا • واذا كان لى أن احكم عليها لكنت أنفذ هذا • • نعم انفذه؟ اننى امقتها • واذا كان لى أن الومها لحالتها هذه فاننى اذهب الى أى مكان لافعل هذا • واذا استطعت ان ارسلها للقبر لفعلت • واذا كان هناك كلمة تقال لها لتهدئة روحها وهى تحتضر ، لكنت استطيع قولها ، كنت اقولها من اجل الحياة نفسها • وكان صدى كلامها ينقل تأثيرا ضعيفا لعاطفتها التى استولت عليها • ولا يفى الوصف هنا لكى اعبر عما فهمته عنها • فقد رأيت العواطف فى صورها المختلفه ، ولكننى لم أرها على مثل هذه الصورة •

وعندما لحقت بمستر بيجوتى كان يسير متمهلا مفكرا • وأخبرنى عندما لحقت به ، انه قد ترك ما اقترحته فى لندن فانه ينوى الرحيل للبحث عنها تلك الليلة • فسألته: "اين ينوى الذهاب؟ فأجاب: اننى سأذهب ياسيدى للبحث عن ابنة اخى • اننى سأبحث عنها فى جميع أرجاء الارض • واذا أصابنى ضرر تذكر أن آخر كلمات اتركها لها كانت: "ان حبى لم يتغير تجاه طفلتى العزيزة • ولقد سامحتها" • وكان حبى لدورا يزداد اكثر من ذى قبل • وأثناء حديثى مع سبنلو علمت فى النهاية ان عيد ميلاد دورا سيكون بعد أسبوع • وانه سيكون سعيدا اذا ذهبت معهم فى رحلة خلوية بهذه المناسبه • ولقد تصرفت تصرفا غير طبيعيا فكنت آتى بسخافات عديدة وأنا أقوم بالتحضير لهذه المناسبه • وقد قمت بشراء ربطة العنق • وجلست فى العربه الذاهبه الى نوروود فى الليله السابقه على الرحله • وفى الساعة العاشرة ركبت الحصان وذهبت الى نوروود وأنا احمل باقة من الورد •

وكانت العربة مفتوحه ، وجلست في الخلف وجلست دورا وامامها الى الخيل ، تنظر الى ، وكانت تحتفظ بالباقه بجوار وسادتها ، ولم تسمح لكلبها (بيب) بالجلوس على هذا الجانب وكانت تحمل الباقة بين يديها ، وتنعش نفسها بتبسم عبيدها بين حين وآخر ، ولم أدر الى أى مدى سرنا او أين نحن ذاهبون ، فربما كنا بجوار جيلدفورد ، وربما يكون أحد سحرة ألف ليله وليله قد افتتح اليوم ، ثم اغلق عندما ابتعدنا عنه ، فكانت تبته من الارض خضراء عليها حشائش سندسيه ، وثمة أشجار ظليلـــه ، وكانت الارض تترامى على مرأى العين .

•• وكان هناك من ينتظرنا ، وكانت غيرتي لاحدود لها حتى من النساء ، وكان عدوي شابا أحمر السوالف ويكبرني بثلاث أو أربع سنوات ، وأخرجنا ما في السلال وأعددنا العدة للغذاء ، وقال ذو السوالف الحمراء انه يستطيع عمل السلاطة وكان يريد أن يظهر نفسه بهذه الطريقة ، وكانت النساء — وبينهم دورا — يعاونونه ، وقلت لقد وضع القدر هذا الشخص في طريقي ولابد أن يسقط أحدنا ، وبعد أن قام بعمل السلاطه تعجبت كيف استطاعوا أكلها فانى لم استطع أن اذوقها ، وبعد ذلك قام بعمل مخزن النبيذ وكان يضعه في جزع شجرة ، وبعدئذ وجدته يجلس عند اقدام دورا وهو يأكل كمية من الكابوريا في طبقه ، ولم أتذكر جيدا ماحدث بعد ذلك ، فقد كنت مرحا ولكنه كان مرحا أجوفا ، فقد توددت الى فتاة صغيرة ذات عيون صغيرة ، وكانت تتلقى اهتمامي بها بلطف ، ولكني لم أعرف إذا كان ذلك من أجلي أو لانها تريد اصطياد الشخص ذا السوالف الحمراء .

وكانت والدتها ترتدي رداءا أخضرا ، وقامت بالتفريق بيننا بدافع التهدئه ، وبعد انتهاء الطعام وبعد أن تفرق الجمع قمت أمشي بين الاشجار وأنا في حالة من الغضب ، وكنت أسأل نفسي ، هل أتظاهر بأنني متوعك ثم أرحل بدون أن اعرف الرأين — وفي هذه اللحظة قابلتني دورا ، ولم أعرف ماذا أفعل ، فقد كنت أحترمه بطريقة غير عادية ، ولكني اخذت يد دورا الصغيرة وقبلتها — وتركتني اقبلها ، وبدى لي أننا صعدنا الى السماء ، ولم نهبط مرة أخرى ، فقد بقينا هناك طوال الامسية ، وكنا في بادئ الامر نسير بين الاشجار ، وهي تحتضنني بخجل ، وكنت أود ان أبقى سائرا معها بين الاشجار الى الابد .

ولكننا سمعنا الاخرين يتحدثون ويضحكون ، وصاحوا : "اين دورا ؟ عدنا ، ورغبوا في أن تغنى دورا ، وأراد ذو السوالف الحمراء ان يحضر الجيتار من القريه ولكن دورا أخبرته أنني الوحيد الذى يعرف مكانها ، واحضرتها وأخرجتها من صندوقها ، وجلست بجوارها وحملت منديلها وقفازها ، واستوعبت كل نغمه لصوتها ، وغنت لى •• محبوبتها ، وصفق لها الجميع كثيرا كما يحلو لهم ، ولكن لم يكن لهم علاقة بالامر ، وغمرني السرور ، وسعدت أكثر عندما انفضت الجماعة ، وذهب ذو السوالف الحمراء والباقون كل في طريقه ، وذهبنا نحن في طريقنا في المساء الهادى وضوء النهار ، والرائحه العطرة حولنا في كل مكان ، وافترقنا ، وكنت أشعر بلمسة يدها في الوداع وانا في طريقي الى لندن ، وكنت أستعيد كل حادثة وكل كلمة آلاف المرات وعندما ذهبت الى فراشي كان يسيطر على حواسي جميعا شعور البهجة والسرور .

وعندما استيقظت في صباح اليوم التالى ، صممت على أن أفصح عن عاطفتي لدورا ، وأحدد مصيري وبذا يكون السؤال هل سعادة أم شقاء ، فليس ثمة سؤال آخر اعرفه ، وكانت دورا هى التى ستحدد الاجابة عليه ، وكنت أذرع الشارع ذهابا وجيئة عدة مرات ، وكذا حول الميدان وذلك قبل أن اصعد الدرج وأطرق الباب ، وادخلت الى غرفة في الطابق العلوى ، وكان دورا ترسم زهورا ، وكم فرحت عندما عرفت انها زهوري ، وقالت دورا وهي ترفع عيونها الجميله : "آمل الا يكون فرسك المسكين قد أصابه التعب عند وصولك الى المنزل أثناء الليل ، فقد كان طريقا طويلا بالنسبه له ، فكرت في أن أفصح الامر اليوم ، وقلت : " لقد كان طريقا طويلا بالنسبه له لانه لم يكن هناك مايعنيه على الطريق ، فسألت دورا : "الم يطعم المسكين؟ " وفكرت في ارجاء الامر للغد ، وقلت : "نعم ، نعم لقد اعتنيت به ولكني لم اعنى به العناية المعتادة ولم يكن سعيدا مثلى لقربى منك

وقالت دورا بعد برهة وهى تحنى رأسها على رسومها — اما انا فجلست فترة ، احترق من الحمى وجلاى في حالة تجمد ثم قالت : "الم تبدو عليك السعادة لوقت ما خلال اليوم" ، ورأيت ان يجب أن أفصح الامر في الحال .

وقالت دورا ، وهى ترفع حاجبيها قليلا وتهز رأسها : "الم تكن تهتم بهذه السعادة على الاقل ، عندما كنت تجلس بجوار مس كيت ، وكيف كنا اعلم اسم المخلوقة الصغيرة التى كانت ترتدى ملابس وردية ، ذات العيون الصغيرة . وقالت دورا : "انني لا أدرى لماذا تسميها سعادة . انك لاتعنى ماتقول طبعــــا ، وانني متأكدة انك حر فى أن تفعل ما تشاء .. ياجيب .. تعالى .. هنا يا أيها الشقى " . ولم أعــرف كيف افصحت عما أريد وكان ذلك فى لحظة . ونحيت جيب وأصبحت دورا بين ذراعى . وكنت بليغا في الكلام . وحدثتها عن حبى لها وأخبرتها اننى سأموت بدونها ، وأننى اعبدها . وكان جيـــب ينبح طوال الوقت .

وعندما خفضت دورا رأسها وبكت وارتعدت ، ازدادت بلاغتى . وأصبحت على استعداد أن أمـــوت من أجلها اذا طلبت ذلك . فليست الحياة شيئا بدون حب دورا ، وماكنت احتملها فاننى احببتها منـــذ ان رأيتها أول مرة . ولقد أحب المحبون وسيحبون ولكنهم سوف لايحبون كما أحببت دورا . وكلما ازدادت انفعالا ازداد جيب نباحا . حسنا ، وجلسنا أنا ودورا بعدئذ على الاريكة هادئين تماما ، ورقـــد جيب على ركبتيها ، وهو ينظر الى بهدوء . وكنت فى حالة من الانفعال التام ثم خطبنا أنا ودورا . ولاننــا كنا فى مقتبل العمر فلم نفكر فى الماضى او المستقبل وليس لنا أمانى إلا الحاضر . واتفقنا على ابقـــاء الامر سرا بالنسبة لمستر سبنلو ، ولم أفكر ان هذا الامر غير كريم . وكان الوقت يسير وئيدا ولكنها سعادة كبرى . وعندما كنت أسير ممتلئا بهذا السر وبالفخر لحبى لدورا ، وأننى محبوب جدا ، ولم أشعر الا اننى احلق فى الافاق وفى الهواء فوق الناس . ياله من وقت وئيد ، ولقد تركز عمرى كله فى قبضة هذا الوقـــت وليس هناك شيئا يجعلنى ابتسم مثل هذا الامر أو افكر فيه برقة وشعور كهذا الامر .

(الفصـــــل العاشـــر)

عندما عدت أنا وبيجوتى الى منزلى فى احدى الامسيات ، دهشنا اذ وجدنا الباب الخارجـــى مفتوحا (وكنت قد أغلقته) وسمعنا أصواتا بالداخل . ونظرنا الى بعضنا البعض ، ولم ندر ما الذى نتجه من هذا ، ثم دخلنا الى حجرة الجلوس . ولدهشتى وجدت عمتى هناك ، وكان معها مستر ديك . وكانت تجلس عمتى على حاجيات السفر الخاصة بها ، وكان مستر ديك يتكئ على طائرة كبيرة مثل التى كنا نطلقهـــا معا ، وحوله حاجيات سفر أخرى . فصحت : "يا عمتى العزيزة ، يالها من مفاجأة سارة" . وتعانقنـــا بحماس ، وصافحت مستر ديك بحرارة . وتجاسرت على عقاب عمتى للجلوس على صندوق . وقلت : "دعيـــنى أسحب لك الاريكة أو أى مقعد هنا ياعمتى ، لماذا تجهدين نفسك هكذا ؟ فقالت عمتى : "أشكـــرك ياتروت ، انى أفضل الجلوس على حاجياتى .

وكنت أعرف عمتى حين يشغل بالها أمرا هاما ، وكان هناك أمر هام بمناسبة هذه الزيارة لايمكـــن ان يتوقعه أحد وكانت تمعن النظر فى اذ اعتقدت اننى مشغول الذهن . وعندما عرفت انها ستتحدث جلست بجوارها ، وداعبت طيورها وقططها ، وكنت مرنا قدر ما استطعت معها . ولكنى لم اكن فعلا مرنا ، وكـــان مستر ديك يهز رأسه لى سرا وهو يشير اليها . قالت عمتى أخيرا عندما شربت الشاى : "ياعزيزى تروت وكانت تنظر الى باهتمام : "بماذا تعلل جلوسى بجوار حاجياتى الليلة " . وهززت رأسى باشارة تدل علـــى انى لا أستطيع فهم السبب . قالت عمتى : "لان هذا كل مالدى ، فقد افلست ياعزيزى " . واذا كان المنزل ومن فيه قد سقطوا فى البحر لما صدمت بهذا القدر . وقالت عمتى : "ويعرف ديك هذا . لقد افلســـت ياعزيزتى تروت . فكل ما أملك فى هذه الحجرة الا الكوخ الذى تركت جانيت لتؤجره . اننى أريد ايجـــاد فراش لهذا الرجل يابيجوتى الليلة . ولتوفير المصروفات ، يمكنك أن تعد لى شيئا هنا . انه يكفى أى شـــئ لليلة فقط ، وسنتحدث فى هذا الامر تفصيلا غدا .

وأفقت من دهشتى على بكائها فوق كتفى ، وكانت تقول انها حزينة من أجلى فقط . وفى لحظة استعادت شعورها ، وقالت بلهجة الانتصار اكثر منها لهجة الحزن : "اننا يجب ان نلاقى الاحزان بشجاعة ولانجعلها ترهبنا ياعزيزى . اننا يجب ان نواجه سوء الحظ ياتروت" . لقد كنت تعسا للغاية . وتصورت كيف سأكـــون وأنا فقير فى نظر مستر سبنلو ، فقد تغيرت الامور عما كنت عليه حين عرضت امر خطبتى لدورا ، وقـــررت ان اخبر دورا بظروفى ، وأعفيها من الخطوبة اذا وجدت هى أن ذلك يلائمها . وقررت أن أكد لاعيش خـلال دراستى ، وصممت على أن اعمل شيئا لاساعد عمتى ، ولم أجد مخرجا من الامر . كم كنت تعسا تلك الليلة .

وقررت أن أول خطوة يجب أن تكون هي الغاء دراستي واسترداد القسط الذى دفع، ووصلت المكتب فى التو ووصل مستر سبنلو صارما ولكنه كان مبتهجا . وقال "كيف حالك ياكوبرفيلد ؟ صباح الخير" قلت "صباح جلد يا ،هل يمكنى أن اتحدث اليك قبل ذهابك للمحكمة؟ " قال : "طبعا تعال الى حجرتى " وتبعته الى حجرته وارتدى روبه وهو يعدل من ملابسه امام مرآة . قلت: "انى آسف ان اقول أن لدى اخبارا غير مشجعة عن عمتى " . قال : "لا ، يا الهى ، آمل الا يكون شللا؟ " فأجبت "ان الامر لا يتعلق بصحتها ، لقد اصيبت بخسارة كبيرة . وفى الواقع لم يتبق لها الا القليل " . وقال مستر سبنلو : "لقد ادهشتنى ياكوبرفيلد " . وهززت رأسى وقلت : "هذا حقيقة ياسيدى . لقد تغيرت احوالها ، وانى اود أن اسألك اذا ماكان من الممكن تنصحه من جانبك ان تتنازل عن جزء من القسط ، قلت هذا بسرعه وأنا اتوقع تجهمه والغاء دراستى ؟

.. ولا يعلم أحد مدى ماكلفنى هذا الاقتراح ، فقد كان مثل طلب ابتعادى عن دورا . ـ "الغى دراستك ياكوبرفيلد ؟ الغيها ؟ وشرحت بحزم اننى كنت لا أعرف من أين تأتينى مصادر معيشتى ، وانى يجب الان ان اتكسب قوتى بنفسى . واننى لا أخشى المستقبل ، واكدت هذا وكأننى أقرر اننى مصر على ان اكون عند حسن ظن من تبنتنى تلك الايام ، ولكن بالنسبه للوقت الحاضر فانه يجب أن اعتمد على نفسى . وقال مستر سبنلو: "اننى آسف لسماع هذا ياكوبرفيلد ، آسف للغاية . ولكنه ليس من المعتاد الغاء الدراسة لمثل هذا السبب . انك لا تدرس منهجا يؤهلك لعمل ، ان الامر بعيد عن هذا . وفى نفس الوقت ..." وتمتمت وأنا اتوقع موافقته: "انك لرجل طيب ياسيدى" . وقال مستر سبنلو: لا داعى للشكر ، وفى نفس الوقت كنت سأقول "انه لو لم يكن لى شريك وهو المستر جوركنز..." وتحطمت آمالى فى لحظة ، ولكنى بذلت مجهودا اكبر . وقلت: "هل تظن ياسيدى اننى لو ذكرت الامر لمستر جوركنز..." وهز مستر سبنلو رأسه غير مشجع وأجاب : "ان الله لا يحب ياكوبرفيلد ان اظلم احدا ولكنى أعرف شريكى ياكوبرفيلد . انه لا يستجيب لطلب شاذ كهذا . وهو صعب المراس . انك تعرفنى من هو.

.. وادركت انه من المستحيل استعادة الالف جنيه الخاصة بعمتى . ولما يأست تركت المكتب وعدت الى المنزل . وكنت احاول ان أوطد نفسى على تلقى الاسوأ من هذا عندما اتتعرية خلفى مما جعلنى انظر اليها وفجأة رأيت يدا بيضاء تمتد نحوى من النافذه ، وثمة وجه لم أره منذ أمد ، وجه يشيع بالسعادة وكان يبتسم لى . وصحت بفرح : "اجنس . ياعزيزتى اجنس . اننى سعيد للغاية برؤياك . وقلت "احقا هذا؟ " فقلت : "انى اود الحديث معك كثيرا ، انه لمما يسعد قلبى ان انظر اليك . لقد أتت اجنس للندن لمقابلة عمتى . ولم تكن بمفردها فقد كان معها والدها ويوريا هيب . وقلت: "انهما شركاء الان . لعنة الله" قالت اجنس : "نعم ، لدينا عملا هنا ، وانتهزت فرصة مجيئنا وحضرت هنا أيضا وأرجو الا تضايقك زيارتى ياتروتوود ، لاننى لا أرغب ان يذهب ابى بمفرده . فسأذهب معه.

ـ "الا يزال يمارس السيطرة على مستر ويكفيلد يا اجنس؟ " وهزت اجنس رأسها وقالت : "ان هناك تغييرا حدث بالمنزل . فهم يعيشون معنا الان . والمؤسف فى الامر اننى لا أستطيع ان أكون بالقرب من والدى بقدر قربى من يوريا الذى يقوم دائما بالتفرقة بيننا . ولذا لا أستطيع أن أراه بالقدر الكافى ولكن ثمة تزوير او خيانه تجاهه ، فاننى اعتقد أن الحب والصدق هى الاقوى فى نهاية الامر ، اكثر من الشر أو سوء النية . ووجدنا عمتى بمفردها . واستقبلتنا بروح عاليه . وأخبرتهم بمحاولتى فى الصباح .

ـ انك لكريم يابنى ـ يجب أن أقول لك الان ايها الشاب ـ واننى لفخورة بك ياعزيزى . والان ياتروت ويا اجنس دعونا نبحث حالة بتساى ترتوود ونرى موقفها . ولاحظت شحوب اجنس وهى تنظر باهتمام الى عمتى . وكانت تربت عمتى على قطتها وتنظر باهتمام لاجنسى .

.. وقالت لها عمتى التى كانت تخفى أمرها : "بتساى ترتوود ـ اننى لا أعنى اختك بل نفسى ـ كان لديها بعض الممتلكات . ولا يهم قدرها ، ولكن كانت تكفيها للمعيشه . وقد استثمرتها بناء على نصيحه رجل اعمال . فجاءت بفائدة حسنة فى بادئ الامر حتى ان بتساى اصبحت ثريه . ولذا بحثت عن استثمارات أخرى معتقده انها أكثر حكمة من رجل أعمالها الذى لم يكن على مايرام فى تلك الايام ـ اننى أعنى والدك يا اجنس ـ واخذت الامر على عاتقها . وكانت الخسارة خفيفه أول الامر ثم أصبحت فادحه .

• •وانهت عمتي حديثها ، ونظرت بزهو الى اجنسى التى بدأ لونها يتغير بالتدريج • وقالت اجنسى : أهذا هو كل ما فى الموضوع ياعزيزتي مس ترتود ؟ " فقالت عمتي : "أعتقد ان هذا يكفى ياطفلتي • فلو أنه كان هناك مالا اكثر لفقد ، اذن فهذا كل ما فى الموضوع ولكن مادام لم يعد هناك مال اذن فليس هناك أيضا داع للحديث" • وكانت اجنس تصغى أول الامر مأخوذة • وكان لون وجهها مقفهرا ثم أخذت تتنفس بحرية أكثر وكنت اعرف السبب • فقد كانت تخشى ان يكون لوالدها يد فى الامر ويقع عليه اللوم • ولكن عمتي أخذت يدها بين يديها وضحكت•

ثم رددت عمتي عباراتها قائله: "اهذا كل ما فى الموضوع ؟ ! نعم هذا هو كل ما فى الموضوع • وهي تعيش سعيدة بعد ذلك • والان يا أجنس انك حكيمة • وأنت أيضا ياتروت رغم انني لا أمتدحك " • وهزت عمتي رأسها بحماس محمود وقالت: "ما الذى تفعله الان ؟ فعندي الكوخ الذى يدر سبعين جنيها سنويا وهذا كل ما نملك • وقالت اجنسى : "لقد كنت أفكر ياترتود ، انه اذا كان لديك من الوقت • "
ـ "ان لدى وقتا كثيرا يا أجنس • ولا أكون مشغولا بعد الرابعة او الخامسة كما أن لدى وقتا فى الصباح •
وقالت اجنس وهى تتحدث بصوت منخفض وتتجه نحوى: "انني اعرف انه ليس لديك مانع من العمل كسكرتير •
ـ "ليس لدي مانع ، يا اجنس؟ "

واستمرت اجنس قائله: "لان دكتور سترونج ، اعتزل الخدمة ويقيم فى لندن ، وطلب من والدى أن يختار له شخصا ، والا تظن ان يفضل تلميذه العزيز القديم معه عن أى شخص آخر؟ " قلت: "ياعزيزتي اجنس ، ماذا كنت أفعل بدونك • انك دائما ملاكي الخير • أنا قلت لك هذا • انني دائما لا أستطيع ان افكر فيك الا بهذه الصفه • وضحكت اجنس ضحكتها اللطيفه ، ان ملاكا واحدا كافيا "وكانت تمدنى دوما" واخبرتني بأن الدكتور ينشغل بدراسته فى الصباح المبكر وفى المساء ، وان هذا ربما يلائم مواعيد فراغي تماما • وكنت مبتهجا بفكرة تكسب قوتي • وبناء على نصيحة اجنس ، حررت خطابا للدكتور سترونج وأرسلته بالبريد دون اضاعة أى وقت • ولكني كنت اتوق لعمل شئ آخر ، فذهبت الى ترادلز • واصطحبت مستر ديك معي ، حيث انه بدأ يشعر بقلق بسبب جوده • ولم يكن لديه عمل يعمله • وكان يشعر انه لا يستطيع انهاء مذكراته الخاصة بالملك شارل • فقررت لقاء ترادلز فى محاولة لمساعدتي • ووجدناه يعمل بجد واستقبلنا بحرارة ، وتودد الى مستر ديك فى لحظات•

وكان أول موضوع استشير فيه ترادلز هو انني سمعت عن أناس يحررون المناظرات البرلمانيه ، وكنت اود معرفة كيف يمكن أن أؤهل نفسي لهذا • وأخبرني ترادلز بعد استفساراته ان اتقان الاختزال أصعب من تعلم ستة لغات ، ولكن يمكن تعلمها بالمثابرة خلال سنوات قليله • فقلت: "اشكرك ياترادلز جدا سأبدأ غدا • ودهش ترادلز جدا • وقلت: سأشترى كتابا لهذا الفن • انني سأتقنه ياعزيزى ترادلز وقال ترادلز وهو مندهش ا • يا الهى ، انني لم أكن اعلم انك قوى العزيمة هكذا ياكوبرفيلد • ولم أكن أعرف من الامر شيئا حيث انك كنت جديدا بالنسبه لى • وأجلست مستر ديك على السجادة • وقال مستر ديك: "هل يمكن لى ان اعمل شيئا يامستر ترادلز ، أقرع طبله أو أنفخ شيئا • يالشخص المسكين انه يفضل مثل هذه الاشياء على أى شئ آخر • وأجاب ترادلز وهو يبتسم : "ولكنك كاتب ممتاز ياسيدى الم تخبرنى بذلك ياكوبرفيلد " •

قلت: "ممتاز للغاية" ـ وكان فعلا يكتب بنظام غريب • وقال ترادلز: "الا تظن انك تستطيع ان تنسخ الكتابه اذا احضرتها لك ياسيدى ؟ ونظر الى مستر ديك بشك: "ما رأيك ياترتوود ؟ وهززت رأسي وهز مستر ديك رأسه وتنهد وقال : "اخبره عن المذكرات" • وأخبرت ترادلز بالامر ، وكان مستر ديك ينظر الى ترادلز بجديه وهو يمص ابهامه • وقال ترادلز بعد تفكير قليل : "ولكن هذه الكتابات ، التى اتحدث عنها انتهت • ومستر ديك ليس له شأن بها • اليس هناك فرقا ياكوبرفيلد ؟ ولكن هل لنا ان نحاول ؟
ولقد رأينا ان يأتى عملا يوافقه ، وكسب فى السبت التالى عشرة شلنات وتسع بنسات • وكان يضعهم فى شكل قلب على صينيه ويقدمهم لعمتي وفى عينه دموع الفرح والكبرياء • وقال مستر ديك : "سوف لا يكون هناك جوع • انني سأتولى الانفاق عليها ياسيدى " • ـ وكان يهزيديه فى الهواء • وكنت لا أعرف من منا كان أكثر سرورا ، ترادلز أم انا • وقال ترادلز فجأة بعد أن أخرج خطابا من جيبه وسلمه لى : "لقد نسيت مستر ميكوبر تماما " • وكان الخطاب موجها الى ، (وهو لم يترك فرصه دون الكتابه

الى) عن طريق ترادلز . وقد جاء بالخطاب ماياتى : "عزيزى كوبرفيلد " . ربما لا تتوقع أن شيئا مهما قد حدث . فقد ذكرت لك فى مناسبة سابقة اننى كنت أتوقع مثل هذا الحادث . اننى على وشك الاقامة فى احدى مقاطعات بلدنا (حيث يمتزج المجتمع من زراع ومثقفين) لالتحق بأحدى الوظائف وستصحبنى زوجتى وأولادى . وقد لا أستطيع أنا ومسز ميكوبر اخفاء مايدور فى ذهننا وهو أننا قد نفترق سنوات وربما الى الابد ، وربما تضيع أواصر الرابطه القويه لحياتنا الزوجيه المقدسة . واذا امكنك ان تحضر ليلة الفراق وكذا مستر ترادلز ، بمنزلنا الحالى ، ونتبادل التمنيات التى تلائم المناسبات فاننى سأظل ، المخلص الى الابد ويلكنز ميكوبر .

وسررت لوجود تغيير فى النهاية . وذهبنا الى المسكن الذى يقطنه مستر ميكوبر سويا . قال مستر ميكوبر : "ياعزيزى كوبرفيلد انت ومستر ترادلز انكما ترانا على وشك الهجرة . وأرجو المعذرة بسبب اية متاعب تحدث فى الموقف ولما نظرت حولى وأنا أرد عليه ، لاحظت أن حاجيات الاسرة قد حزمت وأن الحاجيات لم تكن كثيرة وهنأت مسز ميكوبر على التغيير المرتقب . قالت مسز ميكوبر : "ياعزيزى كوبرفيلد اننى اشعر بمودتك تجاه أمورنا . وقد تظن عائلتى ان هذا الامر عزلة ، ولكنى زوجة وأم ، وسوف لا أهجر مستر ميكوبر أبدا ! " وقالت : "وهذا هو رأيى يامستر كوبرفيلد وياترادلز ، وواجبى منذ كنت أكرر هذه الكلمات : "انا ابدا اتبعك ياويلكنز" وقد قرأت القداس فى الليلة السابقه ، واستنتجت منه أننى لا يمكن ان أهجر مستر ميكوبر وقالت : "وعلى الرغم انه من المستحيل ان أكون مخطئه ، فيمايتعلق بهذا الموضوع الا اننى سوف لا أفعل ذلك . قد تكون تضحيه ان أعيش بمفردى فى كاتدرال تون ، ولكن اذا كان الامر تضحية بالنسبة لى ، فانه اكثر تضحية بالنسبه لرجل له مواهب مستر ميكوبر " .

قلت : "أتذهبين الى كاتدرال تاون ؟ " وأجاب مستر ميكوبر . الى كانتربرى . لقد أعددت الترتيبات فى الواقع يامستر كوبرفيلد ، وتعاقدت مع صديقنا مستر هيب له معاونته بأن أكون كاتبا له . وعلقت فى مستر ميكوبر الذى سر لأن يشاهد دهشتى . وقالت مسز ميكوبر : "انى ما أطلبه من مستر ميكوبر أن يكون حريصا فى ممارسة هذا الفرع من القانون ، وأن يأمل فى أن يرتفع لأعلى . واننى مقتنعه انه يستطيع أن يهب عقله لهذه المهنه وان مواهبه الخفيه وفصاحته كلها أمور تجعله يبرز . اننى اتكلم كأننى بالضرورة . ولكن من رأيى دائما ان مستر ميكوبر يملك العقليه القانونيه ، وهو سيعمل الان فى ميدان سينمى عقله .

وتخيل مستر ميكوبر نفسه بعقليته القانونية وقال : "اننا ياعزيزتى يجب الا نسبق الحوادث . واذا كنت متحفظا بشأن ارتداء باروكه — وأشار الى رأسه العارية من الشعر — الا اننى مستعد لعمل هذا فى الخارج . اننى لست آسفا على شعرى وربما حرمت منه لسبب خاص . وليس فى نيتى يامستر كوبرفيلد أن أعلم ابنى من أجل ان يكون كاهنا رغم اننى أسعد أن يكون كاهنا كبيرا للكنيسة . قلت وأنا افكر فى يورايا هيب : " من أجل الكنيسه؟ " قال مستر ميكوبر : "نعم ، فله صوت جميل ، وسيبدأ كشماس . فوجودنا فى كانتربرى ، وعلاقاتنا المحليه ، سوف تعطى له بلاشك الفرصة لأى عمل شاغر بالكنيسة .

وعندما كنا نحتسى آخر قدح من الخمر ، وجهت حديثى الى ترادلز ، وذكرته بأنه يجب الا نفترق دون ان نتمنى لاصدقائنا الصحة والنجاح والسعادة فى حياتهم الجديدة . ورجوت مستر ميكوبر ان يملأ الاقداح ، وصافحته عبر المنضدة وقبلت مسز ميكوبر أن تشاركنا هذه المناسبة السعيدة . وحذا ميكوبر حذوى فى مصافحة مسز ميكوبر فقط وافترقنا وقلوب الجانبين مفعمة بالسرور .

(الفصل الحادى عشر)

اصبحت الان مشغولا للغاية ، أصحو الخامسة صباحا وأعود فى التاسعة او العاشرة مساء . ولكنى كنت راضيا بهذا المجهود المضنى ، فكلما أجهدت نفسى كلما كنت جديرا بدورا . وحتى الان لم تعرف دورا شيئا عن حالتى ، اللهم الا ماكنت أشير اليه فى خطابات عابرة . وأخيرا قررت أن أسألها اذا كان فى مقدورها ان تحب شحاذا . فقالت : "كيف يمكنك ان تسألنى عن أمر سخيف كهذا؟ أحب شحاذا؟! " قلت : "ياعزيزتى دورا ، اننى شحاذ " . فقالت وهى تضربنى على يدى : "كيف يمكن ان تكون أحمقا وتخبرنى بمثل هذه القصص ؟ سأجعل جيب يعضك" .

•• لقد كانت طريقتنا في التصرف كالاطفال ولكنها لطيفه ، فكررت قولي بحدية : "يادورا ياحياتي ، ان ديفيد المفلس ••" فقالت دورا وهي تهز خصلات شعرها : "انني سأجعل جيب يعضك اذا كنت ستتصرف بطريقه مضحكه كهذه" • ولكن بدى على الجد ، حتى انها وضعت يدها المرتعشه على كتفي وكفت عن هز شعرها ، وبدى عليها الخوف والقلق وبدأت في البكاء وكان هذا الامر مفزعا • قالت دورا واقتربت مني : "لاتتحدث عن فقرك وعملك المتواصل •• لا •• لا ••• فقلت : "ياعزيزتي المحبوبة ، انني اكسب فتات قوتي •••••" قالت دورا : "انني لا أود ان أسمع عن الفتات ، ويجب ان يحصل جيب على قطعه من اللحم يوميا في الثانية عشره حتى لايموت" ودهشت لتصرفها الطفولي ؛ ولما قلت انني ان أجهد نفسي ، وأصحو في الخامسة ، اثر عليها هذا تأثيرا بالغا •

وودعتني وهي تطيب خاطري كما لو كنت نادمه ، واخبرتني أنني في ذهنها دائما وقالت : "لا تصحو في الخامسه أيها الصبي الشقي • ان هذا غير معقول • قلت : " يامحبوبتي ، ان لدى عملا اقوم به" فأجابت دورا : "لاتقوم به • لماذا انت تقوم به؟ " وكان لابد أن اقول لهذه الصغيره بلطف ومداعبته اننا يجب ان نعمل لكي نعيش" • فصاحت دورا : "انه لامر مضحك" فقلت : "كيف يمكننا ان نعيش دون عمل يادوري ؟ " فقالت دورا : "كيف ؟ وبأي سبيل ؟ " ويبدو أنها كانت تفكر ثم ايقنت الموضوع ، وقبلتني من قلبها الطاهر • وفي أحد الايام عندما ذهبت الى مكتب المحاكم كالمعتاد ، دهشت اذ رأيت بعض الناس يتحدثون سويا ويحملقون في النوافذ المغلقه • فأسرعت ومررت بهم وأنا اتعجب من نظراتهم ودخلت مسرعا • وكان الكتبه والموظفين هناك ، ولكنهم كانوا لا يعملون •

وقال أحدهم عندما دخلت : "انها لمصيبة يامستر كوبرفيلد • فصحت : "ما الامر؟ " فصاح والتف الباقون حولي : "الا تعلم ؟ " فقلت وأنا اتفرس في وجوههم : لا • — مستر سبنلو — ما الذي حدث له ؟
— توفي ! قلت : "توفي ؟ " — لقد تناول الغذاء بالمدينه أمس ، وقاد عربته بنفسه ، ثم رجعت العربه بدونه وتوقفت الخيل عند باب الاسطبل • وخرج رجل بمصباح ولم يجد أحد بالعربة •"
— هل هربوا ؟ قال "تفي" وهو يضع نظارته : " لم يكونوا مسرعين كما علمت • واستيقظ اهل المنزل في الحال ، وخرج ثلاثه منهم الى الطريق • فوجدوه على بعد ميل • ولا يعلم أحد ان كان قد شعر بمرض أو انتابته حالة وأسعف طبيا في الحال ، ولكن سبق السيف العزل •

ولا أستطيع وصف حالتي الذهنية عندما علمت بهذا النبأ • وكرهت الموت من كل قلبي • ولم أستطع الكلام بسبب كرهي للحزن • وانتابني القلق عندما تخيلت دورا وهي تبكي مع الاخرين أو عندما يواسيها الاخرون • وكان لي رغبه شديدة ان أبعدها عن الناس وتبقى معه ، فأكون كل شئ بالنسبه لها في هذا الوقت وفي هذه المناسبه القاسية • ولقد بدا شيئا مدهشا لي عدم وجود وصيته ، فلم يكن لديه فكرة في عمل وصيته ، حيث أن اوراقه لها الدليل الكافي ، ولكن اموره كانت غير منتظمه أيضا • ولم يمكن التمييز بين ما عليه وما له ومايملك • ولكن تبين فيما بعد أنه كان ينفق اكثر من دخله من عمله الذي لم يكن كبيرا • ولم يكن لدورا المسكينه الا عمتين ، أختين لمستر سبنلو وكن آنسات ، ويعشن في بوتني ، ولم يكن لهما اتصال بشقيقهما الا التراسل بين حين وآخر •

•• وخرجت هاتين السيدتين من عزلتهما ، واقترحتا اخذ دورا للتعيش معهما في بوتني • وتعلقت دورا بهما بشدة ثم بكت وقالت "نعم ياعماتي ، خذوني أنا وجيب لبوتني " • ورحل الجميع بعد الجنازة مباشرة • ولم تسترح عمتي لحزني ، وادعت انه يجب ان اذهب الى دوفر وأرعى أمر الكوخ الذي اجرته •

•• ووجدت كل شئ في الكوخ على مايرام ، وأخبرتها بأن المستأجر يمنع أي شخص من الاقتراب من حديقتها مما زاد سرورها • ولما أنهيت اموري هناك ، ومكثت ليله واحدة ، عدت الى كانتربري مبكرا في الصباح • وجاء الشتاء ، والايام العاصفه البارده مما أضاء في الامل قليلا • وعندما حضرت الى كانتربري ، أخذت اتمشى في الشوارع بسرور مما هدأ من روعي وأثلج قلبي • ومن الغريب أن أقول ان تأثير هذا الهدوء كان يلازم افكاري عن أجنس ، ومن المدينه التي تسكن بها • وكذا مناظر ابراج الكنيسه والبوابات والتماثيل والاركان المنعزلة العتيقه التي مرعليها قرون وكذا الخرائب والمنازل القديمه والمراعي والحدائق ، وكنت في كل مكان ومن كل شئ كنت أشعر بنفس الهواء الساكن وكان هذا يهدأ من روعي • وعندما وصلت الى منزل مستر وكيفيلد ، وجدت مستر ميكوبر منهمكا في عمله في حجرة صغيره بالطابق الارضي حيث اعتاد يوريا هيب ان يجلس فيها مضى ، وكان يرتدي حلة سوداء ، كرجال القانون •

وسعد مستر ميكوبر برؤيتى ، ولكنه كان مرتبكا بعض الشئ أيضا . — ما رأيك فى القانون يا مستر ميكوبر" . فأجاب : "ياعزيزى كوبرفيلد ، بالنسبه للرجل الذى يملك قوى خياليه كبيره ، فانه يعترض فقط على التفاصيل التى فيه . وقال وهو ينظر الى بعض الخطابات التى كان يحررها : "حتى فى مراسلاتنا لا يمكن التقيد بنوع معين من التعبير . ولكنه عمل عظيم . وسألته عما اذا كان مستريحا مع زميله هيب والى معاملته له . فأجاب بصوت منخفض "لقد استجاب صديقى هيب الى رجاء لا أحتاج الاشارة اليه من اجله" . فقلت : "اننى مسرور بأن تجربتك تجد قبولا لديك" . قال مستر ميكوبر وهو يترنم بلحن : "انا شاكر لك ياعزيزى كوبرفيلد ."

وفهمت بوضوح أن هناك شيئا ما بينى وبينه ، منذ أن استلم عمله الجديد ، يمنع تآلفنا كما سبق عهدنا وغير تماما من طريقة اللقاء بيننا .ولم يكن أحد فى الداخل بحجرة الاستقبال ، رغم انها كانت تحمل علامات بوجود جيب . ونظرت الى حجرة أجنس فوجدتها جالسه بجوار المدفأة ، على مكتب عتيق وكانت تكتب . ولما أطفأت النور نظرت لى ، وأشرق وجهها بالترحيب بى . وقلت لها عندما جلسنا سويا : "آه يا أجنس ، لقد افتقدتك للغايه أخيرا" . قالت : "حقا ؟ وهكذا سريعا ؟" وهززت رأسى . — عندما لا تكونين معى يا أجنس لتقدمى لى المشورة فاننى اجد نفسى فى ضيق ومتاعب . وعندما لقيتك أخيرا سعدت بالامس والسعادة كما كنت أحس من قبل وبطريقتها الاخوية ، وعيونها المشرقه وصوتها الرقيق جعلتنى اخبرها بكل ماحدث منذ لقائنا الاخير .

وقلت عندما انهيت حديثى : "ليس هناك كلمة أخرى أخبرك بها يا أجنس ، ان اعتمادى عليك الان . فأجابت بابتسامه : "ان الاعتماد يجب الا يكون علىّ يا ترتود . بل يجب ان يكون على شخص آخر . قلت : "على دورا ؟" — بالتأكيد . وقلت بقليل من الارتباك : "اننى لم أذكر يا أجنس ، ان دورا من الصعب الاعتماد عليها . فهى روح طاهر وصادقه . ولا أعرف كيف أعبر عن هذا — انما نوع ما .. حقيقة يا اجنس . انها خجوله صغيرة ومن السهل ان ينتابها الا القلق والخوف . فقبل وفاة والدها منذ وقت مضى فكرت ان اخبرها ، ولكن لا يمكن ان اصف لك ماحدث . وبالتالى أخبرت اجنس عن فقرى . فردت بابتسامه : "آه ! يا ترتود ، انها نفس طريقتك القديمه . انك يجب الا تتحمس للدخول فى الحياة دون ان تفاجئ صبيه صغيره عديمة الخبرة . يا لدورا المسكينه . اننى لم أسمع مثل هذا العطف الذى يعبر عنه صوتها ، فى مثل هذا السرد .

.. واستفسرت بعد أن نظرت الى المدفأة برهه : "ماذا أنا فاعل يا اجنس ؟ ماهو التصرف الصائب الذى يجب أن افعله ؟ وقالت اجنس : "اعتقد ان الطريق الكريم الذى نتخذه هو أن تكتب لهاتين السيدتين . الا تعتقد ان أمرا سريا قد لا يكون حسنا ؟ ولو أنى مكانك لاقص بوضوح قدر الامكان ماحدث ، وأطلب السماح بزيارة منزلهما أحيانا .

— واذا كانت الانستين سبنلو (من طراز عتيق) ومن المحتمل الا يكونا ممن يحسن التخاطب معهما على هذا النحو ؟ فردت اجنس وهى ترفع عينها الى : "لا أظن ياترتود ، فكر فى الامر واذا وجدت انه الصواب فلتنفذه . ولم يكن لدى أى شك فى الموضوع . وبقلب مرح رغم شعور عميق بمسئولية ما سأقوم به . كرست طيلة بعد الظهر لكتابة الخطاب . وعند الغروب خرجت لافكر فيما يجب عمله . ولم أبتعد كثيرا عن المدينه ، عندما وجدت ممرا وتوقفت فى الغسق وشعرت بشخص خلفى . ولم أخطئ هيئة معطفه وتوقفت فقد كان يوريا هيب . وقلت : "حسنا ؟" قال : "انك تسير بسرعه . ان أرجلى طويله جدا ولكنك كلفتها مجهودا . قلت : "اين انت ذاهب ؟" — اننى سأسير معك ياستر كوبرفيلد اذا سمحت لى بهذا الشرف وقال هذا وهز جسمه ، وسار بجوارى . وقال : "لتعترف ياستر كوبرفيلد انك لم تحبنى كما أحببتك لقد كنت تظننى طوال الوقت متواضعا ، واننى لا أعجب لهذا ؟ فأجبت : "اننى لا أهتم بأمور التواضع او أى شئ آخر . وقال يوريا وقد أصبح وجهه شاحبا فى ضوء القمر : "الم أعرف أنا هذا ولكنك لا تفكر فى حقيقة شخص فى مركزى ياسيد كوبرفيلد . اننى ووالدى تربينا فى مدرسة للصبيه ، ووالدتى ايضا تربت فى مؤسسة للاحسان . وتعلمنا جميعا التواضع ولقد دربنا على هذا . ونعرف قدر انفسنا ونلتزم به . وكان والدى يقول : "كن متواضعا يايوريا ، وسر أمورك وسوف تكون أفضل النتائج . "وحقا لم تسر الامور متعثرة كما قال والدى" .

.. وطرأ ببالي أن هذه أول مرة ينشأ فيها مثل هذا التواضع الزائف في أسرة عيب .. لقد رأيت النتاج ولكنني لم أر البذور. وقال يورايا : "عندما كنت صبيا ، عرفت قيمة التواضع وتعودت عليه . فكنت آكل فطيرة متواضعة بشهية ، ولا زالت متواضعا حتى هذه اللحظة ، ياسيد كوبرفيلد ، ولكن لدى طاقة قليلة .

.. قال كل هذا ، وعرفت من وجهه انه مصمم على اعادة تعويض نفسه بقوته . ولم أشك في حقارته وحرفيته ودناءته ، ولكنني فهمت لاول مرة تماما ، انه حقير لا يمكن الاعتماد عليه ولديه روح الانتقام حيث انه عانى من ضغوط طويله . وعندما كنا معا نحن الثلاثه بمفردنا بعد الغذاء : أظهر روح مغامرة أكثر . فقد قال مخاطبا مستر ويكفيلد ، وهو يجلس امامه عند نهاية المنضدة : "اننا نادرا ما نرى زائرنا الحالي ولرى ان نرحب به باعطائه كوبا او اكثر من النبيذ ، اذا لم يكن لديك مانع ، في صحتك وسعادتك يامستر كوبرفيلد . ثم قال : "هيا أيها الشريك ، نفترض انك أعطيتنا شيئا او آخر ملائما لكوبرفيلد .

وعندما فكرت في اقتراحه لعمتي ولمستر ويكفيلد وليورايا ، وشربه كل شئ مضى اهفا ، وادراكه لضعفه وجهاده في مقاومة هذا دون أثر ، ونضاله في شركته المخزية ليورايا وهو يحاول مهادنته في نفس الوقت — كل هذا جعلني أشعر بامتعاض عند رؤيته واحجمت يدى عن كتابته . وتقوم يورايا بقول :" هيا أيها الشريك ، سأعطيك قدحا آخر ، انني شخص متواضع ، ولكنني أعجب بهما بل واعبدها : اجنس ، اجنس ويكفيلد ، اني أستطيع ان اقول ، انما أقدس جنسها . هل يمكنني أن اتحدث بين الاصدقاء ؟ انك لتفخر أن تكون والدها ، ولكن أن تكون زوجها ..... وأرجو ان أعفى من سماع مثل الصرخة التي صرخها والدها اذ تحت المنضدة . وصاح مستر ويكفيلد : "انظر اليه" . وأشار الى يورايا ، وهو شاحب وخرج عن حواره ودهش انظر الى الذى يعذبني ، لقد بنيت قبله اسمى وكذا الشهره والسلام والهدوء وكذا منزلي خطوة خطوة .

وصاح يورايا وهو يشير بأصبعه الطويل : " انه من الافضل ان توقفه عند حده ياكوبرفيلد اذا شئت سيقول شيئا الان ، وسيأسف على قوله فيما بعد ، وستأسف انت لسماعه . اننا انت وأنا نعرف ما نعرفه أليس كذلك ؟ فلتكذب الكلاب النائمه ، من يريد أن يوقظهم ؟ انا لا أريد . الا ترى انني متواضع بقدر ما يمكنني ، اما اذا خرجت عن طوري فاني آسف لذلك . وصاح مستر ويكفيلد : "آه ياترتوود ، ماذا كنت انا عليه عندما حضرت أول مرة الى المنزل . كنت أنحدر عندئذ ، وعبرت طريقا كئيبا حزينا . فقد حطمني الضعف . فانه يقيد عنقي . كنت تجده في المنزل وفي عملي . لقد سمعته منذ لحظات . ماذا يمكن ان أقوله اكثر من هذا .

وقال يورايا بين مزيج من الفضول والتحدى : "لا داعى لان تقول اكثر من هذا ، أو نصف هذا . ماكان يحدث لك مثل هذا ، لولا النبيذ . ستفكر في الامر غدا بطريقة أفضل ياسيدى . فاذا كنت قد قلت الكثير ، أو اكثر مما أعنى ، فما الذى حدث" . وفتح الباب ودخلت اجنس وهى شاحبه ، ووضعت ذراعها حول رقبة والدها ، وقالت بثبات : "انك لست على مايرام ياوالدى . تعال معى" . — ووضع رأسه على كتفها ، كما لو كان يثقله عار كبير ، وخرج معها . والتقت عيناها بعيني لحظه ، وعلمت انها كانت تعرف ماحدث .

وقال يورايا انني لم اتوقع انه سيتصرف بمثل هذه الخشونه ياسيد كوبرفيلد ولكن لا يهم . سنصبح أصدقاء غدا . انه لصالحه . انني قلق لصالحه .. ومع أول ضوء في الصباح الباكر ركبت العربه عند باب الفندق . وبدأنا الرحيل مع الشروق ، وبينما كنت افكر فيهما ، جاء الى العربه يورايا . وقال يهمس : "ياكوبرفيلد . اظن انك ستفرح اذا سمعت قبل رحيلك انني كنت في حجرته الان ، وكل شئ يسير على مايرام ، وهو يدرك مصلحته عندما لا يكون تحت تأثير الشراب . ومع هذا فهو رجل مقبول ياسيد كوبرفيلد . وأجبرت نفسي على القول بأنني مسرور لانه اعتذر . قال يورايا : "تأكد ، عندما يكون الشخص متواضعا ، فهل تعرف ما هو الاعتذار ؟ بمنتهى السهوله أقول لك" — وهز جسده — فانك قد اقتطفت فاكهة (كمثرى) قبل نضوجها ، ياسيد كوبرفيلد . فأجبت : "أعتقد هذا" . قال يورايا : "لقد فعلت ذ ا في الليله الماضيه . انها ستنضج حالا . وهى تحتاج الانتباه فقط .. ويمكنني الانتظار . وجاء الرد في النهاية من السيدتين ، وقدما تحياتهما للسيد كوبرفيلد ، وأخبراه انهما أوليا خطابه كل عنايه ، ويسرهما اذا تفضل بزيارتهما ليتحدثا معه في الامر .

وقلت ان عمتي ستفخر وتفرح بالتعرف بهما ، على الرغم انني لست متأكدا ان الامور قد لا تسير معهما على مايرام . ولدهشتي سارت الامور بينهما وبين عمتي على مايرام وتآلفوا اكثر مما توقعت . ووافقت عمتا دورا على ان عمتي شاذة بعض الشئ ، وذات فهم عال ، وهي تحبني ، وهي تضحي بملذاتها الخاصة من أجل راحة الجماعة . وأعجبني كثيرا شئ واحد ، وهو أن دورا بدت باتفاق الجميع على انها لعبة جميلة . وكانت عمتي التي صادقتها بالتدريج تدعوها بالزهرة الصغيرة ، وكانوا جميعا يعاملون دورا من حيث قدرها كما كانت تعامل هي جيب . وقررت ان اتحدث الى دورا في هذا الموضوع ، وعندما كنا نسير معا يوما ما قلت لها انني اود أن تجعلهم يعاملونها بطريقة مختلفة . وقلت : "لانك ياعزيزتي لست طفلة" .

وقالت دورا : "آه ، انك ستغضب" . — أغضب ياحبيبتي ؟ قالت دورا : "انني متأكدة من انهم يعطفون علي ، وأنا سعيدة . وقلت : "حسنا ، ولكن ياعزيزتي ، يمكنك ان تكوني سعيدة ، فقط تعاملين بتعقل أكثر . ونظرت الى دورا نظرة اللوم — وهي أجمل نظرة — ثم بدأت تنتحب قائلة اذا لم أكن أحبها ، فلما وددت بشدة أن اخطبها ؟ ولماذا لا أرحل اذا لم أكن احتملها ؟ وما عساي كنت أستطيع عمله الا أن أقبل دموعها . وقالت دورا : "انني متأكدة من انني عاطفية ، فلا تكن قاسيا علي ، يادودي . — قاسيا ياحبيبتي الغالية ، انني لا أستطيع أن اكون قاسيا عليك بالمرة . وقالت دورا وهي تغلق فمها : "لاتتسقط لي الاخطاء ، وسأكون على مايرام" .

ودهشت لطلبها كتاب الطهي الذي سبق ان تحدثت عنه مرة ، وأن اريها كيفية امساك الحسابات ، كما وعدتها من قبل واحضرت معي الكتاب في الزيارة التاليه . وعندما ذهبنا الى المحاكم ، أطلعتها على كتاب في شئون المنزل خاص بعمتي ، وأحضرت لها بعض اللوازم لتمارس بها شئون المنزل . ولكن كتاب الطهي والحسابات سببت لها صداعا وجعلها تبكي وقالت : "انها لاتصلح أن تضيف لها شيئا وبدأت في مداعبة جيب ومداعبتي . فاذا طلبت منها مرة النظر في كتاب الطهي ، وكنا متزوجين والبيع منها حسنا ، فانها ستطلب من الخادمة عملها ، ثم تصفق بيديها وتضحك بطريقة جذابة .

•• وبدأنا في العزف ، والرسم والغناء والرقص ، وسعدنا بالاسبوع . ووقعت في المحظور وصممت على انني اعاملها كلعبة أيضا ، ولكن ليس ذلك بصفة دائمة . واشعر انه ليس من حقي أن اسجل شيئا الا لأقرأه انا ، وعملت بجد في الاختزال شعورا بالمسئوليه نحو دورا وعمتيها . ولا أعيد القول اذا قلت كم كنت مدينا لاجنس ، وأهديت قصصي لاجنس اعترافا بالجميل . وجاءت في زيارة لمدة أسبوع عند دكتور سترونج . وجاءت مع والدها . واصطحبت أجنس لترى دورا . وكانت دورا خائفة من أجنس . وأخبرتني انها تعلم ان أجنس ساهرة جدا . ولما وجدتها مرحة ونشطة ومفكرة وخيرة ، صاحت صحة الدهشة والسرور ، وطوقت اجنس بذراعيها ووضعت خدها على وجهها .

•• ماكان اكثر سعادتي عندما رأيتهما يجلسان معا جنبا الى جنب . ورأيت دورا وهي تنظر بعطف الى عينيها ، عندما نظرت الى اجنس نظرة رقيقة . وتسامرنا بمرح ومرت الليله بسرعة . وكان لدينا متسع من الوقت حتى تحضر العربه وكنت أقف بمفردي أمام المدفأة ، عندما تسللت دورا بهدوء ، لتقبل القبلة المعهودة قبل أن أرحل . وقالت دورا وعيناها تشرقان وهي تداعب زرار معطفي : "هل تعتقد يادودي لو أنها كانت صديقتي من زمن لكنت أكثر مهارة؟ قلت : "ياحبيبتي ، ياللهراء" . فاجابت دورا دون أن تنظر الي : "هل هذا هراء ؟ هل انت متأكد ؟ — طبعا متأكد . وقالت دورا وهي لاتزال تداعب الزرار : "لقد نسيت ، ماعلاقتك يا أجنس؛ "أيها الصبي العزيز الشقي" . فأجبت: "ليس هناك قرابه ، انما تربينا سويا كأخ وأخت . وقالت دورا : "انني أتعجب ولماذا أحببتني ." — ربما لانني لا أستطيع أن اراكي دون أن احبك يادورا . وقالت دورا وهي تداعب زرارا آخر: "افترض انك لم تراني بالمرة" وقلت بمرح . افترضي اننا لم نولد بالمرة . ورفعت في النهاية عينيها الى عيني ، ووقفت على أطراف أصابعها لتقبلني وهي تفكر بعمق اكثر من المعتاد — مرة ، مرتان ، ثلاث مرات — وخرجت من الحجرة .

•• وقبل أن انهي هذا الفصل اريد ان اشير الى موضوع واحد . وهو انني سعدت عندما علمت أن مستر ميكوبر يسير على مايرام ، ولذا دهشت جدا عندما تلقيت في هذا الوقت الخطاب التالي من زوجته :

كانتربرى : مساء الاثنين :

بلاشك انك ستدهش ياعزيزى كوبرفيلد ان تتلقى هذه الرسالة . وسيدهشك اكثر محتواياتهـا .
تصور ياسيد كوبرفيلد مدى شعورى ، اذ أخبرك ان مستر كوبرفيلد قد تغير تماما . فهو متحفظ واصبح
غريب الاطوار . واصبحت حياته سرا بالنسبه لشريكه افراحه واحزانه — اقصد زوجته . وليس هذا كل ما
فى الامر . فهو قاس حاد الطبع واصبح غريبا بالنسبه لابنه وابنته الكبرى . ولا يهتم بالتوءمين ، وينظر
بضيق الى الطفل الصغير الذى أصبح شريكا لنا فى الحياة أخيرا . ان هذا من الصعب تحمله . فهذا
تحطيم للقلب . واذا كان لك ان تنصحنى ، وانت تعرف ضعفى ، وتعرف اننى لا أريد أن انحصر فى
مثل هذه الورطة ، فانك عندئذ ستضيف الى افضالك لى فضلا . . مع تحيات وحب الاطفال ، وابتسامة
الطفل الذى لا يدرى من الامر شيئا ، سأظل ياسيد كوبرفيلد .

المتألمة : ايما ميكوبر

(الفصل الثانـــــى عشر)

مرة اخرى دعنى اتوقف عند فترة من ذكريات حياتى انها فترة كئيبة صحبت حياتى فى موكب قاتم . لقد
أتقنت الاختزال وكان يدر لى دخلا ، وحزت شهرة فى هذا الفن ، وانضممت الى احدى عشر شخصا آخر
فى كتابة تقارير عن المناقشات البرلمانيه لجرائد الصباح . وبدأت فى التاليف . واصبحت الان ثريـــا
وسأتزوج دورا . ووافقت عماتاها على زواجنا . ولما ركبنا عربة مفتوحه ، واصبح الزواج حقيقه وملأنــى
بالعطف لاناس غير محظوظين لم يشاركوا فيه . ولكنهم خرجوا من محلاتهم او كانوا ذاهبين الى مصالحهم
اليومية . وجلست عمتى ممسكه بيدى طوال الطريق . ولما توقفت العربه قرب الكنيسه لا تزال بيجوتـــى ،
ضغطت على يدى وقبلتنى . — وانا أيضا ،

— بارك الله فيك ياتروت . انك عزيز لدى . وانى افكر فى والدتك المسكينه هذا الصباح .
وما أدين لك به ياعمتى العزيزة . وحييت ترادلز بحرارة الذى حيا بدوره مستر ديك تماما حيانى مستر ديك
ثم وصلنا الى باب الكنيسه . وكانت الكنيسه هادئة وتم كل شئ فى هدوء وكانه كان حلما . وركبنا العربه
واستيقظت من الحلم ، وكانت زوجتى العزيزة بجوارى ، تلك التى احبها حبا كبيرا . وقالت دورا : "هل
انت سعيد الان وهل أنت متأكد انك لن تندم ؟ وانتهى شهر العسل ، ثم اصبحت اليم مع دورا فى
منزلنا الصغير .

. . وكنت أنا ودورا الجميله لا نعرف شيئا عن شئون المنزل وقلت مرة : "يازوجتى الغاليه . يجب أن
نكون جادين احيانا . تعالى واجلسى هنا بجوارى لنتكلم بالعقل . ان يدك الصغيره تحمل هـــذا
الخاتم الجميل . ولكنك تعرفين انه ليس امرا مريحا أن أخرج دون تناول الغذاء . أليس كذلك؟ "وقالت
دورا بوهن : "لا " . — ياحبيبتى انك ترتعدين . وقالت دورا بصوت يدعو للشفقه : "لاننى اعرف انك
ستؤنبنى" . اننى سأناقشك فقط ياحبيبتى . — وصاحت دورا فى يأس : "ان المناقشه اسوأ من التأنيب .
اننى لم اتزوج لاناقش ، والا كان يجب أن تقول لى هذا أيها القاسى . وحاولت تهدئتها ، ولكنها
اشاحت بوجهها وقالت : "انك قاس ، قاسى " . — ولم اعرف ما افعله وذرعت الحجرة جيئه وذهابا وعدت
اقول : "دورا ياحبيبتى " . وردت دورا : "لا اننى لست حبيبتك . لانك اسفت عندما تزوجتنى والا لما
ناقشتنى " .

. . وجرح شعورى لهذا الاتهام ، وتشجعت لكى ابدو جادا . وقلت : "انك يادورا فى تصرفك
كالاطفال ، وتتحدثين هراء . فانك تذكرين اننى خرجت امس فى منتصف الغذاء ، واول أمس اكلت
فى عجالة ، واليوم سوف لا اتناول الغذاء بالمرة . اننى لم اقصد تأنيبك ، ولكن هذا امرا لا يدعو الـــى
الراحة . وصاحت دورا : "انك لولد قاس عندما تقول اننى زوجة غير مقبوله . — ياعزيزتى دورا ، انـــنى
لم اقل هذا !" . قالت دورا : "انت قلت اننى غير مريحه" . — لقد قلت ان شئون المنزل غير مريحه .

. . قالت دورا : "انه نفس المعنى بالضبط — ثم بكت بحزن لانها فهمت هذا " . وذرعت الحجرة
مرة أخرى ، وانا ممتلئ حبا لزوجتى الجميله واسفت للغايه ، وجلست مرة أخرى وقلت : "اننى لا الومك
يادورا . اننا كلينا لديه الكثير ليتعلمه " . وانتحبت دورا قائله : "لماذا هذه الاحاديث الجاحدة ،
انك عندما رغبت فى أكل السمك ، ذهبت على بعد أميال لافاجئك بها " . فقلت : لقد كان هذا جميـــلا
منك ياعزيزتى . ولكنه كلفنى كثيرا ."

وقد جرحت قلبها الرقيق ، ولم تهدأ ، فكانت تنتحب ، قلت انني لم أقصد ذلك . واضطررت للخروج من الحجرة بسرعه . وشعرت طوال الليل بتأنيب جعلني يائسا ، وشعرت بأنني ارتكب خطيئه وانتابني شعور غامض بالشر . وجاءت دورا متسلله لتلقاني ، وبكت فوق كتفي ، وقالت انني كنت قاسيا وانها كانت غير مطيعة ، وانتهى الامر واتفقنا على أن يكون ذلك الخلاف الصغير بيننا هو الاخير واننا سوف لانختلف لو عشنا مائة سنة . قالت: "انني آسفه . هل تحاول تعليمي اليوم؟" قلت: "يجب أن اعلم نفسي أولا يادورا ، انني لا أعرف مثلك ياحبيبتي" . فأجابت : "ولكنك تستطيع أن تتعلم فأنت رجل ماهر جدا . قلت : "هذا هراء أيتها الفأرة" . قالت : "وددت لو أذهب الى الريف لمدى عام وأعيش مع اجنسي . قلت : "لماذا هذا؟" قالت دورا : "اعتقد انها كانت تحسن من حالتي وأتعلم منها" . قلت : "كل شيء في وقته . ان اجنس ترعى والدها طوال هذه السنين كما تعلمين . وكانت هي اجنس كما نعرفها حتى عندما كانت طفله . واستفسرت دورا دون أن تتحرك: "هل لك ان تسميني باسم أريده . وسألت مبتسما : "ماهو"؟ قالت وهي تهز شعرها : "انه اسم سخيف . . الزوجة الطفله" وسألتها ما غرضها في هذه التسمية .

. . — انني لم أقصد ايها الاحمق ، ان تستخدم الاسم بدلا من دورا انما أقصد ان تنظر الى على هذا المستوى . وعندما تغضب مني قل لنفسك : "انها زوجتي الطفله" وعندما اكون سببا في خيبة أمل لك قل : "انني أعرف منذ أمد بعيد انها زوجة طفلة . وان زوجتي الطفله تحبني ، لانني فعلا احبك" .

ولقد كان لهذا تأثير طيب علي . فعندما أسترجع ما مر من وقت ، عندما كنت أستدعي الوجه البريء الذي أحببته فان هذا الحديث قد ترك آثاره الدائمة بذاكرتي ، ولقد كنت صغيرا غير مجرب ، ولكني كنت دائما أصغي لرجائها . وكان لدي من الاعمال الكثير ، وكان لدي كثيرا من القلق ، ولكني كنت اخفي هذا لتلك الاعتبارات .

ومضت بنا الحياة ، واعتدنا الترتيبات الخاصه بشئون المنزل ، ولم يحدث أن دورا كانت تضطرب الا نادرا . وأصبحت مشرقه مرحة بنفس طريقتها الطفوليه ، وكانت تحبني للغايه ، وكانت سعيدة بأشيائها وأمورها التافهه . وأصبحت متزوجا لمدى عام ، وفي احدى الامسيات ، عندما عدت من جولة على قدماي بمفردي كنت أفكر في الكتاب الذي أقوم بتأليفه ، وكان خاصا بقصص خياليه — مررت بمنزل مسز ستيرفورث وقد أفزعني صوت بجواري . وكان صوت امرأة ، ولم أعرف انها خادمة مسز ستيرفورث . — هل لك ياسيدي ان تتفضل بالدخول ، ان مس دارتل تود التحدث اليك؟"

وعندما وصلنا الى المنزل ، قادتني الى مس دارتل في الحديقه وأعلنت عن مجيء . وكانت تجلس على مقعد في شرفة تطل على المدينة الكبيرة . وكانت امسية هادئه . ورأيت انها قد أصبحت نحيلة عما رأيتها آخر مرة ، ولا زالت عيناها تومض ان ، وكانت الندبه لاتزال واضحة . ولم يكن لقاؤنا حارا . فقد افترقنا غاضبين في المناسبة الاخيرة ولم تخف هي شعورها . قلت وأنا أقف بجوارها متجاهلا دعوتها بالجلوس: "علمت انك ترغبين في التحدث الي يامس دارتل" . قالت : "من فضلك ، هل وجدت تلك الفتاة؟" — لا . — مع هذا فقد هربت . وكانت شفتاها تتحركان وهي تنظر الي ، كما لو كانت تريد تأنيبها . قلت : "هربت؟" قالت بضحكة : "نعم هربت منه ، واذا لم توجد فسوف لا نجدها فربما توفيت . وقابلت نظرتي بقسوة لم أعهدها من أحد . — هل تود أن تعرف معلومات عنها ؟ قلت : نعم . قامت وهي تبتسم ابتسامة باهتة ، واتجهت نحو الحائط بجوارها وقالت بصوت مرتفع: "تعالى هنا" — وكأنها كانت تنادي حيوانا قذرا .

وعادت ويتبعها مستر ليتمر الذي انحنى لي ووقف خلفها . وقالت دون أن تنظر اليه ، وهي تلمس جرحها القديم . حدث مستر كوبرفيلد عن هروبها . — لقد كنت ومستر جيمس بالخارج مع الفتاه ، ثم تركت يارموث تحت حماية مستر جيمس . ولقد جبنا بلادا أجنبيه كثيرة . زرنا فرنسا وسويسرا وايطاليا . — واستقر مستر جيمس أكثر مما عهدته عندما كنت في خدمته . ثم بدأت تظهر شعورها بالتبرم وعدم الرضى وتزوج مستر جيمس بهذا . وبدأ مستر جيمس يصاب بالقلق وعدم الاستقرار . وكلما زاد قلقه كلما زادت حالتها سوءا ، ومرت بأسوأ وقت بينهما في الواقع . وفي يوم غادر نابولي مستر جيمس حيث استأجرنا فيلا وعلى أمل اننا سنعود في مدى يوم أو اثنين ، ثم رحل بعد ذلك ولكنه تصرف بنبل حيث اقترح انها يجب ان تتزوج رجلا محترما يكون مستعدا للتغاضي عن الماضي .

وعرفت ان هذا الوغد يتحدث عن نفسه ، ولاحظت مس دارتل اقتناعى بهذه الفكرة . واحتدم غضبها عندما أعلنت لها حقيقة رحيله ، وكانت بطريقة غير متوقعه ، وجن جنونها ، ومنعت بالقوه حتى لا تجهز على نفسها بسكين ، او تلقى بنفسها فى البحر ، أو تدق رأسها بالارض. فلقد كان من الضرورى حبسها . ومع هذا خرجت بالليل ، وكسرت مصراع النافذه التى ثبتها بنفسى ، وأسقطت نفسها على كومة عنب تحتها ، ولم ترى او سمع عنها منذ ذلك الحين على قدر ما أعلم . ولما أصبح من المؤكد عدم امكان العثور عليها . توجهت لمستر جيمس وأخبرته بما حدث . وتناقشنا وتركته . ولكننى احتملت منه الكثير فقد اهاننى كثيرا . ولما كنت اعرف مدى الفرق بينه وبين والدته ، وكيف انها ستكون قلقه ، فقد سمحت لنفسى بالحضور الى انجلترا وقصصت .... وقالت مس دارتل لى : "من أجل المال الذى دفعته" .

— تماما ياسيدتى . وانى اقص ما اعرفه . — واستفسرت مس دارتل منى قائله: وهل هذا هو كل الامر؟ وقلت: "انه ليس لدى ما أقوله الا أننى عرفت دور هذا الشخص الشرير فى المسألة ، وسأخبر الرجل الذى كان بمثابة الوالد لها منذ طفولتها ، وسأوصيه بعدم البحث عنها . وتوقفت عن الحديث عندما بدأته وأصغى بطريقه . — "أشكرك ياسيدى . واسمح لى أن أقول انه ليس هناك عبيد فى هذا البلد ، وانه لا يسمح للناس بتسيير القانون على هواهم . وانى لست خائفا بالتالى بالمرة من الذهاب حيثما شئت ياسيدى . وعندئذ انحنى بأدب ، وانحنى لمس دارتل وخرج من نفس المدخل الذى جاء منه . ونظرت انا ومس دارتل فى صمت الى بعضنا .

وقالت وهى تلوى شفتيها : "انه يقول ان سيده كما يعلم ينزل بساحل اسبانيا ، وان هذا يرضى رغبته فى الذهاب الى البحر كما يحب . وان هذه الفتاة التى التقطها من الوحل — (ثم نظرت الى نظرة قوية) — قد تكون حيه ، لاننى اعتقد ان الاشياء العادية ليس من السهل أن تموت. واذا كانت حية ، فانك تود العثور عليها لترعاها . ونحن نود هذا أيضا . ولذلك فان مصلحتنا مشتركه ، ولهذا السبب فقد أرسلت لك لتسمع ما سمعت. ولما فكرت فيما أخبرت به ، شعرت انه من الاصوب ان ارسل الى مستر بيجوتى . وفى الليله التاليه ذهبت الى لندن سائلا عنه ، فقد كان دائم التجوال ، وهدفه استعادة ابنة شقيقه، وكان كثير التواجد فى لندن اكثر من أى مكان آخر . وكان يجوب الشوارع باحثا بين القلائل الذين يتسكعون فى الطرقات فى هذا الوقت ، وكان يخشى وجودها فى هذا الوقت.

وكان يقطن فوق محل فى هنجرفورد ماركت. وكان جالسا يقرأ بجوار النافذه التى يضع عليها بعض النبات. وكانت الحجرة منظمة ومرتبه ، كأنه كان ينتظرها فيها استعدادا لاستقبالها . ولم يسمع طرقى على الباب ، وانما رفع عينه فقط عندما وضعت يدى على كتفه . — سيد ديفى ، اشكرك من كل قلبى لهذه الزيارة. اجلس هنا . اهلا بك ياسيدى ومرحبا . وأخذت المقعد الذى ناوله لى وقلت: "يامستر بيجوتى ، لا تتوقع الكثير ، لقد سمعت بعض الاخبار . — عن اميلى . — انه لا يعطى مفتاحا لمكان وجودها ولكنها ليست معه. وجلس وهو ينظر الى باهتمام وأصغى فى صمت عميق لكل حديثى .

— اذا اتجهت الى لندن ، وهذا هو المحتمل لانها سوف لا تضل طريقها كما فى هذه المدينة الكبيرة؟ وقلت: "واذا جاءت هنا فانى اعتقد أن هناك شخصا واحدا هنا يمكنه أن يكتشفها عن أى شخص آخر فى العالم . . هل تذكر مارثا؟ " — التى كانت من مدينتنا ؟ " ولم أرغب فى رد آخر عما عبر عنه وجهه.
— هل تعرف انها فى لندن ؟ وأجاب برعشه: "لقد رأيتها فى الشوارع" . وقلت: "ولكنك لا تعرف ان اميلى كانت تتوسل اليها ، وبمساعدة هام هربت من المنزل منذ زمن . . انها الشخص الذى أتحدث عنه. لقد قلت انك رأيتها . هل تظن انها تستطيع أن تجدها ؟ وحيث اننا معا أنخرج الان ونحاول أن نجدها الليله ؟ فوافق واستعد لمصاحبتى .

وعدنا الى تمبل بار فى المدينه. وكان لا يتحدث الان ، انما كان يسير بجوارى . فقد كرس حياته لهدف واحد . وبالقرب من بلاك فرايرز بردج ، لفت رأسه وأشار الى هيئة سيدة تسير على الجانب المقابل من الطريق . وعرفتها فى الحال انها التى نبحث عنها . وتبعناها ، ولم ندعها تغيب عن بصرنا ، ولكننا لم نعبأ بالاقتراب منها لانها كانت تتلفت حولها . وأخيرا دخلت شارعا مظلما هادئا ، وتبعناها مسرعين الخطى . ولحقت بها . وكان المكان كئيبا فى مثل هذا الوقت. ومنعزلا فى الليل كأى مكان آخر فى لندن. ولم يكن هناك منازل على جانبى الطريق بجوار السجن الكبير. وكان الطريق يؤدى الى البحيره.

.. وسارت الفتاة التى نتبعها الى جوار البحر ، ووقفت وسط هذا المنار أثناء الليل وحيدة ، ولم تتحرك ، وأخذت تنظر الى الماء . وكان هناك بعض القوارب راسية قرب الطمى ، ومكننا هذا من الاقتراب منها على قيد عدة ياردات دون أن ترانا .

— مارثا . وصرخت صرخة مخيفه ، وناضلت معى بقوة ، ولكن بدا أقوى منى قبضت عليها . وعندما رفعت عينيها المليئتين بالرعب ورأت الشخص ، حاولت مرة أخرى ثم سقطت بيننا وحملناها من الماء الى مكان جاف وهى تبكى وتئن . ثم جلست وهى تمسك رأسها بيديها . وصاحت بانفعال : النهر آه . النهر . وقلت : "اصمتى .. اصمتى . وهدئى من روعك" ولكنها ظلت تردد نفس الكلمات ، وتصيح على الـ دوام : "النهر" . وصاحت : "انني أعرف انه مثلى . انني اتعلق بالنهر . وهو ينساب كما أسير فى الشوارع باتسه شاردة . ثم يصب كحياتى — فى البحر الكبير المضطرب دائما ، وأشعر انني يجب ان أذهب معه ، انـنى لم اعرف ماهو اليأس ، الا فى صوت هذه الكلمات .

— انني لا أستطيع البعد عنه . انى لا أنساه . انه يفزعنى ليلا ونهارا . انه الشئ الوحيد الذى يلائمنى فى العالم . آه . النهر المخيف . ثم بدأت فى البكاء مرة أخرى ، وأخفت وجهها بين الصخور وكانت ملقاه أمامنا كصورة للهوان والدمار . وكنت اعرف ان هذه الحالة يجب أن تمر قبل ان نتحدث اليها بأى امل ، ووقفنا بجوارها صامتين حتى هدأت نوعا ما . وقلت ، وأنا انحنى وأساعدها على النهوض وكانت تود أن تنهض لتذهب ، ولكنها كانت ضعيفه واستندت الى قارب : "يامارثا ، هل تعرفين هذا الذى معى ، من هو ؟" قالت بوهن : "نعـم" وانكمشت مبتعدة عنه وقالت : "قل له ياسيدى ، اذا كنت تشفق على انني لم أكن السبب فيما حدث له من كارثه . لقد كانت خيرة معى . ولم تتفوه الا بما هو سار وصواب بالنسبه لى . فهل من المحتمل أن افعل بها ، مافعلته بنفسى ، وأنا أعرف نفسى جيدا ؟ قال مستر بيجوتى : "يامارثا ، ليسامحك الله . وليسامحنى اذا فكرت فى هذا . انه على قدر علمنا ، من المحتمل ان تتجه الى لندن . اننا نعتقد ، مستر ديفى وأنا وجميعنا ، انك بريئه مما حدث لها . ولقد قلت انها كانت عاطفه ورقيقه معك . اننى أعرف انها كانت هكذا ، باركها الله ، وبالنسبه للجميع . وانناا لشاكره لها وتحبينها . فساعدينا بقدر ماتستطيعين حتى نعثر عليها ، وليجازيك الله .

وسألت بصوت خفيض بدهشه : "هل تثق بى ؟" وسألت بسرعه : "لتتحدث معها . اذا وجدتها سآويها ودون علما سأحضر لك وأصحبك اليها ؟ وأجبنا سويا : "نعم" . ورفعت عينيها وأعلنت انها ستكرس نفسها لهذا العمل . ولم نرغب فى أن نخبرها بما علمنا والذى سبق ان سودته بالتفصيل . وتحت مصباح معتم بالطريق ، كتبت عنوان كل منا على ورقة من مفكرتى وأعطيتها اليها ، حيث وضعتها فى صدرها البائس . وسألتها عن مكان سكناها . وقالت بعد أن توقفت لفترة : "ليس فى أى مكان . ومن الافضل الا تعرف . وأخرجت حافظتى ولكنى لم أستطع ان أقنعها بأخذ أى مبلغ من المال . وقالت : "انـنى لا أستطيع ان افعل ما وعدت به من أجل المال . لا أستطيع أخذه حتى ولو تضورت جوعا . فأعطاني مالا يعنى عدم الثقه بى ، وترك الهدف الذى اوليتمونى اياه ، وأخذ الشئ الوحيد الذى ينقذنى من النهر . ومرة أخرى ذرفت الدمع ، ومدت يدها التى ترتعد لتلمس مستر بيجوتى ، كما لو كان بشر فضيلة او بركة تشفيها ، ثم ذهبت عبر الطريق المنعزل .

(الفصل الثالث عشـر)

وعملت بجد فى كتابى حتى صدر وكان ناجحا ، وكنت احرر بنجاح وفى الجرائد وفى كل مكان ، الدرجة اننى عندما احرزت نجاحى الجديد اعتبرت ان من حقى الهروب من المناظرات الكئيبه . وفى ليلة سعيدة ختمت اعمالى البرلمانيه التى كنت ادونها لاخر مرة . وانى اكتب الان منذ زواجى من عام ونصف . وصممت أن اطور تفكير دورا . ولما كانت كالاطفال لذا فضلت ان أداعبها لانى حينما حاولت أن اكون جادا ازعجتها وأزعجت نفسى أيضا ، وتحدثت معها عما يشغل تفكيرى من موضوعات ، وقرأت لها شكسبير وأرهقتها لاقصى درجة . وعودت نفسى أن اعطيها فى كل مناسبة قليلا من المعلومات المفيدة او الرأى السليم .

وأقحمت ترادلز فى هذا الامر دون علم منه ، فأغرقه بمعلوماتى من أجل تثقيف دورا بطريق غير مباشر ولكن ذلك لم يؤثر على دورا بل هبط من همتها وأثارها خوفا من أن يكون نصيبها هى فى الجولة القادمة

ووجدت انني أصبحت في موقف المدرس او كالمصيبه او كالحفرة التي تخشى دورا التردى فيها وكانت تحاول التفادى دائما التهوى الى حرمها الذى لانهاية له • ولذا فانني عندما كنت أتطلع لهذه المرحلة التي يكون فيها بيني وبين دورا نوعا من التعاطف ، وأكون قد شكلت عقليتها بما يرضيني ، فانني كنت احتاج للمثابرة على ذلك عدة شهور ، ووجدت في النهاية انني لم استطيع أن افعل أى اثر في عقلها ، وخطر ببالى أن عقل دورا ربما يكون قد تشكل من قبل • ولاعتبارات اخرى كنت اتجنب مشروعى ، مصممـا أن اقنع بزوجتي الطفلة ، ولا أحاول تغييرها الى أى شئ آخر • ولذلك اشتريت لها زوجا من القرط ، وقتا لجيب وعدت بها الى المنزل في أحد الايام لاحوز رضاها •

وفرحت دورا بتلك الهدايا وقبلتني بابتهاج • وجلست بجوار زوجتي على الاريكه ، ووضعت القرط في أذنيها ، وقلت لها أخشى الا تكون علاقاتنا في الفترة الاخيرة على مايرام وانني كنت المخطئ • وكنت أشعر بهذا حقا لان ذلك هو الواقع • وقلت: "الحقيقه انني كنت أحاول يادورا ياعزيزتي ان اكون حكيما" وقالت دورا بحياء: "وتجعلني حكيمة أيضا ، الم تفعل ذلك اليوم؟" فاومات برأسى لهذا الاستفسار وقبلتها • وقالت دورا وهى تهز رأسها : "لافائدة على الاطلاق • انت تعرف أنني صغيرة وهو ما أردت أن تناديني به منذ البدايه • واذا لم تستطع أن تفعل ذلك فاني أخشى الا تحبني ابدا • أمتأكد انك لم تفكر احيانا انه كان من الافضل •••••" — "افعل ماذا ياعزيزتي ؟" قالت دورا : "لا شئ" •
وكررت القول : "لا شئ ؟" وطوقت عنقي بذراعيها ، وضحكت ، وخبأت وجهها في كتفي وكان شعرها يغطيها لدرجة أصبح من الصعب أن أراها • وقلت ضاحكا من نفسي : "أليس من الافضل انني لم أفعل شيئا في محاولتي تشكيل عقلية زوجتي ؟ أهذه هى المشكله ؟ نعم ، في الواقع هذا ما أفعله •
وصاحت دورا : "أهذا ماكنت تحاوله ؟ يالك من صبى مدهش !" فقلت : "سوف لا أحاول مرة أخرى • لانني احبها بشدة كما هى •

واستفسرت دورا وهى تقترب مني : "دون قصه •• حقا ؟" قلت : "لماذا أبحث عن تغيير ما هو عزيز على منذ أمد بعيد ؟ انني لا أستطيع اظهار شيئا أفضل من نفسي وذاتي ، يادورا اننا سوف لا نسعى الى تجارب فيها من الغرور ، انما نعود الى سيرتنا الاولى ، ونكون سعداء" • وردت دورا : "ونكون سعداء" نعم • طوال اليوم • ولا نهتم بما حدث من خطأ أحيانا؟" • قلت : "لا • لا • يجب أن نبذل ما في وسعنا •" وقالت دورا : "انه من الافضل لى أن اكون غبيه عن أن اكون غير مستريحه ، اليس كذلك؟" — الافضل أن تكوني طبيعيه من اى شئ آخر في العالم • — "في العالم ! آه دودى ، انه لمكان فسيح" وهزت رأسها وابتهجت وقبلتني ، وضحكت بمرح ، وقفزت لتطوق عنق جيب بالطوق •

وانتهت هكذا آخر محاولة لتغيير دورا • فقد كنت غير سعيد في هذه المحاولة • وأحببت زوجتي بشدة وكنت سعيدا ، ولكن السعادة التي كنت أتوقعها بطريقه غامضه ليست هى السعادة التي كنت اتمتع بها ، وأنا فقط في النوم ، واصحو ثم أنام ثانية في اعماق عقلي • ولم يكن لهذا تأثير على ما أقول أو أفعل وقد جعل هذا حياتي في السنه الثانيه أسعد من الاولى ، وكل مابقى بعد ذلك جعل حياة دورا مشرقة • واما انصرمت هذه السنه ، لم تكن دورا بصحة جيدة • وكنت أود ان يدا أرق من يدى تحول منها ، وربما ابتسامه طفل على صدرها قد يغير من زوجتي الطفله ويجعل منها امرأة • ولم يقدر لهذا أن يحدث ••• واهتزت الروح على عتبة سجنها الصغير ، ودون ويل بهذا الامر ، انطلقت • وقالت دورا : "عندما أستطيع الجرى ، كما اعتدت سأجعل جيب يسابقني انه قد اصبح كسولا بطيئا ياعمتى •

وقالت عمتى وهى تعمل بجوارها بهدوء : "انني اشك ياعزيزتي ، انه لديه اخلالا بالنظام اكثر من هذا • العمر ، يادورا • وقالت دورا مندهشه: "اتظنين انه طاعن في السن ؟" انه لشئ غريب أن يبدو جيب عجوزا ؟" وقالت عمتى بابتهاج : "انه لامر كلنا معرضين له ياصغيرتي ، عندما نسير في الحياة ، انني لم أشعر انني اكثر تحررا من العمر أكثر مما حاولت انني أؤكد لك ذلك • وقالت دورا وهى تنظر الى جيب بعطف: "ولكن جيب ، حتى جيب الصغير • ايها المسكينه •• انه يعرف كل ما حدث لى ، أليس كذلك ياجيب؟ واقترب جيب من سيدته ، ولعق يديها ببطء • وقالت دورا : "انك لست عجوزا ياجيب ، هل انت كذلك ، وهل ستترك سيدتك ؟ اننا يمكن أن نظل سويا بعض الوقت • ان دورا الجميله ، عندما جاءت للغذاء يوم الاحد ، وسعد عندما رأت صديقى ترادلز (الذى كان يتناول الغذاء معنا كل يوم أحد) اننا انها ستنشط كما تعودت خلال أيام قلائل • ولكنهم قالوا :

"انتظر أياما قلائل ، ثم انتظر أياما قلائل أخرى ولكنها لم تعد تقوى على الجرى أو المشى . وكانت تبدو جميله مرحة جدا ، ولكن قدماها أصبحت بلا حركة . وكنت احملها كل صباح الى الطابق السفلى ثم الى الطابق العلوى كل مساء . واحيانا كنت أنا احملها أشعر أنها أصبحت أخف وزنا بين يداى مما جمد الدم فى عروقى وسبب اليأس فى الحياه .. وكنت أرفض تسمية هذا الشعور حتى ذات مساء عندما ألح على هذا الشعور بقوة ، كانت عمتى قد تركتها بعد أن حيتها تحية المساء بقولها : "طابت مساء ، يا زهرتى الصغيرة" — وجلست على مكتبى بمفردى ، وبكيت وأنا أفكر ، يا له من أسم ميت ، كيف تذوى الزهرة وهى فى ريعانها على الشجرة ! .

. . . .

وتلقيت صباح يوم بالبريد الخطاب التالى من كانتربرى ، وقرأته بشئ من الدهشة :

سيدى العزيز

لقد أصابتنى حالة عقلية غريبة أليمة ، مما لم تحتمله مسز ميكوبر ، رغم انها تقوم بدور ثلاثى : "المرأة والزوجة والام"، ولذا فانه فى نيتى أن أهرب من نفسى لفترة قصيرة ، وأروح عن نفسى لمدة ثمان وأربعين ساعة أزور فيها بقية الاماكن السارة القديمة . ومن الاماكن المريحه الهادئه ستقودنى قدماى طبعا تجاه سجن كنجز بنش . وسأكون خارج الحائط الجنوبى لهذا المكان بعد غد فى الساعة السابعة مساء بالضبط ، وسأنجز هدفى من هذا التراسل . اننى لا أشعر بالحرج من الاتصال بصديقى العتيد مستر كوبرفيلد ، أو صديقى القديم مستر توماس ترادلز ، ليقابلانى ويجددا ن علاقاتنا السالفة فى غابر الزمن . وأرجو أن ألفت النظر الى أنه فى الساعة والمكان اللذين أشرت اليهما ، ستجدان شخصا محطما عندئذ .

ويلكنز ميكوبر

ملحوظة : من المستحسن أن أضيف الى ماسبق قولى أن مسز ميكوبر لا تعلم شيئا عن نيتى هذه . وقرأت الخطاب مرات عديدة . وتأملت اسلوبه مستر ميكوبر فى الكتابة والتأليف ، واستعداده لكتابة الخطابات فى المناسبات الممكنه والغير ممكنه . الا أننى شعرت بأن هناك شيئا هاما يكمن فى طيات هذه الرسالة . وألقيت بها مفكرا ، والتقطتها ثانية ، لقراءتها مرة أخرى ، عندما جاء ترادلز ووجدنى فى قمة ارتباكى . وقلت : "ياعزيزى ، لم أسعد مثلما سعدت برؤيتك الان . لقد جئت فى الوقت المناسب لتعطينى حكمك الصائب . لقد تلقيت خطابا ياترادلز من مستر ميكوبر .

وتناقشنا أنا وترادلز . وكان قرارنا الوحيد هو استشارة عمتى ، وان نحافظ على موعد مستر ميكوبر . وذهبنا الى المكان المحدد قبل الموعد بربع ساعة ، ووجدنا مستر ميكوبر قد سبقنا الى هناك . ووجدناه فى حالة انفعاليه طاويا يديه ، ينظر الى الحائط . وعند اقترابنا منه ، كان مضطربا بعض الشئ وأتسل ذوقا عن ذى قبل ولم يحتفظ بهندامه . وقال مستر ميكوبر بعد التحيه . ايها السادة ، انكم أصدقاء حقا وتظهرون وقت الشدة . ثم لفت نظرنا الى الحائط ، وقال : "اننى أؤكد لكما هذا أيها السادة" — ورجوته أن يخاطبنا بطريقته القديمة المعهودة . ورد ضاغطا يدى : "ياعزيزى مستر كوبرفيلد ان عطفك يأسرنى . اننى كنت على وشك ان أبدى ملاحظة هى اننى اذكر الاماكن العزيزة القديمة التى قضيت بها أسعد أوقاتى . وقلت : "آمل ان تكون مسز ميكوبر على مايرام . وأجاب مستر ميكوبر : "اشكرك ولكنها فى حالة شبه عادية . وأرجو المعذرة فانى اود أن أخبرك اننى أستطيع ان اواجه زميلى وادك رأسه اذا أساء الى . وانا وهو لم نعد على علاقة طيبة . قال ترادلز : "انك فى حالة نفسيه سيئة يامستر ميكوبر . وأجاب مستر ميكوبر : "اننى كذلك ياسيدى" . وذكرت له انه يسرنى أن أصحبه معى وأقدمه الى عمتى وأخبرته بأنه يوجد فراش يصلح له . وقلت : "وستقوم بعمل مشروب لنا يامستر ميكوبر ، وتنسى مايشغل بالك وتسعد .

وقال ترادلز : "واذا كان هناك ماتود أن تسر به أصدقائك ، فيمكنك ان تخبرنا به يامستر ميكوبر . ورد مستر ميكوبر : "ايها السادة ، افعلوا بى ماتشاءون ، اننى ريشه على سطح البحر تدورها العناصر فى كل اتجاه . وسرنا معا ، ووجدنا العربه على وشك الرحيل ، ووصلنا الى هاى جيت دون متاعب فى الطريق . وكنت قلقا وكذلك كان ترادلز . وكان مستر ميكوبر شديد الاكتئاب . وكان يحاول احيانا ان يخرج بترديد لحن ولكن محنته غلبته على امره ، وكان منظره يثير الضحك والخزيه .

وذهبنا الى منزل عمتي ، ولم نذهب الى منزلي لان دورا كانت متوعكة . وكنا جميعا في حالة قلق وكنت اراقب مستر ميكوبر بشغف ، يبين رغبته في الكشف عن أمر واحجامه في نفس الوقت ، حتى انني اصبحت في حمى . وكذا تردلز فقد كان يحملق فيه وهو يجلس على حافة المقعد ، وأحيانا ينظر الى الارض ولا يحاول ان ينبس ببنت شفة . ورغم أن عمتي كانت تركز انتباهها على ضيفها لكنها كانت تتمالك نفسها عنها لانها كانت تناقشه ، وجعلته يتحدث سواء أراد ام لم يرد . قالت عمتي : "آمل ان مسز ميكوبر وأسرتك على ما يرام ياسيدي . وأجاب مستر ميكوبر : "ان حياة اسرتي ياسيدتي ، تهتز في الميزان . انه عذري .. وبدأ مستر ميكوبر يعد المشروب ، ولكن ارتباكه في اعداده للمشروب وتناوله للاشياء كان ملحوظا . واعتقدت ان هناك محنة ستحدث تقريبا ، وقد حدثت فعلا . ووضع الادوات وجمعها معا ، ونهض من مقعده وأخرج منديله وانفجر باكيا .

قال مستر ميكوبر من وراء منديله : "ياعزيزي كوبرفيلد ، ان هذا العمل دون الاعمال الاخرى يتطلب عقلا مستريحا ، واحتراما للذات . انني لا أستطيع تأديته . انه أمر لا جدال فيه . قلت : "ما الامر يامستر ميكوبر ، أرجوك تكلم ، انك بين أصدقاء" . ورد د مستر ميكوبر وهو يخرج ما داراه داخله نفسه : "بين أصدقاء ياسيدي ، ياالهي . انه بسبب وجودي بين الاصدقاء أصبحت حالتي على ما هي عليه . ما الامر ايها السادة؟ وما هو ليس بالامر؟ الشر هو الامر ، والوضاعة والخداع ، والتزوير والتآمر ، هي الامر واسم ذلك الشرير الوغد هو — هيب" . وذعرنا جميعا وأصبحنا وكان على رؤوسنا الطير . وقال مستر ميكوبر وهو يلوح بمنديله ، ويدفع في الهواء بكلتا ذراعيه كما لو كان يسبح تحت ظروف صعبة غير عادية . "سأنهي هذه الحياة ، انني بائس ، ومنعزل عن كل شئ يجعل الحياة محتملة — سوف لا أعرف أحدا — سوف لا أقول شيئا — وأعيش في أي مكان — حتى اهشم هذا الزنديق الخالد ... هيب"

وبهذه الكلمات التي كررها بطريقة غير عادية ، اندفع مستر ميكوبر خارج المنزل ، وتركنا في حالة من الاضطراب والامل والدهشة ، ووصلنا تقريبا الى مثل حالته . وحتى رغبته في تدوين الخطابات كانت قويه ، لا يستطيع مقاومتها ، لاننا بينما كنا في قمة اضطرابنا ودهشتنا ، وصلني الخطاب التالي من حانه مجاورة ذهب اليها ليدونه:

سري وخاص

سيدي العزيز

ارجو ان تنهي بالنيابه عني اعتذاري لعمتك المحترمه بسبب اضطرابي الاخير . انه انفجار لبركان كنت اطويه داخلي مما لا أستطيع وصفه . وأرجو لقائي — متحملا ألمي — بعد اسبوع من اليوم في المنزل بكانتربري ، حيث سبق ان كان لي شرف اللقاء بكم أنا ومسز ميكوبر . وسأكون في هذا المكان ...

ويلكنز ميكوبر

ومرت عدة شهور منذ ذلك الوقت منذ لقائنا بمارثا على ضفة النهر . ولم أرها منذئذ ، ولكنها تراسلت مع مستر بيجوتي في مناسبات عديدة . ولم ينفذ صبره . لقد كان رجلا عمليا طوال حياته . حتى انه اذا قرأ في الجرائد شيئا ينطبق عليها فانه قام بجولة لمدى عدة اميال . وذهب الى نابلس وعاد وسمع القصة التي رواها مستر دارتل لي . وفي اقتفاء اثرها هذا ، لم اسمعه يشكو التعب ، او يفقد الامل .

وكنت اسير بمفردي في الحديقة ذات أمسية . وكانت هناك فجوات في السور أستطيع ان أرى منها الطريق امام المنزل . وحدث ان اتجه نظري الى هذا المكان ، ورأيت شبحا خلفه ، يرتدي رداء فضفاضا وكان يشير الي وينحني تجاهي . وقلت وانا اذهب اليها : "مارثا" . وسألتني بهمس مضطرب . هل يمكنك ان تأتي معي ؟ لقد ذهبت اليه ولم يكن بالدار . وكتبت له العنوان الذي يحضر اليه ، وتركتها له على المنضده بيدي . وقالوا انه سوف لا يتأخر بالخارج . هل يمكنك ان تأتي مباشرة الان؟" وخرجت الى البوابة في الحال . واخذت تعريه خالية كانت تأتي تجاهي . وسألتها عن مقصدها وأجابت: "الى أي مكان قرب الميدان الذهبي وبسرعة" . ثم انكمشت في ركن ، وأخذ يديها ترتعد بالقرب من وجهها . ولم نكن نحن الاثنين نرغب في السكون لم نقاطعه . وذهبنا الى الميدان الذي ذكرته في الحال . ووضعت يدها على ذراعي ، وأسرعنا داخل احد الشوارع المظلمة . ودخلنا أحد ابواب المنازل وتركت ذراعي ، وأشارت الى ان أصعد الدرج .

وكان المنزل يعج بالناس . وبينما كنا نصعد ، فتحت ابواب الغرف وخرجت رؤس الناس ، ومررنا بناس على الدرج كانوا يهبطون . ورأيت نوافذ دون زجاج يأتى منها هواء فاسد ، ورأيت من خلالها نوافذ المنازل الاخرى بنفس الحال ، ونظرت وراسى به دوار ينتابه ، الى فناء بائس تراكمت فيه الاتربة والقاذورات . وعندما استدرنا لصعود آخر جزء من الدرج قرب السطح ، رأينا شخصا يتوقف برهة عند باب وأدار مقبض الباب ودخل . وقالت مارثا بهمس : "ما هذا ، لقد دخلت غرفتى . اننى لا أعرفها .. ولكننى عرفتها . لقد تعرفت عليها ، وكم دهشت فقد كانت مس دارتل . وقلت شيئا ينم عن أنها سيدة رأيتها من قبل . وقادتنى مارثا بنظرة دهشة ، اعلى الدرج ، والى غرفة غسيل ذات سقف منخفض منحدر ، افضل قليلا من صوان . وبين هذا وبين الغرف التى قالت انها ملكها ، كان هناك بابا صغيرا مفتوحا الى نصفه . وتوقفنا هنا لاهثى الانفاس من الصعود ، ووضعت يدها بخفة على شفتى . ولم أستطع رؤية مس دارتل أو الشخص الذى تخاطبه .

وقالت روزا دارتل بكبرياء : "انه لا يهمنى كثيرا . انها ليست بالمنزل ، اننى لا أعرف شيئا عنها" . وسمعت صوتا رقيقا : "انا ؟ " وسرت رعشة فى جسدى . لانه كان صوت اميلى . وردت مس دارتل : "نعم ، اننى جئت لاراك . ماذا ؟ انك لا تخجلين من الوجه الذى فعل الكثير ؟ " لقد كانت نغمة صوتها الكريهة ، وحدتها الباردة ، وسيطرتها الغاضبة ، جعلتنى كأننى أراها أمامى . وقالت : "اننى جئت لارى من شغلت خيال جيمس ستيرفورث ، الفتاة التى هربت معه وهى حديث المدينة عن انها فتاه من السوقة . أردت ان اعرف ما هو هذا الشئ" .

وكان هناك صوت فرقعه ، كما لو كانت الفتاة البائسه تهرع نحو الباب ، ولكن المتحدث اعترض طريقها . قالت : "قفى هناك والا سأفضحك بالمنزل والشارع كله" . وجلست مس دارتل على مقعد قرب الباب ونظرت الى اسفل ، كما لو كانت اميلى تزحف امامها . واستطعت ان ارى شفتها الملتويه ونظرتها القاسيه مثبته على مكان واحد ، بانتصار نهم . وقالت : "اصغ لما أقول ، واحتفظى لنفسك بتمثيلك . اتأملين ان تثيرى شفقتى بدموعك ؟ الا تعرفين ما فعلتيه ؟ أتفكرين يوما فى المنزل الذى قمتى بتحطيمه ؟ ! " وصاحت اميلى : آه انه لا يمر يوم او ليله الا وافكر فيه ولا تمر على لحظه ، فى صحو او نوم ، الا وهو ماثل أمامى كما كان فى الايام الخوالى عندما أدرت له ظهرى الى الابد . وجلست روزا دارتل وهى تنظر الى اسفل كتمثال جامد من نحاس . وقالت : "انه غرور بائس لابد أن الارض ! منزلك ! هل تتخيلين اننى افكر فيه ، أو انك قد تسببين أذى له لا ينفعه المال ؟ منزلك ! اننى اتحدث عن منزله ، حيث أعيش" — وهنا قالت وهى تمد يدها بضحكتها وتنظر الى الفتاة : "هل هذا يكون سببا للتفرقة بين والدة وابنها ، وسببا لحزن فى منزل كان يجب الا تدخليه الا كخادمة مطبخ .

— "اذا كنت تعيشين بمنزله وتعرفينه ، لكنت تعرفين مدى القوة التى يستخدمها مع فتاة ضعيفة ساذجة . اننى لا أدافع عن نفسى ، لكننى اعلم جيدا وهو يعلم جيدا انه استخدم كل قواه لخداعى ، وقد صدقته ووثقت به ، واحببته" . وقفزت روزا دارتل من مقعدها ، وانثنت ونهرتها ، ووجهها متجهم تسيطر عليه حدة العاطفة ، حتى اننى كنت سألقى بنفسى بينهما . وصاحت ويدها ترتعد كما لو كانت تريد ان تجد سلاحا لقطعها : "انت تحبينه ؟ أنت ؟ " وانكمشت اميلى بعيدا عن نظرى . ولم تجب . واضافت روز قائلة : "وتقولين هذا لى بفمك الاثم ؟ لماذا لا يضربون هذه المخلوقات بالسوط ؟ انه لمن الافضل لك ان تبحثى عن منزلك وتخفين رأسك بين هؤلاء الناس الممتازين ، الذين ينتظرونك . وعندما ينتهى كل شئ ، يمكنك ان تشقين وتحيين . واستطردت قائله : "اغربى ، اذا لم يكن بمنزلك ففى أى مكان آخر ، لا يصل اليه أحد فى الحياة ، او الافضل فى الموت . واذا مكثت هنا حتى الغد فسوف أفضحك ، وهنا نساء فاضلات بالمنزل ومن السخرية أن تكونى انت بينهن" .

وسمعت وقع أقدام على السلم من بعيد ، وعرفتها وتأكدت منها . انها وقع اقدامه . شكرا لله . واضافت قائله ببطء وحزم ، وهى تفتح الباب الاخر للخروج . ولكن احذرى ، فانا مصممة لاسباب لدى وكراهية عندى ان القى بك الى الخارج ما لم تغربى عن وجهى . وما قلته سأفعله . واقتربت الخطى على السلم أكثر فأكثر .
— "عمى" . — وتبعت هذه الكلمه صرخة مرعبه . وتوقفت لحظه ، ونظرت الى الداخل ورأيتها بين ذراعيه . وحملق قليلا فى وجهها ، ثم انحنى لتقبيله . وقال بصوت خفيض "سيد ديفى . اشكر الله اذ تحققت احلامى

واشكره الارشادى بطرقه الخاصة الى عزيزتى . وعندئذ حملها بين ذراعيه ، وهى بلا حركة فاقدة الوعى ، وهبط الدرج .

وفى صبيحة اليوم التالى ، بينما كنت اسير بالحديقه مع عمتى (التى كانت تتريض بسبب رعايتها لدورا) — اخبرت ان مستر بيجوتى يريد أن يتحدث الى . وقلت لمستر بيجوتى : "لقد عزمت امرك بالنسبه للمستقبل ياصديقى ؟ ولا داعى طبعا لهذا السؤال ." فأجاب : "تماما يامستر ديفى ، وقد أخبرت اميلى . فهناك بلاد كثيره بعيدة عن هنا . ان مستقبلنا يكمن خلف البحر ." وقلت : "سيهاجران معا ياعمتى ." وقال مستر بيجوتى بابتسامته التى يشوبها الامل : "نعم ، فلا أحد يستطيع أن يؤنب عزيزتى باستراليا . وستبدأ حياة جديدة هناك" . وسألته عن موعد رحيله . وأجاب : "لقد ذهبت هذا الصباح لاحصل على معلومات عن سفنهم . بقى حوالى ستة اسابيع او شهرين من الان ، عندما ستبحر سفينة وسنستقلها . هذا ولم اعزم رأيى على أن اذهب الى هام هذا الصباح وأقص له ماحدث . ولذا فقد كتبت خطابا وأنا بالخارج وأرسلته بالبريد ، وأخبرته بالامر كما وقع ، واننى سأحضر فى الغد ، وأنهى بعض شئونى وأودع يارموث .

وقلت عندما لاحظت انه يريد شيئا لم يقله : "وهل تريدنى ان اذهب معك ؟" فأجاب : "اذا تفضلت بهذا المعروف ياسيد ديفى ، فاننى اعلم ان رؤياهم لك ستفرحهم بعض الشئ . وفى اليوم التالى صباحا ذهبنا بالعربه الى يارموث ، ذلك المكان المعتيد والشوارع المألوفة ، ولما نظرت داخل محل مستر أومر وجوارم ، ورأيت هناك صديقى المستر أومر يدخن غليونه .

وقلت وأنا ادخل المحل : "كيف الحال يامستر اومر بعد هذا الزمن البعيد ؟" وعرفنى وسر كثيرا وقال : "ان حضورك لشرف كبير . ان اطرافى فقط ليست على مايرام ، وفيما عدا هذا فالحمد لله . اننى أشاهد من مقعدى هذا اكثر مما أرى بعيدا عنه . فهنا يأتى كثير من الناس ليتحدثوا ، وفى صفحات الجرائد الكثير ، ولقد تعودت على قراءتها . ففيها الكثير من المعلومات . وانت قد أخذت فى الكتابة ، أليس كذلك؟ ان مؤلفاتك لطيفه . وانه مما يشرفنى ويسعدنى اننى كنت متصلا فى وقت من الاوقات باسرتك هناك فى بلندرستون . وكنتم اسرة صغيرة" . وغيرت الموضوع وأشرت الى اميلى . وقصصت له عودتها الى عمها بواسطة مارثا . وكان يصغى بانتباه كبير وقال عندما انتهيت من القصة : "اننى مسرور بهذا ياسيدى . انه أفضل خبر سمعته منذ أيام عديدة . يا الهى يا الهى ! وما الذى سيمكن عمله لهذه المرأة التعسه مارثا ، الان ؟ لان كل ماحدث أرغب فى الاطلاع عليه . اننى لا أظن ان الفتاة سيئة . وانى سعيد انها ليست كذلك ان وجهة نظرى اننا جميعا ننحدر الى تل ، مهما بلغنا من العمر لان الزمن لا يتوقف لحظة . فلنفعل الخير ونبتهج .

وبعد أن سرت قليلا بالمدينة ، ذهبت الى منزل هام . وتحدثنا عن ثراء مستر بيجوتى المتوقع ببلد أجنبى ، وماسيرويه من عجائب فى خطاباته . ولم نذكر شيئا عن اميلى بتحديد اسمها ، ولكننا اشرنا اليه اكثر من مرة . وكان هام اكثرنا حزنا . وقالت لى بيجوتى عندما صعدت معها الى غرفة صغيرة انه كان حزينا على الدوام . وقالت لى وهى تبكى ، ان قلبه قد تحطم ، رغم انه كان شجاعا ولطيفا ، وكان يعمل بجد فى هذا المكان . وكان احيانا يتحدث عن حياتهم القديمة فى المنزل القديم (القارب) ثم ذكر اميلى وهى طفلة . ولكنه لم يذكرها ابدا كامرأة .

وأوحت لى ملامح وجهه انه يريد أن يتحدث الى على انفراد . وقابلته وقلت له انه يستطيع التحدث الى اذا رغب . ولم أخطئ تعبير وجهه ثم قال دون ان ينظر الى : "ياسيد ديفى ، هل ستراها ، اتظن ذلك؟" قلت : "ربما هذا يؤلمها كثيرا" . فأجاب : "لقد فكرت فى هذا ، فعلا ان هذا سيؤلمها ، فعلا ياسيدى . وقلت بلطف : "ولكن ياهام ، هل هناك مايمكن ان اكتبه لها بالنيابه عنك ، اذا لم أستطع قوله او اخبارها به ...." ومشينا قليلا صامتين ، ثم قال : "اننى اسامحها ، وأرجوها ان تسامحينى ، اذ أننى افرغت عاطفتى بقوة لها . وبما أنك مثقف ياسيد ديفى فيمكنك ان تنهى اليها اننى لم يجرح شعورى ، ولا زلت احبها ، وحزين من أجلها . اننى اود ان تقول هذا ، وصلواتى لها ، وهى عزيزة لدى" .

وضغطت على يده ثانية ، وأخبرته اننى سأفعل هذا بقدر ما استطيع . فأجاب : "اشكرك ياسيدى لقد تعطفت على بالمقابلة . ولقد تعطفت اذ اصطحبته معك . وعندما تراه آخر مرة أرجو ان تنهى اليه شكرا صادقا ليتيم كان له أكثر من أب ؟ ووعدت ان أن افعل هذا مخلصا .

(الفصل الرابع عشر)

ذهبنا انا ومستر ديك وعمتي وترادلز الى كانتربرى بمعرفة دوفر. وفى الفندق الذى طلب منا مستر ميكوبر الانتظار فيه ، وجدت خطابا يقول فيه انه سيحضر فى الصباح فى الساعة التاسعة والنصف. وكنا قلقين جميعا ونحن نتناول الافطار. وعندما اقتربت الساعة اكثر من التاسعة والنصف ، زاد قلقنا فى انتظار مستر ميكوبر. ولم نستمر فى تناول الطعام سوى المستر ديك ، ولكن عمتي اخذت تذرع الغرفة ذهابا وجيئة ، وحاول ترادلز قراءة الجريدة ، ولكن عيناه كانتا تنظران الى السقف ، ونظرت انا من النافذة لاراقب مجئ مستر ميكوبر الذى ظهر فى الموعد المحدد بالطريق.

قلت: "ها هو ولكنه ليس فى رداءه القانونى ". وقال مستر ميكوبر: "ساداتي ، سيداتي ، صباح الخير. واننى استأذنك يامستر ترادلز لاذكر اننا تراسلنا معا ". وقال ترادلز الذى كنت انظر اليه بدهشة: "هذه هى الحقيقة دون شك ياكوبرفيلد. لقد استشارنى مستر ميكوبر فيما كان يفكر فيه ، وقد نصحته بقدر ما استطعت". وقال مستر ميكوبر: "ياسيد كوبرفيلد. ارجو السماح بخمس دقائق أولا ، ثم نذهب فى صحبته للاستفسار عن مسز ويكفيلد ، بمكتب ويكفيلد وهيب الذى أعمل انا فيه". ونظرت انا وعمتي الى ترادلز الذى اومأ برأسه موافقا ، وقال مستر ميكوبر: "اننى ليس لدى الان ما أقوله اكثر من هذا". ولدهشتي الكبرى وجدته قد انحنى لنا ثم اختفى ، وكان وجهه شاحبا وتصرفاته غريبه. وعندما حان الوقت اعطى ترادلز ذراعه لعمتي ، وخرجنا جميعا معا الى المنزل العتيق دون ان نتحدث بكلمة واحدة فى الطريق.

ووجدنا مستر ميكوبر فى مكتبه فى الدور الارضى ، وكان اما يكتب أو يتظاهر بالكتابة بانهماك. وادخلنا الى حجرة الطعام — وهى أول غرفة دخلتها بالمنزل — وفتح باب مكتب مستر ويكفيلد السابق وقال: "مسز ترتوود ، السيد ديفيد كوبرفيلد والسيد توماس ترادلز ومستر ديك ". وادهشت زيارتنا يورايا. وقطب جبينه بدرجة انغلقت عيناه الصغيرتان ، ورفع يده الى ذقنه مما فضح دهشته. وفى لحظة اخذ يظهر سروره وتواضعه كما عهدنا به. وقال: "اننى متأكد ، ان هذا سرور غير متوقع. آمل ان تكون بخير يامستر كوبرفيلد ، وبتواضع أعبر عن سرورى لوجود أصدقاء. وشعرت بخجل لتركه يأخذ يدى. ولكنى لم أعرف ماذا عساى ان افعل. وقال يورايا بابتسامته الباهته: "لقد تغيرت الامور فى هذا المكتب ، يامس ترتوود منذ كنت كاتبا متواضعا ، كنت بفرسك ، أليس كذلك ؟ ولكنى لم اتغير يامس ترتوود. فردت عمتي: "حقا ياسيدى ، فى الحقيقه ، انك لم تتغير منذ شبابك اذا كان هذا يرضيك ". وقال يورايا: "أشكرك يامسز ترتوود ". قال هذا وهو يتلوى: "اخبر مسز اجنس ووالدتى بقدومهم يامستر ميكوبر. فوالدتى ستفتقد عندما ترى فى هذه الصحبة. اختك لم تتعرف بمستر ويكفيلد ياسيد ترادلز ؟ ولكن حدث لى الشرف ان قابلتك مرة؟ "

وأجاب ترادلز: "لا ، لم أتشرف بمعرفة مستر ويكفيلد ، وأظن اننى زرتك مرة ياسيد هيب " ولقد كان هناك نبرة خاصة فى هذا الرد مما جعل يورايا ينظر الى المتحدث نظرة الشك. ولكنه اذ توسم فى ترادلز وجهه الصبوح وابتسامته ، طرد هذه الفكرة ورد بحركة من جسمه وفى حيوية: "آسف لهذا يامستر ترادلز كنت ستعجب به كما نحن معجبون به أيضا. واذا أردت من يحدثك عنه بفصاحة اسأل مستر كوبرفيلد ". ولم استطع ان انهى تحيتى الى أجنس التى أدخلها مستر ميكوبر. وكنت أرى يورايا وهو يراقبها وهى تحيينا. ثم أشار مستر ميكوبر الى ترادلز اشارة خفيفة ، على اثرها — ولم يلحظ هذا احد غيرى — فخرج ترادلز". قال يورايا: "لاتنتظر يامستر ميكوبر". ووقف مستر ميكوبر منتصبا امام الباب ، وهو يتأمل مخدومه وقال يورايا: "ماذا تنتظر؟ الم تسمعني عندما قلت لك لا تنتظر. وأجاب مستر ميكوبر ولم يتحرك: "نعم". وقال يورايا: "اذن لماذا انتظر؟ " وأجاب مستر ميكوبر بانفجار: "لاننى — بالاختصار ، أختار". وبهتت يورايا ، وسرى الشحوب فيه. ونظر الى مستر ميكوبر باهتمام وتقلصت ملامح وجهه وقال: "انك شخص عربيد ، كما يعرف العالم كله. وانى اخشى أن تدفعنى للتخلص منك. اذهب سأتحدث اليك فى الحال". قال مستر ميكوبر وهو ينفجر بعنف: "اذا كان هناك وغد فى هذا العالم ، تحدثت اليه كثيرا ، فاسم هذا الوغد هو — هيب". وجلس يورايا كما لو كان قد صدم او لدغ ، وهو ينظر الينا ببطء بوجهه المعبر عن الشر ، وقال بصوت منخفض: "آه ! انها لمؤامرة ، لقد التقيتم هنا على موعد. والان احذروا. سوف

لا يفيدكم هذا . انكم اناس أفاضل اليس كذلك ؟ ترشـ ون كاتبى . وهو شخص تافه على رأس مجموعة مثله ، انك تعلم هذا ياكوبرفيلد دون أن يكون لاحد فضل عليك ، وتتهموننى بالكذب ؟ يامسز وكفيلد ، اذا كنت تحبين والدك لا تنضمين لهذه الجماعة . فانا سادمره اذا فعلت هذا . تعالى ! وفكرى جيدا قبل ان تتقلب عليك الامور . اين والدتى ؟ وقال وقد لاحظ فجأة وهو منزعج عدم وجود تردلز ، وجذب حبل الجرس : "انها اعمال لطيفه فى منزل الشخص نفسه . قال تردلز وقد عاد مع والدته : "ان مسز هيب هنا ياسيدى ، لقد أعطيت نفسى حرية التصرف عليها . ورد يورايا : "من أنت لتجعلها تتعرف بك ؟ وماذا تريد هنا ؟ قال تردلز بطريقه رجل الاعمال : "اننى وكيل وصديق مستر وكفيلد ياسيدى . ولدى سلطة المدعى من قبله فى جيبى ، وانوب عنه فى كل الامور" . وقال يورايا وقد بدى عليه القبح اكثر : "لقد نهل الحمار القديم من منهل قديم ، ولقد أخذ هذا منه بالتزوير . ورد تردلز بهدوء : "لقد أخذ شيئا منه بالتزوير . أعلم هذا ، فانت أيضا يامستر هيب . وسنجعل هذا الامر على مستر ميكوبر لو سمحت" . وصاحت مسز هيب بحركة قلقه : "يورى ..." فرد قائلا : "اصمتى ياوالدتى ، فالقليل من الكلام ، ينهى الامر بسرعه" — ولكن يا يورى ... اصمتى ياوالدتى من فضلك واتركى الامر لى .

وكنت اعلم ان تظاهره كاذبا ، وادعاءه أجوف ، ولم اره على حقيقته الا عندما خلع قناعه على هذا النحو فالمفاجأة التى واتته ، عندما أدرك انه لا فائدة ، والكراهية التى كشف عنها ادهشتنى فى بادئ الامر اما الذى كنت اعرفه منذ زمن بعيد وكرهته من اعماق قلبى" . وكنت احاول ان احد من قلق مستر ميكوبر ولكن لصوته ، وكان يردد المقطع الاول من كلمة "هد" — وسحب المسطره من صدره ليستخدمها كسلاح للدفاع ، واخرج من جيبه ورقة مطوية على شكل خطاب كبير . وفتح هذه الربطة ونظر الى محتوياتها وهو مبتهج ومعجب باسلوب تأليفها وبدأ يقرأها كما يلى :

عزيزتى مسز ترتوود ، سادتى :

"ان وجودى امامكم ربط لاعلن عن اكبر شرير وجد فى العالم" . ودون ان ينظر مستر ميكوبر بعيدا عن الخطاب ، اشر بالمسطره الى يورايا . وقال "اننى لا أطلب شئ لنفسى . فبسبب العوز واليأس والجنون ، التحقت بمكتب الشركة : وكيفيلد — وهيب . ولكن الحقيقة ان هيب يديرها بمفرده هيب وهو فقط . وهو أساس هذه الان . وهو فقط المزور والغشاش" . وشحب يورايا اكثر عند سماعه هذه الكلمات وهجم على الخطاب وكأنه يريد تمزيقه اربا . ولحسن الحظ او باعجوبه اوقفه مستر ميكوبر بالمسطره ، ولم يمكن يده اليمنى . وضربته المسطرة على معصمه ضربة قويه وكأنها قد تحطمت ودوى الصوت وكان الخشب قد وقع على الارض .

وقال يورايا وهو يتلوى من الالم : "ليلقاك الشيطان ، وساكون معك واخذ مستر كوبر يلهث قائلا : "اقترب منى ثانية انت .. انت .. ياهيب ، وسوف احطم رأسك . اقترب .. تعال . واعتقد اننى لم أر شيئا اكثر من هذا مثيرا للضحك وكنت واثقا ان مستر ميكوبر يتخذ من مسطرته سيفا ويصيح : "تعال" وبينما كنت انا وتردلز نقوم بدفعه الى احد الاركان كان يحاول الافلات من الركن . وعندما هدأ ، تقدم بالخطاب :

"لقد وجدت ان مهمتى هى مجرد خدمات للتزوير فى العمل ، واهمل مستر وكفيلد ، ونحى بكل الطرق الممكنه ، هذا بينما الشرير هيب ، يظهر وده وصداقته الى هذا الرجل المساء اليه . واخذ يقرأ ، وهو ينظر اليه ، واضعا المسطرة تحت ذراعه الايسر للضرورة : "ان اتهاماتى ضد هيب هى كالاتى : وكتمنا أنفاسنا ، واعتقد ان يورايا كان مثلنا . قال مستر ميكوبر : "أولا . عندما ضعفت واضطربت قدرات مستر وكفيلد وذاكرته ، عقد هيب كل العمليات والمعاملات الرسمية . وكان هيب يجبره دائما على الدخول فى العمل . وحصل على توقيع مستر وكفيلد على وثائق هامة فى مثل هذه الظروف ، مدعيا انها ليست ذات اهمية . وارغمه على التوقيع على مبلغ ضخم من المال . واستخدمه منذ ذلك الحين فى تعذيبه واذلاله . وقال يورايا وهو يهدد بيده : "سوف تثبت هذا فى الوقت المناسب" . وقال مستر ميكوبر : "اسأل — هيب — الذى عاش فى منزله بعده . وقال يورايا : "ان الاحمق نفسه — يعيش هناك الان" . وقال مستر ميكوبر : "اسأل هيب هل احتفظ بأية كراسات فى هذا المنزل — هل لك ان تسأله ؟" ورأيت يورايا يحك ذقنه بيده بحركة لا شعوريه . وقال مستر ميكوبر : "او اسأله . هل أحرق واحدة هناك . فاذا قال نعم ، وسألك عن مكان الرماد ، فاحله الى ويلكنز ميكوبر ، وسيسمع عن شئ ليس فى صالحه بالمرة .

ثانيا : لقد زور هيب فى مناسبات عديدة توقيع مستر وكفيلد • وهناك حالة يمكن ان اثبتها بنفسى • وكان المدعو هيب يريد ان يسيطر على مستر وكفيلد بسبب المبلغ المذكور آنفا ، وبفائدة يقدمها هيب اليه لينقذه من العار • وهذه الامضاءات كلها التى يدعى ان مستر وكفيلد هو الذى وقعها ، قد كشفها ويلكنز ميكوبر ، وهى تزويرات قام بها هيب • ولدى فى حوزتى ، ولديه وفى دفاتره ، عديد من هذه التقليدات لتوقيع مستر وكفيلد • ولدى الوثيقه فى حوزتى ولقد أحلتها الى مستر تردلز • وقال تردلز : "هذا صدق تماما" • وصاحت امه : "يايورى ، كن متواضعا واتفق معهم على شروط • اننى اعرف أن ابنى متواضعا ، اذا اعطيتم له الفرصه للتفكير • انك تعرف يا مستر كوبرفيلد انه كان متواضعا دائما •

ثالثا : وأخيرا • اننى الان فى موقف استطيع أن اظهر ان مستر وكفيلد قد نهب لمدى اعوام ، بكل الطرق بالتزوير والتزييف الخاص بهيب • وكان آخر ما قام به تزوير امضاء بالتنازل عن نصيبه • وكان يعتقد ان الرجل اذا أفلس فكل اعتماده عليه ، وانه ضرورى بالنسبه له • وبهذا دمر الرجل • ولقد أخذت كل هذا على عاتقى لاظهره •

المخلص دائما :

ويلكنز ميكوبر

وطوى مستر ميكوبر خطابه ، وهو فى أشد حالات التأثر ، ولكنه كان راضيا عن نفسه ، ثم سلم الخطاب بانحناءة لعمتى • وكانت هناك خزانة حديدية فى الغرفة • وكان المفتاح بها • واصاب يوريا شك سريع ، وعندما نظر الى مستر ميكوبر ، ذهب اليها ، وفتحها على مصراعيها ، وكانت خاوية • وصاح ووجهه ينم عن الذعر : "اين الدفاتر ، لقد سرقتم لص • وربت مستر ميكوبر على نفسه بالمسطره • انا سرقتهم عندما اخذ المفتاح منك كالمعتاد — مبكرا نوعا ما — وفتحتها هذا الصباح • قال تردلز : "لاتنزعج ، انها فى حوزتى • ساعتنى بها بناء على السلطة المخولة لى والتى ذكرتها لك • وصاح يوريا : "انك تتلقى سلعا مسروقة اليس كذلك ؟ وأجاب تردلز : "فى مثل هذه الظروف ، نعم •" ودهشت عندما مضت عمتى وهى هادئة ومتنبهة ، وضربت يورايا وأمسكت بياقته بكلتا يديها •

— اتعرفين ما أريده ؟ ممتلكاتى ! ياعزيزتى اجنس ، كما لو كنت احسب أن هذا يحدث من زمن والدك • اننى لم أكن استفيد بجزء منها عن الاستثمار وهى موجودة هنا ، وسآخذها • تعال ياتروت وخذها منه • واسرعت لاقف بينهما • وطوال هذه اللحظات الاخيرة كانت مسز هيب تركع لكل منا ، وترجونا • وقال ابنها لى وهو يرمقنى بغيظ : "ماذا تريدون عمله ؟" قال تردلز : "ساخبرك بما يجب عمله • وصاحت امه : "ان يورايا يريد أن يكون متواضعا • لاتلتفتون لما يقول أيها السادة • قال تردلز : "ان مايجب عمله هو هذا : "اولا ان العقد الذى سمعنا عنه ، يجب ان يسلم لى فى الحال وفى هذا المكان وقال مقاطعا • افترض لنه ليس معى • قال تردلز : "انه معك • ولذا فسوف لانفترض هذا • ثم انك يجب ان تكون مستعدا لتسليم كل دفاترك واوراقك ، والضمانات والحسابات الماليه ، من كل من النوعين • وبالاختصار — كل شئ هنا • وقال يورايا وهو يقسم : "سوف لا أفعل هذا !" •

وقال تردلز : "ان السجن مكان أمين للحجز ، وعلى الرغم من أن القانون قد يطول امده لانصافنا فلا شك انه سيوقع عليك العقاب • وانك تعرف هذا جيدا مثلما أعرفه • هل لك ياكوبرفيلد ان تذهب وتحضر ضابطين ؟" وصاحت مسز هيب وهى تركع لاجنس لتتدخل ، وتقول انه متواضع جدا ، وان كل شئ صحيح ، واذا لم يفعل مانريد ، فانها ستفعله بل وأكثر من ذلك • وصاح فى : "قف" ثم قال لامه : "كفى عن الضوضاء يا أمى ! حسنا اذهبى واحضريها • قال تردلز عندما حضرت : "حسنا والان يامستر هيب يمكنك ان تفكر ، وبالنيابه عن الحاضرين اعلنك ، ان هناك شيئا واحدا يجب عمله ويجب عمله دون تأخير • ودون أن يرفع عينيه من الارض مر يورايا بالحجرة واضعا يده على ذقنه وتوقف عند الباب وقال : "اننى كنت اكرهك دائما ياكوبرفيلد لانك كنت عندى دائما" • وقلت : "اعتقد اننى اخبرتك مرة من قبل ، انك انت الذى تحمل بين ضلوعك شراهه وفكر لكل العالم • ربما من الافيد لك ان تفكر فى المستقبل ، فاذا لم تكن هناك شراهه او مكر بهذا الوضع ، لتحقق الكثير • وهذا مؤكد تماما" • وتحدث معى بعد ذلك مستر ميكوبر ، وأخبرنى بوجوب مشاهدة عودة الثقة بينه وبين مسز ميكوبر • ثم دعا المجموعة لمشاهدة هذا المنظر المؤثر • وقال : "ان الحجاب الذى كان بينى

وبينها قد ازيل ، كما أن الاطفال ستسود بينهم وبين والدهم علاقة طيبة • وشكرناه وذهبنا انا وعمتى ومستر ديك لمنزله القريب ، ولما فتح باب حجرة الجلوس وجدنا أنفسنا امام الاسرة • وصاح مستر ميكوبر: "ايما زوجتى ! واندفع بين ذراعيها • وصرخت مسز ميكوبر وحوته فى صدرها • ثم استعادت مشاعرها وقدمت عمتى لها ، اما أنا فهى تعرفنى • وقالت السيدة البائسة وهى تجيبنى : "عفوا يامستر كوبرفيلد ،انني لست قويه ، وزوال سوء التفاهم بيني وبين مستر ميكوبر كان فى البداية شيئا كثيرا بالنسبة لى • وقالت عمتى: "هل هذه هى كل اسرتك ياسيدتى " • فأجابت: "ليس هناك غير هؤلاء فى الوقت الحاضر" • قالت عمتى: "يا إلهى اننى لم أقصد هذا ياسيدتى ، انى أقصد كل هؤلاء لك؟ " فأجاب مستر ميكوبر: "ياسيدتى ، ان هذا هو عددهم بالضبط• " وقالت عمتى : "وهذا الشاب الكبير ، ماهى مهنته؟ " فقال مستر ميكوبر: "لقد كان املى عندما جئت هنا ، ان الحقه بالكنيسة • ولكن لم يكن هناك مكانا شاغرا ، ولقد تعاقد مع محل عام لأحد افراد مجموعة غنائية ، ليست دينية •

وأجاب مستر ميكوبر برقه: "ولكنه يسير على مايرام " • وفكرت انا وعمتى قليلا ثم قالت: "هل فكرت يا مستر ميكوبر فى الهجرة " • فرد مستر ميكوبر: "ياسيدتى ، لقد كان هذا هو حلم شبابك ، وامنيتى فى سنى المبكرة" • وقالت عمتى وهى تنظر الى : "نعم ، انه لشئ عظيم لك ولاسرتك اذا هاجرتم الان " • ورد مستر ميكوبر مكتئبا : "المال ياسيدتى ، المال " • وصاحت عمتى : "المال ، لقد اديت لنا خدمة جليلة ، ويمكنا ان ندبر لك المال الذى لايوازى نصف خدماتك " • وقال مستر ميكوبر وهو متحمس : " لا يمكنى ان آخذه كهدية ، ولكن اذا قدم لى مبلغا كافيا بفائدة ولتكن خمسة فى المائه فى السنة مثلا فان هذا يسمح بالتفكير • • • وأجابت عمتى : "ممكن ؟ ممكن ذلك وسوف يكون وبشروطك اذا طلبت • وليفكر كلاكما فى هذا الان ، ان هناك اناسا يعرفهم د يفيد سيذهبون الى استراليا قريبا • واذا قررت الذهاب فلماذا لاتذهبون على نفس السفينة؟ فقد تساعدوا بعضكم بعضا • وقال مستر ميكوبر: "هناك سؤالا واحدا أود أن أسأله : "هل المناخ مناسب " • وقالت عمتى : "اعظم مناخ فى العالم " •

وردت مسز ميكوبر: "تماما • وهنا أود أن أسأل • وهل قدرات رجل مثل ميكوبر تظهر فى مثل هذا المجتمع؟ وهل هناك مجال لمواهبه لكى تنمو وتتسع؟ " وقالت عمتى : "ليس هناك مكانا أفضل ، لرجل يستطيع أن يسير أموره جيدا ، ويكون مثابرا • ورددت مسز ميكوبر: "ان مستر ميكوبر سيجد مجالا كبيرا للعمل فى استراليا • وقال مستر ميكوبر: "ان مستقبلى ومستقبل اسرتى هناك على شواطئ هذه البلاد كما اعتقد " •

* * *

ويجب ان اتوقف مرة أخرى • يازوجتى الطفلة ، هناك شئ بين الجمهور المتحرك امام ذاكرتى ، هادئا ساكنا ، يقول ببراءة الطفولة الجميلة ، كف عن التفكير فى ، وانظر الى الزهرة الصغيرة وهى تذوى الى الارض • وفعلا ، فكل شئ يبدو رقاقا ، ثم يذوى: "اننى الان مع دورا فى كوخنا • ولا أعرف منذ متى هى مريضه ، ان ذلك لم يكن منذ امد بعيد ، ولكنه امر يضايق • وقالوا لى انتظر بضعة ايام • ولكنى اخشى ان هذا اليوم سوف لا يأتى ، وبدأت تساورنى المخاوف • ومتى سأرى زوجتى الطفله وهى تجرى فى ضوء الشمس مع صديقها القديم جيب • لقد كبر كما كبرت هى ، وضعف وضعفت اطرافه ربما لانه افتقد سيدته • وترقد دورا وهى تبتسم لنا دون أن تشكو • وياليها من راحة حين أجلس هادئا فى الغرفة وعيون زوجتى الطفله تلتفت الى ويدها بين يدى ، وأجلس هكذا ساعات •

وكان الوقت صباحا ، وعندما عمتى دورا ، وأرتنى كيف ان شعرها الجميل سيتلوى على الوسادة • وتقول وأنا ابتسم : "لست مغرورة بشعرى الان ايها الولد الهازل ، ولكن لانك تعودت ان تقول انه جميل ، ولاننى فى البداية عندما فكرت فيك بدأت انظر الى المرآة ، فهل ترغب فى خصلة منه • يالك من احمق ياذودى ، عندما أخذت خصلة منه • — لقد كان ذلك فى اليوم الذى كنت ترسمين فيه الزهور التى اعطيتها لك يادورا عندما اخبرتك بمدى حبى • وتقول دورا : "آه • ولكنى لم أود ان اخبرك عندئذ كيف انى بكيت لاننى عرفت حقيقه انك تحبنى • وعندما استطيع ان أجرى كما تعودنا فى الماضى فدعنا يادودى نذهب لرؤية هذه الاماكن ، ونسير قليلا • ولاتنسى والدى المسكين • — نعم وسنمضى اياما سعيدة • ولهذا يجب ان تتحسنى بسرعة ياعزيزتى • وكان الوقت مساء ، وانا أجلس فى نفس المقعد بجوار نفس الفراش ونفس الوجه ينظر الى • وكنا صامتين وكانت تبتسم • ولم أحملها عند صعود وهبوط السلالم وانما كانت مستلقاه هنا طوال اليوم •

— "دودي " — "عزيزتي دورا " . — أرجو الا تعتقد أن ما ساقوله الان غير معقول ، انني اريد أن أرى اجنس . — "ساكتب لها ياعزيزتي " . — "حقا ؟ انك لعطوف. انني أود أن اراها حقا . " — سأخبرها بهذا فقط ومن المؤكد انها سوف تحضر . " — "انك تشعر بالوحدة عندما تنزل بمفردك الى الطابق السفلي " وكانت دورا تهمس بهذه الكلمات وذراعها حول عنقي . — كيف اشعر بخلاف ذلك عندما أرى مقعدك خاليا ياحبيبتي ؟ ! — وتمسك بي برهه وتقول : "مقعدي الخالي . وهل تفتقدني فعلا يادودي ؟ ثم نظرت الي وابتسمت: "حتى جيدي المسكين يفتقدني ؟ " — "ان قلبي يفتقدك كثيرا ؟ — "واقتربت مني وطوتني بين ذراعيها : "انني سعيده ولكني آسفه . وأخذت تضحك وتنتحب بهدوء وسعادة . وفي الليل بقيت معها . ووصلت اجنس ومكثت لدينا يوما بأكمله وليلة . وجلست أنا وهي وعمتي مع دورا منذ الصباح . ولم نتحدث كثيرا ولكن دورا كانت مبتهجه وراضيه . ثم أصبحنا أنا ودورا منفردين .

— "انني ساتحدث اليك يادودي . سأقول شيئا فكرت فيه كثيرا في الفترة الاخيره ولا تشغل بالك ؟ — ونظرت الي برقة . — "اشغل بالي ياحبيبتي ؟ " — "انني لا اعرف ما هو رأيك ، وفكرت فيه أحيانا ربما فكرت نفس تفكيري . ياعزيزي دودي — انني اخشى انني كنت صغيرة جدا . ونظرت الى عيني وتحدثت برقه . وكنت أشعر أنها ستتحدث عن نفسها في الماضي . — انني اخشى انني كنت صغيرة جدا . ليس في العمر فقط بل في الخبرة والتفكير وكل شئ . لقد كنت حمقاء وكنت أفضل ان نحب بعضنا كفتى وفتاه ، وننسى كل شئ . لقد بدأت اعتقد انني لم أكن أصلح لان أكون زوجه وحاولت حبس دموعي وأجبت: "يادورا ياحبيبتي وانا ايضا لم أكن اصلح زوجا " . وقالت: "لا أعرف ، ربما . ولو انني كنت أصلح للزواج ، لكنت قد اديت لك خدمات اكثر من هذا . وانت ماهر ولم أكن انا ماهرة .
— لقد كنا سعداء للغاية يادورا . — لقد كنت سعيدة جدا . ولكن عندما مرت السنون فان ولدي العزيز اصبح يضجر من زوجتك الطفله . فقد اصبحت تقل في صلاحيتها كرفيقه له ولم يعد في امكانها ان تثبت انها ممتازه كما كانت .

— "ياعزيزتي دورا ، لاتتحدثي الي على هذا النحو . ان كل كلمة تبدو تأنيبا . " وقالت وهي تقبلني : "ولا كلمة . ياعزيزتي . انك كنت لا تستحق هذا . وانني احببتك ولا أستطيع ان أؤنبك . ان كل ما امتازبه هو انني جميله او انك ظننت هذا .. ألم يعد الطابق الاول موحشا يادودي ؟ — "للغاية"
— "هل مازال مقعدي هناك؟ " — "في نفس مكانه القديم " . — "والان أوعدني . انني اريد التحدث الى اجنس . عندما تنزل اخبرها وارسلها لي ، وعندما اتحدث اليها لاتدع أحدا يدخل ولا حتى عمتك . انني اريد التحدث اليها على انفراد . — "اعدك انها ستحضر في الحال ، ولكني لا أستطيع تركها اذ أن هذا يحزنني . وهمست وهي تمسك بي بين ذراعيها : "قلت انها أحسن كما هي الان . آه يادودي انك بعد سنوات انك لن تستطيع ان تحب زوجتك الطفلة كما تحبها الان . انني اعرف انني كنت صغيرة وحمقاء . ان حالتي احسن بكثير على وضعها الراهن .

كانت اجنس في الطابق الارضي عندما ذهبت الى حجرة الجلوس وبلغتها الرسالة . واختفت وتركتني بمفردي مع جيب . وكان جيب يرقد على فراشه يحاول النوم . وجلست بجوار المدفاة . وأنا افكر بحزن في هذه المشاعر الخفية التي سيطرت علي منذ زواجي . فمنذ ذلك الوقت ومع شروق شمس كل صباح كان في تفكيري صورة زوجتي الطفلة العزيزة كما عرفتها في أول الامر ، وكان حبنا ينمو بشده . فهل كان من الافضل ان نحب بعضنا كفتى وفتاه ، وننسى هذا الحب ؟ ... وكان الوقت وئيدا ثقيلا ، ولم أشعر به حتى نادى زميل زوجتي العتيد ، وكان قلقا على غير المعتاد وزحف من فراشه ، ونظر الي ، وذهب تجاه الباب . حاول الصعود الى الطابق العلوي . — "ليس الليله ياجيب — ليس الليله" وزحف ببطء الي ، ولعق يدي ، ورفع عينيه الحزينه تجاهي . وجلس بجوار اقدامي ، وفرد نفسه لينام ، وصرخ صرخه حزينه ثم مات" . — "اه يا أجنس ، انظري .. انظري هنا " . — "هذا الوجه المليئ بالعطف ، والحزن ، وهذا الدمع الغزير ، ان هذا الحيوان يرقد بينما يده النقيه ترتفع الى السماء .
— "اجنس؟ " — "لقد انتهى الامر . وخيم الظلام امام عيني ، ولوقت ما غابت كل الاشياء عن ذاكرتي " .

(الفصل الخامس عشـــــر)

ولم أعرف كيف اتفقنا على أن ابحث عن مكان انشد فيه السلام والتغيير فارحل اليه. ولقد كان الفضل
في هذا لاجنس التي كانت رائدة لنا . وكان على أن اسافر للخارج . وكنت انتظر فقط ما سماه مســـتر
ميكوبر "نهاية هيب" وكنت انتظر رحيل المهاجرين. وبناء على طلب تردلز ، اعز اصدقائي ، عدلـــنا
الى كانتربرى : "اعنى عمتى واجنس وأنا . وذهبنا الى منزل مستر ميكوبر حيث كان يعمل في منزل مستر
ويكفيلد منذ بقاءنا الصاخب. قال تردلز وهو ينظر الى الاوراق على المنضدة: "والان دعنى ارى. لقــد
حسبنا الرصيد ومن الواضح ان مستر ويكفيلد يمكن ان يصفى عمله. ولا يوجد اى عجز بأى حال . وصاحـت
اجنس بحماس : "آه شكرا لله" . وقال تردلز: "ولكن لن يكون هناك فائض من المال يتعيش منه — واعتقـد
ان المنزل يجب ان يباع ، وحتى بهذا — سيكون المبلغ قليلا لا يتجاوز بضعة مئات من الجنيهات.

— "ياعزيزى مستر تردلز وياعزيزى تروتوود ، ان والدى تركنا بكرامة والذى كنت احتاج اليه. ولكـــن
— "هل فكرت كيف يا أجنس؟ "
تحملى لمستقبلنا على عاتقى كان السعادة الكبيرة التاليه التى عرفتها . وكثير من الناس يعرفوننى هنا ويعطفون علـــى
— "اننى لست خائفه ياترتوود ، وانا واثقه من النجاح . فاذا أجرت المنزل القديم ، وأدرت مدرسة ساكون ناعمـــه
وانا متأكده من ذلك. واحتياجاتنا ليست كثيرة . وتظاهر تردلز بفحص بعـض
وسعيدة . وقد ارجعت نبرات صوتها الى . وهدوئها ذكرى المنزل القديم ، وتنهدت عمتى قائلة: "حسنـــا
الاوراق . وقال تردلز: "وبعد ذلك يامسز ترتوود ، فبخصوص ممتلكاتك." وان لم تذهـــب
ياسيدى ، ان كل مالدى ان اقوله بشأنها هو انها اذا ذهبت فيمكنني تحمل ذلك ، واذا لم تذهـــب
فسيسعدنى استردادها . فقال تردلز: "انها كانت فى الاصل على ما أعتقد ثمانية الالاف من الجنيهات
فاجابت عمتى : "تماما" . وقال تردلز وهو مرتبك: "اننى لا أستطيع العثور الا على خمسة" . واستفســرت
عمتى : "تعنى . . . آلاف أم خمسة جنيهات؟ " وقال تردلز: "خمسة آلاف جنيه" . فاجابت عمـــتى :
"انها كل ما كانت هناك. لقد استخدمت ثلاثة بنفسى . ألفا لتعليمك ياعزيزى تروت. والالفين مازالـــت
معى لتنفع عند فقد الباقى ، وفضلت الا أتكلم عنها انما احتفظت بها ليوم عصيب . ولقد كنت أود أن
أعرف كيف ستخرج من هذا الامتحان ياتروت ، ولقد كنت نبيلا ، مثابرا ، معتمدا على نفسك ومفكرا لذاتـك
وهكذا أيضا كان ديك. وصاح تردلز بسرور: "وعلى ذلك يسعدنى ان اقول اننا استعدنا كل المبلـــغ" .
قال تردلز: "لقد اعتقدت انه قد اسئ استخدامه بواسطة مستر ويكفيلد؟ " قالت عمتى : "لقـــــد
اعتقدت هذا طبعا ، ولذلك صمت . ولا كلمه يا أجنس" . قال تردلز: "حقا انها بيعت ، ولكــــــن
لا داع لان أقول بواسطة من . لقد زعم بعد ذلك انها لمستر ويكفيلد بواسطة ذلك الوغد . واقحمه فـــى
التزوير . قالت عمتى : "حسنا ياعزيزى ، ولقد استعدت النقود منه؟ " فاجاب تردلز: "الحقيقـــــة
هى ان مستر ميكوبر قد أحاط به ، وكان مستعدا بدلائل جديدة اذا سقطت احداها ولكنه لم يستطــع
الهروب منا . وما الذى حدث له؟ " قال تردلز: "لا اعرف ، لقد غادر من هنا مع والدته ، وذهبنـــا
فى عربه ولا أعلم عنهما شيئا . وسألت : "هل تعتقد ان لديه اى مال ياتردلز" . — اننى اعتقد أن قـــد
اخفى فى جيبه مبلغا لا بأس به بطريقة او باخرى . ولكن الوغد سوف لا يبعده عن السوء . فهـــــو
يسعى دائما الى هدفه بطريقة شريرة .

وقال تردلز: "والان يجب ان اثنى على مستر ميكوبر ، فلولاه ولولا مثابرته وصبره لما استطعنــا أن
نتحدث عن شئ هام . فهو قد مثل الصواب من أجل الصواب ، ولقد دفع ثمن صمته بالشروط الـــتى
أملاها عليه هيب. وقلت : "وأنا اعتقد ذلك أيضا" . — "هذه الايصالات التى تدينه والتى اعطاها لـــه
مستر ميكوبر فى مقابل السلفيات" . قالت عمتى : "انها يجب ان تدفع" . ورد تردلز مندهشا : " ولكـنى
لا اعرف متى وأين ستطلب ، وانى اتوقع انه مابين هذا الوقت ورحيله سوف يقبض عليه . وقالت عمتى: اذن
فيجب ان يطلق سراحه . ما مقدار المبلغ فى جملته؟ ورد تردلز مبتسما : " ان مستر ميكوبر قد دون هـــذه
المعاملات ، ويقول ان المبلغ مائة وثلاثة جنيها وخمسة شلنات. وقالت عمتى : "فلنعطه هذا المبلــغ؟
ويمكنا ان نقتسمه بيننا أنا وانت يا اجنس فيما بعد . كم سيكون ؟ خمسمائة جنيه؟ " واوصينا أنــا
وتردلز بمبلغ صغير من المال ، ودفع حقوق يورايا فى حينها . واقترحنا ان الاسرة ترسل معها مائـــة
جنيه ويجب على مستر ميكوبر ان يقترض متحملا المسئولية الخاصه بتسديد الديون .

واصلحت عمتى من ملابسها وجلست تنظر الى الباب وقالت : "اشكرك ياعزيزى تروت. حسنا يامستر ومسز ميكوبر ، لقد كنا نناقش امر هجرتكم ونعتذر لجعلكم تنتظرون خارج الغرفة لمدة طويله ، وسأخبركم بالترتيبات التى اقترحناها . وشرحت للاسرة الموضوع ، وكان الاطفال حاضرين ، وخرج مستر ميكوبر كعادته دائما فى المساومات ـ ليشترى طوابع . ولكنه توقف وعاد مع ضابط بوليس ، وأخبرنا ودموعه تنهمر ان كل شئ قد ضاع . وكنا على اتم استعداد لهذا الحادث الذى قام بعمله يورايا هيب ، ودفعنا النقود فى الحال . وبعد خمسة دقائق كان مستر ميكوبر يجلس الى المنضدة وهو فى اشد حالات الابتهاج . وانتهت حوادث تلك الليلة وكنا فى أسى ومتعبين وكان على انا وعمتى ان نعود الى لندن فى صباح اليوم التالى . وركبنا متجهين الى كوخها الصغير فى هاى جيت ، ووجدنا المذكرة التاليه والتى وصلت فى بريد الصباح من مستر ميكوبر :

كانتربرى ـ الجمعـــه

سيدتى العزيزة وكوبرفيلد

ان الارض التى تبدو أمامنا فى الافق ، يغلفها الضباب ، وقد غابت عن أنظار بائس عرف مصيره . ولقد صدر أمر (من بلاط جلالة ملك بنس ووستمنستر) فى قضية هيب ضد ميكوبر . ولقد كانت النهاية سريعة (ان العذاب النفسى لايحتمل عند حد معين ، ولقد مررت به) واسير فى طريقى . باركم الله وانى لاجوب الارض يدافع حب الاستطلاع ، وبعدت عن المكان الملئ بالدائنين فى هذه المدينة . . .

ولكنز ميكوبر

ملحوظة : ان صديقنا مستر توماس تردلز الذى لم يتركنا ، قد دفع الدين والتكاليف باسم مس ترتوود النبيله ، واننا لنشكرها جزيل الشكر . انى اقترب مع مرور الايام من مرحلة مخيفة من حياتى ، وهى تلقى بظلالها حتى على احداث طفولتى . وترددت فى ترك خطاب لاميلى ، عندما كنت اود عمتها على ظهر السفينه ، وفكرت ان اكتب لها الان . وربما ترغب فى كتابة كلمة وداع لحبيبها التعس . ويجب ان اعطى لها الفرصة . وكتبت لها ، وسطرت لمستر بيجوتى ان يعطيه لها وأرسلته بالبريد . واستيقظت لوجود عمتى بجوار فراشى . وقالت عندما فتحت عينى : "ياعزيزى تروت، انى لم أرد ازعاجك . ان مستر بيجوتى هنا هل يصعد ؟ فقلت نعم ، وحضر فى الحال . وقال بعد أن حيانى : "يامستر ديفى اعطيت اميلى خطابك ياسيدى ، وكتبت هى هذا ، ورجتنى ان اعطيه لك ليكون فى عهدتك .

قلت : "اننى افكر فى الذهاب الى يارموث ، وهناك وقت كان قبل رحيل السفينه يمكننى من الذهاب والعودة . انه شعور رقيق منها . اننى قلق ويجب ان اتحرك ، سأذهب هناك الليلة . وتحدثت مع سائق العربة عن السماء والجو ، وقال السائق انه يتوقع أن يضطرب البحر فى أقرب وقت . وعصفت الريح طوال الليل وفى اليوم التالى ، وازدادت بشكل مدوى . وبقدوم الليل ، انتشرت السحب الكثيفة فى السماء وهبت الرياح بعنف حتى ان الخيل كانت تواجه الرياح بصعوبه وعندما كنا نناضل للاقتراب من البحر كانت الرياح تهب بعنف على الشاطئ ، ووصل الرزاز من البحر الى وجوهنا ، وأخذ المطر ينهمر علينا . وذهبت الى الفندق القديم ، ونزلت الى الطابق الارضى لارى البحر وهو يزيد ، تحت وطأة الرياح الهائجة . وكان الدوى وتطاير الرمال والاحجار شديدا ، مما أزعجنى ، وكانت الامواج هائجة عالية وكأنها ستبتلع المدينه .

عدت الى الفندق ، وعندما اغتسلت وارتديت ملابسى حاولت النوم ، ولكن عبثا . ورقدت ساعات اصغى لاصوات الرياح والمياه وتخيلت انى اسمع الان صراخا فى البحر وأصوات البنادق التى تعطى الاشارات واخيرا فقدت السيطرة على الواقع ، وتخيلت المدينه وهى محاصرة والمدافع تدوى . وكان قصف المدافع مرتفعا وبلا توقف ، حتى بذلت مجهودا لاصحو . وكان اليوم عاتيا والعاصفة تدوى وكان هناك شخص يقرع بابى ويناديني فصحت : "ما الامر؟ " ـ هناك تدمير يحدث بالقرب منا . وقفزت من الفراش ، ماهو هذا التدمير .

سفينه من اسبانيا أو البرتغال محملة بالفاكهة والنبيذ . اسرع ياسيدى اذا اردت ان تراها . انها ستتكلم على الشاطئ فى أى لحظة . وتدثرت بملابسى بسرعة على قدر الامكان ، وهرعت الى الطريق . وسبقتنى اعداد غفيرة من الناس الى هناك . وكانوا جميعا تجرون نحو الشاطئ . وجريت فى نفس الاتجاه حتى اصبحت امام البحر .

وبين ضجيج الجمهور ، واصوات البحر وهو يموج والريح وهى تصفر والاضطراب البادى على الجميع نظرت الى البحر ولم أجد الا زبد الامواج الهائجة ... وكان أحد البحارة يقف بجوارى ، وأشار بذراعه الصارى الى اليسار . ورأيتها قريبة منا . وقد كسر الصارى ، وهبط الى جانب السفينه وصحب معه جزءا من الشراع وكانت السفينه تدور بعنف شديد ودون توقف ، وقد بذلت بعض المحاولات لابعاد هذا الجزء المحطم ، ودارت السفينه تجاهنا . وكان ركابها يجاهدون بغؤ سهم ، وفى هذه اللحظة سمعت من الشاطئ صرخة مدوية علت على اصوات المياه والرياح ، واكتسح البحر الجزء المتحطم وحمل الرجال والزجاجات مع الموج الهائج .وكان الصارى الثانى مازال منتصبا ، والشراع باليا . واصطدمت السفينه صدمة . وأفهمنى البحار الذى بجوارى ان السفينه قد انقسمت وقد قدرت ذلك لان المجهود الانسانى لا يمكنه ان يتحمل اكثر من هذا فقد كانت ترتطم بشدة . ودوت صرخة أخرى من الشاطئ عندما صعد أربعة رجال من بين حطامها وهم يتعلقون ببقايا الصارى الى اعلى قدر المستطاع ودوى جوس على ظهر السفينه ، وكانت تلف وهى ترتطم حتى ظهر الان كل حطامها فقد انقلبت . ومالت على جانبها قرب الشاطئ وحملت الريح الناس الينا . ثم غابت وظهرت مرة أخرى بعد أن غرق شخصان وزادت المحنه على الشاطئ . وأخذ الناس يئنون ، وكانت النساء تصرخ وهن يشحن بوجوههن . وكان البعض يجرى بجنون عبر الشاطئ يطلبون النجده حيث لا نجده هناك . ووجدت نفسى انخرط فى هؤلاء الناس فارجو البحارة الا يدعوا هؤلاء الناس يهلكون امام اعيننا . وقالوا ان قارب النجاة لا يجدى ، ثم رأيت الناس ينقسمون قسمين ويفسحون الطريق لهام الذى جاء يخترق الصفوف الى المقدمة .

لقد كان وجهه ينم عن العزم ، وكانت نظرته توحى الى بالخطورة التى عاهدتها فيه . ومنعته بكلتا يداى ، وطلبت من الناس الذين كنت اتحدث اليهم الا يصغوا اليه ، والا يحرك الرمال . ودوت صرخة أخرى على الشاطئ ، وبالنظر الى الحطام رأينا الشراع يقذف بالرجلين وطار بهما بعد أن التف حولهما وأطاح بالشخص الذى يقبع على الصارى . وامام هذا المنظر قال هام وهو يمسكنى بكلتا يديه : "يا مستر ديفى . اذا كان وقتى قد حان ليباركك الله وليتبارك الجميع . أيها الرفاق اتركوا لى الامر انى ساذهب . واكتسحنى الناس الى مسافة برفق وجعلونى أظل بعيدا بينما كان يقف بمفرده وفى يده حبل بينما حبل آخر حوله جسمه يمسك به كثير من الرجال . والتف آخر حول قدميه على الشاطئ . ورأيت السفينه وهى تتحطم وتنفصل من وسطها وأحسست ان حياة الرجل الوحيد الذى على الظهر كانت تتعلق بخيط ضعيف ولا زال متعلقا به . وكان يرتدى قبعة حمراء ، وبينما الحطام والموت يحيط به من أسفل كان يلوح بالقبعة . واخذ "هام" يراقب البحر وهو يقف بمفرده ، وصمت الدهشه يحيط به ، والعاصفه أمامه حتى اخذت احدى الامواج تنحسر عن الشاطئ ، ونظر هام الى من يمسكون الحبل خلفه ، واندفع خلف الموجه وكان فى لحظة يصارع الماء ؤ ويرتفع ثم يهبط مع الموج ، ثم يغيب فى الزبد ثم يتقهقر مرة أخرى الى الارض وصاحوا عليه بسرعة . وصرخ "هام" ، ورأيت الدم على وجهه وأنا اقف فى مكانى ، ولكنه لم يعر هذا التفاتا . ويبدو أنه اعطاهم بعض التعليمات ليتركوا له الحبل ، ثم اختفى ثانية .

واتجه الى حطام السفينه ، مرتفعا مع الامواج ، كما كان يهوى معها أيضا حتى اقترب من السفينه محاولا بجهد وبسالة . ولم تكن المسافة بعيدة . ولكن شدة الامواج والارياح جعلت المحاولة عنيفه للغاية . وفى النهاية مالبث ان اصبح قريبا جدا من الحطام حتى اصبح فى امكانه بضربة من يده فى الماء ان يتعلق بها ، عندما علت موجة من الماء كالتل واتجهت الى الشاطئ وجاءت من خلف السفينه ، وبدا كانه يقفز فيها ، ثم اختفت السفينه . ورأيت الشظايا فى البحر وكأن زجاجة قد كسرت . وكان التركيز يبدو على كل وجه . وجذبوه عند اقدامى — فاقد الوعى ميتا . وحمل الى أقرب منزل ، ولم يمنعنى احد الان أن اقف بجواره وبذلنا كل الجهود لاعادته الى رشده ، ولكن حياته كانت قد انتهت بسبب الموجة الكبيرة ، وتوقف قلبه الكريم الى الابد . وعندما جلست بجوار الفراش ، وقد انحسر الامل وانتهى كل شئ وهمس بحار باسمى عند الباب وكان يعرفنى ويعرف اميلى عندما كنا صغارا . وقال البحار : "ياسيدى ، هل تأتى الى هناك من فضلك . وتذكرته كما دلتنى نظرته على انه تذكرنى . — "هل اتى احد الى الشاطئ"؟ — قال : نعم . وسألت عندئذ : "هل تعرفه؟" ولم يجب بشئ . ولكنه قادنى الى الشاطئ . وفى نفس المكان الذى تعودت انا وهى ان نجمع الحصى ونحن أطفال رأيته يرقد ورأسه على يده ، كما تعودت أن اراه وهو يرقد بالمدرسة .

لاحاجة بي ياستيرفورث أن أقول ، اننا حينما تحدثنا في الماضي وكنت لاأظن انها ستكون ساعة الفراق . لاحاجة بي أن اقول : "اذكرني بالخير . لقد فعلت هذا ، وهل يمكنني ان أتغير وأنا انظر الى هذا المنظر . وعندما استجمعت أفكاري ، أرسلت الى جوارم ورجوته أن يوصلني في المساء الى لندن . وفي يوم من أيام الخريف ، عند الظهر وصلت هاى جيت وكانت الارض مخطرة من شذى الاوراق الساقطة كما كانت الشمس ساطعة . ولم تواتني الشجاعة أن أدق جرس البوابه ، وعندما وضعت أصبعي على الجرس خرجت الخادمة والمفتاح في يدها . ونظرت الى باهتمام وفتحت البوابه وهي تقول : "هل هناك شيء ياسيدي؟ مستر جيمس . . ؟ قلت : "امهلي . نعم لقد حدث شيء اريد أن اخبره الى مسز ستيرفورث هل هي بالمنزل؟" . وبعد دقائق وقفت أمامها . وجلست روزا دارتل بمقعدها كالمعتاد . وعندما رأتني لاول وهله علمت أنني احمل اخبار سيئة . وظهر الحزن على وجهها وقتئذ . وتراجعت لتبعد وجهها عن مسز ستيرفورث ونظرت الى محلقه ، ولم تتراجع .

وقالت مسز ستيرفورث : "انني مندهشه اذ الاحظ انك تلبس ملابس الحداد" . وقلت : "انه لسوء حظي أرمل" . فقالت : "انك صغير اذ أصبت بهذه الخسارة . انه ليحزني سماع هذا . آمل أن يتحسن مع الزمن" . وقلت وأنا أنظر اليها : "آمل أن يكون الزمن رفيقا بنا جميعا . ويجب علينا أن نثق في هذا يامستر ستيرفورث ، ونحن في أشد حالات بؤسنا وأزعجها جدية تصرفاتي والدموع التي كانت تنزل من عيني ، وترقف تفكيرها وتغير . — "هل ابني مريض؟" — "مريض للغايه" . — "هل رأيته؟" — "رأيته" . — "هل تصالحتما؟" — "لاأستطيع الاجابه بنعم أو لا" . وقلت بضعف : "عندما كنت هنا أخيرا ، اخبرتني مس دارتل انه كان يبحر هنا وهناك . وكانت الليلة الماضيه ليلة ليلاء بالبحر . واذا كنا في البحر تلك الليله ، وبالقرب من الشاطئ الخطر كما يقولون ، واذا كانت السفينه التي رأوها هي حقا السفينه التي . . ." وقالت مسز ستيرفورث : "تعال ياروزا" . وجاءت ولكن دون عطف او رفق . كانت عيناها تبرقان كالنار عندما واجهت والدته وضحكت ضحكة مخيفه . وقالت والان : "هل هدأ كبريائك ايتها المرأة المجنونة ؟ وهل كفر عن ذنبه لك في حياته . هل سمعت؟ — حياته ! سوى الانين ووقعت مسز ستيرفورث متصلبه على مقعدها ، ولم تصدر أى صوت وحملقت فيها بشدة .

وصاحت روزا وهي تضرب بيدها على صدرها : "نعم ، انظر الى . وتأوهي وانظري الىّ . انظري هنا ، وضربت بيدها على الندبة ، هذا مافعله ابنه المتوفى بيده . وكان انين الام الذى تزفره يذهب الى قلبي . وقالت : "هل تذكري عندما فعل هذا في عزعاطفته وكبرياءه وانكر علىّ الحياة ؟ انظري الىّ وقد وصمني بهذه العلامة حتى أموت وهو مسرور ، فتأوهي لما فعلته به . وقاطعتها : "يامس دارتل بحق السماء . . ." والتفتت الىّ بعينيها المشتعلتين : "ساتكلم . واصمت انت . انظر الىّ ايتها الام المتعجرفه لابن متعجرف ، وطدت يدها ، وأخذت ترتعد كما لو كانت تقتلها عاطفتها شيئا فشيئا . وصاحت : "انك تغضبين من أجل صحبه الحاد ، وانت قد اوذيت بتكبره ، انت التى قمت بتربيته منذ طفولته لكى يكون على ماهو عليه ، ولم تستمعي لما كان يجب أن يكون . هل أخذت الجزاء الان ثمن السنين التي أجهدت نفسك فيها ؟" — "ياللعار يامس دارتل ! ايتها القاسيه . وأجابت : "انني اخبرك بأنني سأتحدث اليها . هل أكون قد صمت طوال هذه السنين ، ثم لا أتكلم الان؟ انني احببته اكثر منك ! — ونظرت اليها بقسوة — لقد كنت متكبرة وانانيه . ولقد كان حبي خالصا أما حبك فقد داس عليه بالاقدام . انظري هنا ، وقالت وهي تضرب على الندبة ثانية وبيد لاتستقر : "وعندما ايقن مافعل ، ندم على مافعله ، وقد ضربته . وعندما كان صغيرا صادقا ، أحبني . نعم لقد احبني . وكثيرا ماكان يقربني من قلبه . وعندما ضعف حبه ابتعدنا عن بعضنا بكلمة واحدة . وربما شاهدت هذا ولم تأسفي . توجعي ؟ وتألمي لما فعلته به وليس من أجل حبك . انني اقول لك أن هذا الوقت كان عندما أحببته اكثر مما كنت تحبينه . ووقفت بعينها الغاضبه اللامعة في مواجهة النظارة المحملقة والوجه الجامد . ولم يتغير طوال الوقت ووجهها فطل بلا حركة ، وكانت محملقة وتئن بنفس الطريقة من وقت لاخر ، ولكن لاتبدى حركة اخرى تدل على الحياة . وعدت في آخر اليوم . وكانت كما هي ، ولم يتركها مس دارتل ابدا ، وجاء الاطباء للعنايه بها ، وحاولوا الكثير ، ولكنها كانت ترقد بلا حراك كالتمثال عدا بعض الاصوات الخفيضة بين حين وآخر .

وتجولت داخل المنزل الحزين لاغلق النوافذ • ثم ألقيت في النهاية نافذة الغرفة التي كانت بها • ووضعت يدها الثقيله الى قلبى ، وبدا كل العالم وكأنه ميت وصامت ولا يقطعه سوى انين الام فحسب •

(الفصل السادس عشر)

نزلت اسرة ميكوبر فى فندق قذر صغير ، وكانت به غرف خشبيه خارجه تجاه النهر • وكانت عمتي واجنس هناك ، منهمكتان فى عمل ملابس الاطفال • وكانت بيجوتى تساعدهم بهدوء • وسألت عمتي : " ومتى ستبحر السفينه يامستر ميكوبر " ؟ وأجاب : "اخبرونى ياسيدتى اننا يجب أن نكون على ظهرها قبل السابعة صباح الغد • وحتى نبحر ، سنراقب انا ومستر بيجوتى أمتعتنا وحاجياتنا • وقالت مسز ميكوبر : " ياعزيزتى ايما ، ان صديقى مستر توماس تردلز أنهى الىّ سرا • فهو يريد شوى قطعة من اللحم من أجل قليل من المشروبات وأرجو أن يروق هذا مستر تروود ومس ويكفيلد ، ولكن • • • • " وقالت عمتي : " من ناحيتي يمكنني ان اقول عن نفسي فقط انه يسعدني ان أعمل على اسعادكم وتوفيقكم بكل سرور يامستر ميكوبر • وقالت أجنس بابتسامة وأنا أيضا كذلك • ونزل مستر ميكوبر في الحال الى البار وعاد ومعه ابريق يتصاعد منه البخار • وكان يقطع الليمون بسكين •

وقالت مسز ميكوبر : "اود يامستر ميكوبر ، اذ استطعت التعبير أن اكون المهيمنه على الاموال • فمنذ اول وهلة للرحلة اود يامستر ميكوبر أن اقف على مقدمة السفينه واقول : "كفى تأخيرا ، كف خيبة أمل ، وكف ضيق ذات اليد • لقد كان هذا فى البلدة القديمة وهذه هى البلدة الجديدة • فهات ماجهزته هنا •

وطوى مستر ميكوبر ذراعيه بطريقة تدل على العزم والتصميم وقال : "ياحبيبتى ، من المحال بالنسبه لى الا أتأثر بعواطفك وما سيحدث فسوف يحدث " قالت عمتي وهى تومئ برأسها الى مستر بيجوتى : "حسنا ، واشرب فى حبكم جميعا ، وأرجو لكم التوفيق والبركة " وعندما انتهى الحديث ، نهضت عمتي واجنس وافترقنا عن المهاجرين وكان وداعا مؤسفا • فكان الجميع يبكى ، وتعلق الاطفال بأجنس حتى آخر لحظة • وبعد ظهر اليوم التالى ذهبت انا ومربيتى العتيدة الى جوافسند • ووجدنا السفينه فى النهر ، يحيط بها عدد من القوارب ، وهبت ريح مواتيه ، ورأينا اشارة الرحيل على قمة الصارى وأجرت قاربا وذهبنا الى السفينه وكان مستر بيجوتى ينتظرنا على سطح السفينه • وأخبرنى ان مستر ميكوبر قد القى القبض عليه توا للمرة الثانيه (والاخيرة) بناء على طلب هيب ودفع المال • وأخذنا الى أسفل السفينه وكان منظرا غريبا بالنسبه لى • وكان المكان مظلما وضيقا ، وبدأت بالتدريج أستطيع الرؤيا عندما تعودت على الظلام •

وكان بين الاشياء صناديق وحاجيات المهاجرين ، وخليط من لوازمهم • وكان الناس قد تجمهروا يودعون بعضهم البعض ، ويتحدثون ويضحكون ، ويبكون ، ويأكلون ويشربون • وكان بعضهم يجلسون فى مكان ضيق ومعهم لوازمهم بينما آخرون لا يجدون مكانا ولذا كانوا يتجولون •

واعتقد انى لمحت شبحا يشبه اميلى كان يجلس بجوار احد اطفال مستر ميكوبر • ولكن فى غمرة الاضطراب والفوضى غاب الشبح عن ناظرى ثانية • وحان الوقت ليترك المودعون السفينه ، وكانت مربيتى ترتب حاجيات أخيها • وقال : "هل هناك كلمة أخيرة يامستر ديفى ؟ هل هناك شئ نسيناه قبل ان نفترق ؟ " قلت : "شئ واحد ، مارثا " • ولمس بيده كتف المرأة الصغيرة التى أشرت اليها فوقفت ماريا أمامى • وصحت : "بارك الله فيك أيها الرجل الطيب اذ تصحبها معك " • ولم أستطع أن اتحدث اكثر من هذا فى ذلك الوقت ولكنى ضغطت على يده ، ولو أننى احببت واحترمت رجلا من كل قلبى لكان هذا الرجل • وودعت مسز ميكوبر على السطح • وكانت تتطلع الى اسرتها ، وكانت آخر كلماتها لى انها سوف لا تترك مستر ميكوبر • ورجعنا الى الشاطئ فى قاربنا ، ومكثنا على الشاطئ حتى نراها وهى تسير فى طريقها وكان غروب هادئ وهاج وعندما نشرت الاشرعه للريح ، وبدأت السفينه فى الابحار ، كانت هناك تحيات وداع بثلاث يمعتونها الركاب ويتردد صداها مرة ومرات • وأخذ قلبى يدق بشدة عندما صمت الصوت ، ورأيت تلويح القبعات والمناديل ثم رأيتها • لقد رأيتها بجوار عمها • وأشار الينا بيده • وقد رأتنا ولوحت بيدها لى مودعة • وكانت تتعلق به ، وهو يمسك بها ، ورحلوا بهدوء • وضم الليل على التلال عندما عدنا الى الشاطئ • وانتابنى أسى عميق • ولقد كانت ليله كئيبه أثرت على وافزعتنى فيها الاشباح والامال المريضه وكذا ذكريات عزيزة ، واخطاء كثيره ، وآسى لاحد له •

ورحلت عن انجلترا ، ولم أعرف كيف سأتحمل الصدمة • كمن جرح فى معركة ولم يدركها ويدرك ألم الجرح • وكنت اجوب من مكان لآخر حاملا لهذا العبئ معى فى كل مكان • وشعرت بثقلها الآن ، وسقطت تحت وطأته وقلت أنه سوف لا يخف أثره • لانى كنت اسافر شهورا عديدة احيانا دون أن استقر بمكان وأحيانا أتبع لمدى طويل فى بقعة ما دون أن يكون لى هدف فى أى مكان ومع ذلك ظل مسيطرا علىّ وذهبت الى سويسرا • وتركت ايطاليا عبر أحد ممرات الالب وتجولت معاونة مرشد عبر الجبال • ولقد تجولت فى المرتفعات ، وفى مناطق الثلوج ، ولكنها لم تعلمنى شيئا حتى ذلك الوقت • ونزلت الى الوادى فى احدى الامسيات مثل غروب الشمس ، على مرتفعات الثلوج التى كانت تحيط بها كالسحب • وكانت وديان الجبال خضراء • وفى هدوء المكان سمعت صوتا بعيدا يغنى • وعندئذ تحدثت الطبيعه بجلالها الىّ ، ووضعت رأسى على الخضرة ، وبكيت كما لم أبك منذ وفاة دورا •

ووجدت مجموعة من الخطابات تنتظرنى ، وخرجت الى القرية لاقرأها بينما كان طعام العشاء يعد لى • وفتحتها وقرأت ما أخبرتنى به عن نفسها • اما الباقى فكان لى • ووضعت الخطاب قرب صدرى وتكسرت فيما كنت عليه منذ ساعة • وسمعت الاصوات تخبو • وخيم الظلام ، ولكنى شعرت ان بلبلة الافكار كانت تنحسر عن عقلى ، وتبددت ظلالها ، ولم يكن هناك ما أستطيع به وصف الحب الذى اكنه لها • لقد كنت أشعر دائما بضعفى عند مقارنته بصلابتها ، وشعرت به الان اكثر • ومهما كنت بالنسبة لها ، أو هى بالنسبة لى ، واذا كنت جديرا بها منذ أمد بعيد فانى الان لست كذلك بالنسبة لها ، وهى ليست كذلك بالنسبة لى • وقد مضى الوقت • وأنا الذى جعلته يمضى ، وفقدتها وأنا المتسبب فى ذلك •

(الفصل السابع عشر)

ومرت سبع سنوات منذ رحيل سفينة المهاجرين ، عندما وقفت على سطح السفينه التى عدت بها الى الوطن • ورسوت فى لندن مساء خريف مظير • وركبت عربه دوفر ودخلت واذا بعمتى فى الصالة تحتسى الشاى ، واستقبلتنى هى ومستر ديك وبيجوتى العزيزة ، التى كانت تدير شئون المنزل ، وكانت أياديهم ممدودة ودموع الفرح تتساقط • وعندما أصبحت أنا وعمتى بمفردنا ، تحدثنا كثيرا خلال الليل • عن المهاجرين الذين كتبوا لهم عن سعادتهم وربتت عمتى على يدى قائلة ونحن نجلس بجوار المدفأة : "ومتى يا تروت ستذهب الى كانتربرى ؟ — "سأحضر حصانا وسأذهب غدا صباحا ياعمتى الا اذا ذهبت معى " • قالت عمتى بلهجتها المفاجأة : "لا ، اننى انوى أن امكث حيث أنا " • قلت : "اذن أركب ، اننى لا أمر بكانتربرى دون أن اتوقف هناك ، واننى لم أحضر الا من أجلها •

وسرت وأجابت : "حسنا ياتروت فالى الغد — وربتت على يدى رقه مرة ثانيه ، بينما كنت أجلس مفكرا امام المدفأة • مفكرا لاننى لم أستطع ان اكون هنا مرة اخرى بالقرب من أجنس ، دون استعادة الاسى الذى اثقلت به منذ زمن بعيد • انه أسى قد يكون بسيطا لكنه علمنى اننى فشلت فى معرفة ماكان أمامى وانا فى حداثة سنى وجمعت بيننا لحظات • ورفعت عينىّ ووجدت انها لازالت تراقبنى • فربما تتبعت مجرى تفكيرى • وكنت افكر بصوت مرتفع اكثر منه كلاما : "هل لدى أجنس" وقالت عمتى بجدة : "حسنا ؟ ماذا ؟ ألديها أى شئ ؟ قلت : أى محبوب ؟ " صاحت عمتى بغضب وكبرياء فى عشرون ، كان يمكن ان تتزوج عشرون مرة ، منذ أن رحلت • " قلت : "لاشك ، ولكن هل لديها محبوب جدير بها ؟ " ان أجنس لاتهتم الا بهذا • وجلست عمتى مفكرة قليلا ، وذقنها على يدها ، ورفعت بصرها ببطء الىّ وقالت "أشك ان لها ارتباط" قلت : "شخص لامع؟ " وردت عمتى بجديه : "ياتروت لا أعرف • وليس لى حق أن اخبرك كثيرا • فانها لم تخبرنى بهذا ، وانما أشك فى ذلك فقط • ونظرت الىّ باهتمام ، حتى اننى شعرت انها كانت تتبع أفكارى • ولقد استعدت قراءتى التى توصلت اليها خلال الايام والليالى العديدة ، وصراعات قلبى الكثيرة •

وقلت : "اذا كان الامر كذلك ، وآمل ان يكون • • • " وقالت عمتى : " اعرف ما هو الامر • ويجب الا تحكم بناء على شكوكى • يجب ان تبقيها سرا • انها قليله وليس لى الحق فى الكلام • وردت : "اذا كان الامر كذلك ، ستخبرنى اجنس فى حينه • " وركبت مبكرا فى الصباح ، الى مكان دراستى القديم • ووصلت الى الشوارع الهادئه المعهودة لدى • وذهبت الى المنزل العتيق ، ونظرت الى الغرفة التى كان

يجلس بها يوريا هيب ، ثم بعد ذلك مستر ميكوبر ووجدت انها اصبحت صاله صغيرة الان • ولم يكن هناك
مكتب • وطلبت من الخادمة التى أدخلتنى ان تخبر مستر ويكفيلد ان شخصا آت من صديق بالخارج ينتظره
ثم دخلت الى غرفة الجلوس • وكانت الكتب التى قرأتها وانا واجنس على رفوفها ، وكذا المكتب الذى كنت
أدرس عليه • وكان كل شئ كما كان عليه فى الايام السعيدة الماضية •

والتقت عيناها الجميلتان بعينى عندما عبرت الباب واتجهت نحوى • ثم وقفت ووضعت يدها على صدرها ،
وتلقيتها بين ذراعى • — "لقد كان مجئ ياعزيزتى فجاة" • — "لا • • لا انى سعيدة اذ اراك ياتروتوود •
— "اننى سعيد ياعزيزتى اجنس ، اذ اراك ثانية" • وضممتها الى قلبى ، لحظة وظللنا صامتين • وجلسنا
بجوار بعضنا • ووجهها الملائكى كان متجها لى بترحيب كنت أحلم به ، وانام وأصحو عليه سنوات بكاملهـا •
وكانت ظاهرة جميله ، وكنت مدينا لها بالفضل ، وكانت عزيزة لدى ولا أستطيع أن اعبر عما أشعر به ، وحاولت
شكرها واخبارها (كما فعلت فى الخطابات) بمدى تأثيرها على ولكن محاولاتى ذهبت سدى • لقد كان حبى
وسرورى صامتا • وسألت أجنس بعد فترة : "هل لديك النيه فى الذهاب الى الخارج ثانية؟ وقالت "اظـن
يجب الا تذهب ياتروت" • ان شهرتك الذائعه ونجاحك ، يمكن أن يحققا لك الخير • — "ماذا أنـا ،
لقد صنعتينى انت يا اجنس • يجب ان تعرفى هذا" • — "انا صنعتك ياتروت؟" • قلت وأنا اقترب منها
"نعم يا اجنس ، يافتاتى العزيزة • لقد حاولت أن اجدك عند لقائنا اليوم شيئا كان يشغل بالى منـذ
وفاة دورا • اتذكرين يوم أن جئت الى فى حجرتى الصغيرة ، — "واشرت الى الطابق العلوى — يا أجنس؟"
فأجابت وعينيها مليئة بالدموع : "آه ياتروتوود ، هل لى ان انسى ؟" — "انك كما كنت من قبل لم تتغيرى
بالنسبه لى • دائما تشيرين الى اعلى ، وتقودينى الى ماهو أفضل ، ودائما توجهينى تلك الامور العليا" •

وهزت رأسها فقط ، ورأيت الابتسامة الحزينة الهادئة خلال دموعها • وأثناء عودتى فى الليل ، أخذت
افكر وخشيت الا تكون سعيدة • ولم أكن انا سعيدا ، ولكنى انهيت مايتعلق بالماضى" • واقمت فـى
منزل عمتى بدوفر لوقت ما • وأحيانا كنت أذهب الى لندن ، لانغمس فى خضم الحياة هناك ، او لاستشير
ترددلز فى أمور معينه ، وكان يعطينى الرأى الصائب" • وجاءت السنة الجديدة وكنت قد قضيت بالوطـن
مايربو على الشهرين ، وكان عيد الميلاد • وقالت عمتى • "هل ستذهب اليوم ياتروت؟" فقلت : "نعـم
سأذهب الى كانتربرى • هل تعلمين شيئا اكثر عن ارتباط اجنس؟" ونظرت الى قليلا قبل ان تجيـب :
"اعتقد اننى اعرف" • واستفسرت منها : "هل انت واثقه من اعتقادك؟" — "اعتقد هذا ياتروت" •
ونظرت الى بشك ، او بعطف ، حتى اننى اظهرت لها وجها باشا • وقالت عمتى : "وماذا بعد يارتروت • •"
— "نعم" • — "اعتقد ان اجنس ستتزوج" • وقلت بابتهاج : "باركها الله" • وقالت عمتى : "باركهـا
الله ، وبارك زوجها أيضا" •

وتركت عمتى وأنا أردد هذا ، وركبت حصانى وانطلقت • لقد وجد الان سببا كبيرا يدعونى أن انفـذ
ما صممت عليه • ووجدت اجنس بمفردها ، وجلست بجوارها ، وتحدثت معها عما أقوم بعمله ، وعن مدى التقدم
الذى احرزته فى العمل منذ زيارتى الاخيرة • وكانت اجنس مبتهجة ، وضحكت وتنبأت بأننى ساصبح شهيرا
حتى اننى فى المستقبل لن أتحدث فى مثل هذه الموضوعات • وقالت اجنس : "ولذا فاننى انتهز الوقـت
الحاضر واتحدث معك قدر ما استطيع" • وبينما كنت انظر الى وجهها الجميل • رفعت عينيها ولاحظـت
اننى انظر اليها • — "انك تفكر اليوم كثيرا ياتروت" • — "هل اخبرك بما افكر فيه؟ لقد جئت لاخبرك • • •
هل تذكرين اننى عندما عدت الى الوطن وجئت هنا لاخبرك بمدى ماتطوقين به عنقى من جميل؟" وقالـت
برقة : "اذكر هذا جيدا" • قلت : "ان لديك سرا • دعينى اشاركك اياه يا أجنس" وخفضت من ناظريهـا
وارتعدت • — "يجب ان اوضح لك • • ارجو من أجل السماء يا اجنس ، الا نسئ فهم بعضنا بعد هذه
السنوات • يجب ان اتكلم بوضوح • فعندما جئت الى هنا اليوم اعتقدت انه ليس هناك مايفقد احترامى لـك
ولقد كنت احبس هذا فى صدرى طوال حياتنا حتى نكبر • وعندما احببت دورا ، وأغرمت بها كما تعلميـن
يا أجنس • • • فصاحت بحماس : "نعم ، فاننى سعيدة بمعرفة هذا" • — "وحتى عندما احببتهـا
فان حبى لم يكن كاملا دون عطفك الذى اكمله • وعندما فقدتها ، فماذا سيكون عليه حالى بدونك • ووضعت
يدها المرتعده على كتفى ، وكانت قريبة منى ومن قلبى • وعينيها الجميلتين تلمعان خلال دموعها وتنظر الى :
— "ولقد رحلت بعيدا يا اجنس ، وهكثت هناك وأنا أحبك • وعدت الى الوطن وأنا احبك" •

— "ان قلبي منعم بالعاطفه ياتروت ، ولكن ثمة شئ يجب ان اقوله" — "ماهو ياعزيزتي" ووضعت يدها الرقيقة على كتفي ، ونظرت الي وجهي بهدوء — "هل تعلم حتى الان ماهو؟" — "انني اخشى التفكير فيه" اخبريني ياعزيزتي" — "لقد احببتك طوال حياتي" .

.. وتزوجنا خلال اسبوعين . وكان تردلز ودكتور سترونج الضيفين الوحيدين في حفل زواجنا . وتركناهما سعيدين وركبنا وانطلقنا معا . قالت اجنس "يازوجي العزيز ، ان هناك شيئا واحدا يجب ان اخبرك به" — "دعني اسمعه ، ياحبيبتي" — "انه يأتي من الليله التي توفيت فيها دورا ، وأرسلتك الي" — "نعم ارسلتني لك" — "قالت انها تركت لي شيئا . هل تعرف ماهو" — "اعتقد اني استطيع معرفته . لقد جذبت الزوجة التي احبتني منذ أمد بعيد" — "اخبرتني انها تطلب طلبا اخيرا مني ، وتركت لي شيئا في عهدتي" — "وكان ..." — "ان اشغل هذا المكان الشاغر" ووضعت اجنس رأسها على صدري وبكت ، وبكيت معها رغم سعادتنا . والان تنتهي القصة التي اكتبها ، واتطلع الى الوراء مرة أخرى — ولآخر مرة — قبل ان انتهي منها ... اني أرى نفسي واجنس بجواري تسير معي في ركب الحياة . وأرى اطفالي وأصدقائنا من حولنا ، واسمع اصواتا كثيرة ، ليست غريبة عني وأنا أرحل . وما هي الوجوه الواضحه بالنسبه لي في زحام البشر ؟ انها تلك التي تنظر الي اذ أسأل نفسي هذا السؤال . فهاهي عمتي تضع على عينيها نظارتها ، عجوز بلغت الثمانين واكثر ، ولكنها مازالت منتصبة القامة ، وتسير ستة اميال في الشتاء .

ومعها دائما بيجوتي ، مربيتي العتيدة ، وتضع ايضا على عينيها نظارة ، وهي تعمل في أشغال الابرة مساء قرب المصباح والشمعدان ، ومسطرة ، وصندوق على غطائه صورة القديس بول .

وفي جيب بيجوتي كتاب التمساح وقد أصبح الان في حالة رثه ولكن بيجوتي مازالت تعرضه على الاطفال باعتباره كنزا ثمينا ، وأرى انا فيه وجه طفولتي يتطلع الى القصص التي به . وبين اطفالي ، في عطلة الصيف اري رجلا مسنا يصنع الطائرات ، ويحلق فيها وهي في الجو مبتهجا للغاية . ويحييني ويهمس بايماءات وغمزات ويقول : "انك ستفرح ياتروتود اذ ستسمع انني سأنهي المذكرات ، عندما لا أجد ما أعمله ، وان عمتك اكثر امرأة مدهشة في هذا العالم ياسيدي" .

* * *

والان فاني انهي عملي ، وهذه الوجوه تذوي بعيدا . ولكن ثمة وجه يبقى فوقهم جميعا . وأديـر وجهي وأراه بجواري في قمة جماله . ويخبو ضوء المصباح ، وأسطر كثيرا متوغلا في الليل ، ولكن في صحبتي ذلك العزيز الذي بدونه لاأصبح شيئا .

آه يا اجنس ، فهل لهذا الوجه أن يظل بجواري حتى نهاية حياتي ، وهل يبقى حتى تذوب الحقائق كالظلال التي أبعدها عن طريقي الان ، وهل اجده دائما بجواري مشيرا الى العلاء .